النص الكامل

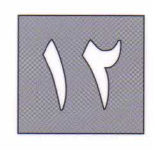
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

جَريمَة في القَرْيَة









جَريمَة في القَرْيَة

كان الكولونيل ميتاً... لم يكن في الأمر شك؛ كان منبطحاً مادّاً ذراعَيه على المكتب في وضع مرعب غير طبيعي.

شجّعتُ نفسي واتّجهت إليه. اليد الباردة التي رفعتها سقطت هامدة بلا حياة!

المشكلة أنني كنت أقول -قبل ذلك ببضع ساعات فقط- إن أي شخص يُقْدم على قتل الكولونيل بروثيرو سوف يقدّم خدمة جليلة للعالَم.

وقد فعل أحدهم ذلك... في مكتبي!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

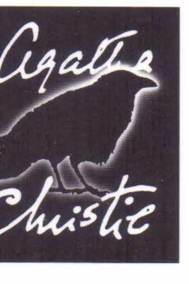
Agatha Christie



The Murder at the Vicarage

الآنسة ماربل

MARPLE





٢

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحص
بالطبعة العربية في جميع أنحاء ا





ISBN 2-1957-2613-2



أغاثا كريستي

جَريمَة في القَرْيَة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٠ بعنوان
The Murder at the Vicarage

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House

الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

جَريمَة في القَرْيَة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٠

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أجد صعوبة في تحديد نقطة البداية لقصتي هذه، ولكنني قررت البدء من واقعة غداء في بيتي في أحد أيام الأربعاء. ورغم أن الحديث الذي دار وقتها لم يكن يمتّ إجمالاً لموضوع القصة، إلاّ أنه انطوى على بعض الإشارت الموحية التي أثّرت على التطورات اللاحقة.

كنت قد أنهيت لتوي تقطيع بعض اللحم المسلوق (الذي كان -بالمناسبة- قاسياً جداً)، ولدى عودتي إلى مقعدي قلت بطريقة لا تناسب أبداً ثياب رجل الدين التي أرتديها إن من شأن امرئ يقتل الكولونيل بروثيرو أن يقدم بذلك خدمة للعالم بأسره.

قال دينيس، ابن أخي الشاب، على الفور: إن قولك هذا سيُتخذ دليلاً ضدك إذا ما عُثر على الرجل قتيلاً يسبح في دمه. وسوف تشهد ماري ضدك، أليس كذلك يا ماري؟ وستصف لهم كيف لوحت بسكين تقطيع اللحم بطريقة توحي بحب الانتقام.

أما ماري -التي تعمل خادمة في بيتنا ريثما تحصل على فرصة أفضل- فقد اكتفت بأن قالت بصوت عملي مرتفع: «الخضار»، ورمت إليه بالطبق بأسلوب عدائي.

قالت زوجتي بأسلوب ينم عن التعاطف: أكان مزعجاً جداً؟

لم أجبها فوراً، لأن ماري -وقد ألقت بطبق الخضار بقوة على المائدة- تقدمت لتدس تحت أنفي طبقاً من الزلابية اللزجة التي أمقتها. قلت لها: "شكراً، لا أريد"، فأعادت إلقاء الطبق على المائدة بشدة وغادرت الغرفة.

قالت زوجتي بنبرة أسف حقيقي في صوتها: من المؤسف أن أكون ربة بيت سيئة جداً.

كنت أميل للاتفاق معها في ذلك. زوجتي اسمها غريزلدا، وهو اسم يلائم زوجة رجل دين، لكن الملاءمة تنتهي عند هذا الحد؛ فهي أبعد ما تكون عن الطاعة والامتثال.

لقد كنت دوماً من الذين يرون أن على رجل الدين البقاء دون زواج، وما زلت حائراً في معرفة السبب الذي دفعني إلى الإلحاح على غريزلدا لكي تتزوجني بعد أربع وعشرين ساعة فقط من تعارفنا. لقد آمنت دوماً بأن الزواج مسألة جدية لا ينبغي دخولها إلاّ بعد طول تفكير وتدبّر، وأن تلاؤم الأمزجة والميول مسألة في غاية الأهمية.

تصغرني غريزلدا بنحو عشرين سنة. وهي جميلة جمالاً يذهل المرء عن نفسه، لكنها عاجزة عن التعامل بجدية مع أي أمر؛ فهي تفتقر إلى الكفاءة بكل معانيها، والعيش معها عملية مضنية تماماً. إنها تتعامل مع الأبرشية وكأنها صرح ليس له من هدف إلاّ تسليتها. وقد سعيت إلى إعادة صياغة تفكيرها وفشلت، وإنني مقتنع اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن العزوبية أفضل لرجل الدين، ولطالما لمّحت بذلك لغريزلدا، ولكنها كانت تكتفي بالضحك.

قلت لها: يا عزيزتي، لو أنك تُبدين فقط قليلاً من الاهتمام...

- إنني أهتم أحياناً، ولكنني أظن -عموماً- أن الأمور تسوء أكثر عندما أحاول ذلك. يبدو واضحاً أنني لست ربة بيت بطبيعتي. أجد أن من الأفضل ترك الأمور لماري وتوطين النفس على تقبّل وضعٍ مزعج ومأكولات كريهة.

قلت مؤنباً: وماذا عن زوجك يا عزيزتي؟ ألم يقل رجال الدين القدامى إن على المرأة أن تتقن شؤون بيتها؟

قاطعتني غريزلدا بسرعة قائلة: فكّر كم أنت محظوظ إذ لم تلقَ مصيرهم فتقطّعك الأسود إرباً، أو تُشوى في النار. إن الطعام السيّء وكثرة الغبار والحشرات الميتة في البيت ليست أموراً تستحق كل هذه الشكوى. أخبرني أكثر عن الكولونيل بروثيرو... إن رجال الدين القدامى محظوظون لأنهم -على الأقل- لم يعرفوا أمثاله.

قال دينيس: إنه متوحش مغرور؛ لا عجب أن امرأته الأولى هربت منه.

قالت زوجتي: لا أراها كانت قادرة أن تفعل غير ذلك.

قلت بحدة: غريزلدا! لا أريدك أن تتحدثي بهذا الشكل.

قالت زوجتي بمحبة: أخبرني عنه يا عزيزي. أين كانت المشكلة؟ أكانت بسبب إيماءات هاوز وإشاراته المتكررة؟

هاوز هو مساعد الكاهن الجديد عندنا، وقد بدأ عمله منذ ثلاثة أسابيع، وهو ذو آراء تولي أهمية كبرى للطقوس في حين أن

الكولونيل بروثيرو من أشد معارضي الطقوس أياً كان نوعها.

قلت رداً على سؤال زوجتي: لم يكن هاوز هو السبب هذه المرة. لقد أشار بروثيرو إليه إشارة عابرة، ولكن المشكلة كلها كانت بسبب جنيه السيدة برايس ريدلي المشؤوم.

كانت السيدة برايس ريدلي من الأتباع المخلصين في أبرشيتي. وقد حدث -أثناء حضورها صلاة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاة ابنها- أن وضعَتْ جنيهاً في صندوق التبرعات. ولدى قراءتها لاحقاً لقائمة التبرعات آلمها أن تلاحظ أن أكبر فئة من النقود تم ذكرها هي عشرة شلنات!

وقد اشتكت لي بخصوص ذلك، فقلت لها بطريقة معقولة إنها قد توهمت في مقدار ما تبرعت به دون شك. وقلت محاولاً بلباقة تبرير الأمر: إننا -جميعاً- لم نعد صغاراً كما كنا، ويجب أن ندفع ضريبة التقدم بالعمر.

ولكن الغريب أن كلماتي لم تفلح إلاّ في زيادة غضبها. قالت إن الأمور تبدو غريبة جداً، وإنها مدهوشة لأنني لا أرى ذلك أيضاً. ثم ذهبت وأفضت بشكوكها -كما أظن- إلى الكولونيل بروثيرو، وهو من أولئك الذين يجدون متعة في إثارة قضية كبرى بمناسبةٍ ودون مناسبة. وقد أثار قضيةً بالفعل، والمؤسف أنه أثارها في يوم أربعاء. وأنا أعطي دروساً في مدرسة الكنيسة صباح أيام الأربعاء، وهو ما يسبب لي ضيقاً حاداً ويجعلني قلقاً إلى آخر النهار.

قالت زوجتي وكأنها تحاول تلخيص الموقف بتجرد: حسناً، لقد حصل على بعض المتعة دون شك. فلا أحد يطريه أو يثني عليه

أو يهديه مطرّزات أو جوارب هدايا لعيد الميلاد، كما أن زوجته وابنته كلتيهما ضاقتا به ذرعاً. أحسب أن من دواعي سعادته أن يشعر بالأهمية في مكانٍ ما.

قلت بشيء من الغضب: ولكن لا مبرر لأن يتصرف بشكل مسيء. لا أظنه أدرك تماماً مضامين ما طرحه من أقوال. إنه يريد مراجعة كل حسابات الكنيسة خشية وجود عبث بالأموال... نعم، تلك هي العبارة التي استعملها: **العبث بالأموال!** أتراه يشتبه في اختلاسي لأموال الكنيسة؟

قالت غريزلدا: لا أحد يشتبه بك لأي سبب يا عزيزي. إنك من الشفافية بحيث ترقى فوق أية شبهات، الأمر الذي يشكل حقاً فرصة رائعة للاختلاس. ليتك تختلس أموال الجمعية التبشيرية؛ فأنا أكره الجمعيات التبشيرية، كنت دوماً أكرهها.

كان من شأني أن أوبخها على مشاعرها هذه، ولكن ماري دخلت في تلك اللحظة حاملة فطيرة أرز لم تنضج بعد. وقد اعترضتُ باحتجاج بسيط، ولكن غريزلدا قالت إن اليابانيين يأكلون دوماً أرزاً غير ناضج ولذلك فإن لهم عقولاً مدهشة. ثم أضافت قائلة: أحسب لو أنك تناولت فطيرة أرز كهذه كل يوم وصولاً إلى يوم الأحد فإنك ستلقي أكثر المواعظ روعة.

قلت مرتعداً: "لا سمح الله!"، ثم أضفت: سيأتي بروثيرو مساء غد، وسنراجع الحسابات معاً. عليّ أن أنهي خطابي الذي سألقيه اليوم أمام جمعية رجال كنيسة إنكلترا. لقد استغرقت -وأنا أبحث في أحد المراجع- في قراءة مقالة «الواقع» التي كتبها كانون شيرلي بحيث لم

أمضِ في مقالي كما ينبغي. ماذا لديك عصر اليوم يا غريزلدا؟

- لدي واجبي... الشاي والغيبة في الساعة الرابعة والنصف!

- من سيأتيك؟

عددت غريزلدا ضيفاتها على أصابعها قائلة: السيدة برايس ريدلي، والآنسة وذربي، والآنسة هارتنيل، وتلك السيدة الفظيعة: الآنسة ماربل.

- تعجبني الآنسة ماربل، إن لديها -على الأقل- روح دعابة.

- إنها أسوأ امرأة في القرية. وهي تعرف دوماً كل كبيرة وصغيرة تحدث، وتستنتج من كل حادثة أسوأ ما يمكن استنتاجه.

لقد سبق لي أن قلت إن غريزلدا تصغرني كثيراً، والمرء -في مثل عمري- يعرف بأن الأسوأ عادةً ما يكون صحيحاً.

قال دينيس: لا تتوقعي حضوري جلسة الشاي يا غريزلدا.

قالت غريزلدا: لئيم!

- لقد دعتني أسرة بروثيرو فعلاً للعب التنس اليوم.

قالت غريزلدا ثانية: لئيم!

انسحب دينيس بتعقل ومضيت أنا وغريزلدا معاً إلى مكتبي. قالت غريزلدا وهي تجلس على طاولة كتابتي: لا أدري ماذا أقدم مع الشاي. أظن أن الدكتور ستون والآنسة كرام وربما السيدة ليسترينج سيحضرون. وبالمناسبة فقد زرت السيدة ليسترينج بالأمس، ولكنها

كانت خارج البيت. نعم، إنني واثقة أن السيدة ليسترينج ستأتي لجلسة الشاي. ألا ترى أن من الغامض جداً وصولها إلى هنا بهذا الشكل واستئجارها بيتاً لا تخرج منه إلاّ لماماً؟ إن ذلك يجعل المرء يفكر بالقصص البوليسية حيث تجد تساؤلات مثل: «من هي تلك المرأة الغامضة ذات الوجه الجميل الشاحب؟ ما هو ماضيها؟ لا أحد يعرف. إن فيها مسحة شرٍ خفية!». أظن أن الدكتور هيدوك يعرف شيئاً عنها.

قلت ببرود: أنت تقرئين الكثير من القصص البوليسية يا غريزلدا.

- وماذا عنك أنت؟ لقد بحثتُ أمس في كل مكان عن رواية «دماء على الدرج» عندما كنت أنت هنا تكتب موعظة. فماذا وجدتُ أخيراً عندما دخلت لأسألك عنها؟

احمرّ وجهي وقلت: لقد أخذتها عن الرفّ دون قصد. لفتت انتباهي جملة عابرة و...

- إنني أعرف تلك الجمل العابرة.

ثم أخذت تمثل دور من يقرأ في كتاب قائلة: "... وبعدها حدث شيء بالغ الغرابة، فقد نهضت غريزلدا وعبرت الغرفة وقبّلت زوجها الكهل بكل حب". ثم قامت بتطبيق ما قالته، فسألتها: وهل هذا بالغ الغرابة؟

- طبعاً بالغ الغرابة. ألا ترى يا لين أنه ربما كان بمقدوري أن أتزوج وزيراً أو باروناً أو صاحب شركة غنياً أو واحداً من ثلاثة ضباط أو رجلاً حسن الأخلاق فاشلاً، ولكنني اخترتك أنت بدل ذلك؟ ألم يذهلك ذلك كثيراً؟

- لقد أذهلني في حينه. لطالما تساءلت عن سبب اختيارك لي!

- لأن ذلك يجعلني أشعر أنني جدّ قوية. لقد رأى فيّ الآخرون مجرد امرأة رائعة، وكان يسعدهم أن أكون لهم. أما أنت فإنني أجسّد لك كل ما تكرهه وتشجبه، ومع ذلك لا تستطيع مقاومتي! وخيلائي -بدورها- لم تستطع مقاومة هذه المنزلة! إنني أبالغ في إزعاجك وإثارتك والتنكيد عليك طوال الوقت، ومع ذلك فإنك تحبني بجنون. أنت تحبني بجنون، أليس كذلك؟

- أنا أحبك طبعاً يا عزيزتي.

- بل إنك مجنون بي. أتذكر ذلك اليوم الذي بقيتُ فيه في المدينة وأرسلت لك برقية لم تستلمها أنت لأن أخت مأمورة البريد كانت تلد توأماً فنسيَتْ إيصالها إليك؟ أتذكر الحالة التي أصابتك، واتصالك بشرطة سكوتلانديارد والضجة الفظيعة التي أثرتها؟

لكل امرئ أشياء يكره أن يذكّره بها أحد. لقد تصرفت -حقاً- بحماقة فظيعة في تلك المناسبة. قلت لها: إذا سمحت يا عزيزتي، أريد أن أكمل خطابي أمام تلك الجمعية.

تنهدت غريزلدا بانزعاج بالغ ونفشت شعري حتى أوقفته، ثم عادت فمسّدته وقالت: أنت لا تستحقني... لا تستحقني حقاً!

قلت بهدوء: لقد قُضي الأمر!

ضحكت غريزلدا وأرسلت لي قبلة في الهواء وغادرت الغرفة.

* * *

الفصل الثاني

إن غريزلدا امرأة شديدة الإزعاج. كنت قد أحسست لدى قيامي عن طاولة الغداء بأنني في مزاج رائع يسمح لي بتحضير خطاب قوي فعلاً، أما الآن فإنني أشعر بالقلق والانزعاج. وفيما أنا أتهيأ للانكباب على الخطاب دخلت ليتيس بروثيرو تائهة إلى مكتبي.

إنني أستخدم كلمة «تائهة» عن قصد؛ فقد قرأتُ روايات تصف الشباب بأنهم يتدفقون حيوية وتتحدث عن نضارتهم وتألقهم.. إلاّ أنني -شخصياً- وجدت في كل من التقيتهم من الشباب شيئاً أقرب إلى الأشباح الحيوانية. وقد كانت ليتيس في هذا المساء أشبه بشبح. إنها فتاة جميلة، بالغة الطول، بيضاء البشرة، يصعب -تماماً- فهمها وتصنيفها. دخلت تائهة من خلال الباب الزجاجي، ونزعت بشيء من الشرود قبعتها الصفراء، وتمتمت بغموضٍ وبدهشةِ مَن أتى من عالم آخر: "آه! هذا أنت".

يمتد عبر الغابة طريق من منزل «أولد هول» ليفضي إلى بوابة حديقتنا، بحيث أن أغلب القادمين من هناك يدخلون من تلك البوابة ويأتون عبر الحديقة إلى الباب الزجاجي لمكتبي بدل أن يأخذوا

الطريق الطويل حول البيت وصولاً إلى الباب الأمامي. ولذلك لم يدهشني قدوم ليتيس بهذا الشكل، ولكنني استأت قليلاً من عبارتها؛ فإنك إن أتيت إلى بيت الكاهن لا بد أن تتوقع وجود كاهن فيه.

دخلت مكتبي وألقت بنفسها كومةً واحدةً على أحد الكراسي الضخمة، ثم عبثت بشعرها لاهيةً وهي تحدق إلى السقف وقالت: هل دينيس هنا؟

- لم أره منذ الغداء. فهمت أنه ذاهب ليلعب التنس عندكم.

- آه، أرجو ألاّ يذهب؛ إنه لن يجد أحداً هناك.

- لقد قال إنكم دعوتموه لذلك.

- أظنني دعوته فعلاً. ولكن كان ذلك يوم الجمعة، واليوم هو الثلاثاء.

- بل هو الأربعاء.

- آه، يا لفظاعة ذلك! هذا يعني أنني نسيت للمرة الثالثة الذهاب لتناول الغداء مع أناس أعرفهم.

ولكنها لم تبدُ منزعجة كثيراً لذلك. قالت: وهل غريزلدا هنا؟

- أظنك ستجدينها في المرسم في الحديقة... جالسة أمام لورنس ريدنغ.

- لقد حدثت لي مع أبي مشكلة كبرى بشأنه... إن أبي فظيع.

- وما سبب تلك المشكلة؟

- بسبب رسمه لي؛ فقد اكتشف أبي ذلك.

سكتت ليتيس قليلاً ثم مضت قائلة: إنه لمن السخف -حقاً- أن يمنع أبي شاباً من دخول المنزل. لقد ملأنا الدنيا صياحاً أنا ولورنس بسبب ذلك. سوف آتي وأدعه يرسمني هنا في مرسمكم.

- كلا يا عزيزتي، لا تفعلي ذلك إن كان أبوك لا يسمح به.

تنهدت ليتيس وقالت: آه، كلا. يا للسأم الذي يثيره الجميع! أشعر بالشتات تماماً. لو كان عندي -فقط- بعض المال لسافرت، ولكني لا أستطيع السفر دون مال. ولو أن والدي يتصرف بشرف ويموت لكنت أنا في أحسن حال.

- لا ينبغي لك أن تقولي أشياء كهذه يا ليتيس.

- إن كان لا يريدني أن أتمنى موته فإن عليه أن لا يكون مقتّراً بهذا الشكل. أنا لا أستغرب هروب أمي منه! أتعرف أنني كنت أظن لسنوات أنها قد ماتت. كيف كان ذلك الشاب الذي هربَتْ معه؟ أكان لطيفاً؟

- كان ذلك قبل أن يأتي والدك للعيش في هذا المكان.

- إنني لأتساءل ماذا حلّ بها. أمّا آنْ فلا أظن إلا أنها تكرهني، صحيح أنها منصفة معي، ولكنها تكرهني. إنها تتقدم بالعمر وتستاء من ذلك؛ هذا هو العمر الذي ينهار فيه المرء.

تساءلتُ في سري إن كانت ليتيس ستقضي عصر اليوم كله في مكتبي، وما لبثت أن سألَتْ: هل رأيت أسطواناتي؟

- لا.

- يا للإزعاج! أعلم أنني تركتها في مكان ما. كما أنني أضعت الكلب... وساعتي أيضاً مفقودة في مكان ما، إلا أنها لا تهمّ لأنها لن تضيع. آه! يا إلهي، إنني أشعر بنعاس شديد.. لا أدري لماذا، إذ لم أنهض حتى الحادية عشرة. ولكن الحياة مملة كثيراً، أليس كذلك؟ آه، ينبغي أن أمضي؛ فسوف أذهب الساعة الثالثة لرؤية القبر الأثري الذي اكتشفه الدكتور ستون.

نظرتُ إلى ساعتي وقلت: إنها الآن الثالثة وخمسٌ وثلاثون دقيقة.

- آه، حقاً؟ يا للفظاعة! لا أدري إن كانوا قد انتظروني أم أنهم قد ذهبوا من غيري. الأفضل أن أذهب لأرى ما يمكنني فعله.

نهضَتْ وخرجت تائهة مرة أخرى وهي تلتفت إليّ قائلة: لا تنسَ إبلاغ دينيس.

قلت لها: "نعم" بشكل تلقائي، ولم أدرك (إلاّ متأخراً) أنني لا أعرف ما الذي يفترض بي أن أبلغه لدينيس. ولكنني فكرت بأن ذلك لن يكون في أغلب الأحوال أمراً ذا أهمية. عدت لأتأمل في موضوع الدكتور ستون، عالم الآثار الشهير الذي جاء مؤخراً ليقيم في فندق «بلو بور» ويشرف على أعمال التنقيب عن ذلك القبر الذي اكتُشف في أرض الكولونيل بروثيرو. وقد حدثت نزاعات عديدة بينه وبين الكولونيل. وسرتني دعوته لليتيس لرؤية عمليات التنقيب.

لقد خطر ببالي أن في ليتيس بروثيرو شيئاً من المكر اللعوب. وتساءلت كيف ستستطيع الفتاة أن تنسجم مع سكرتيرة عالم الآثار

الآنسة كرام. والآنسة كرام شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، بادية الصحة، كثيرة الحركة، ذات حيوية دافقة وفم يبدو للناظر دوماً وكأنه قد امتلأ بأكثر من حصته الطبيعية من الأسنان. وتنقسم الآراء في القرية بين قائل إنها ليست كما ينبغي لها أن تكون وبين قائل إنها شابة ذات عفة صارمة تخطط لتصبح في أقرب فرصة زوجة للسيد ستون، وهي تشكل نقيضاً لليتيس في كل شيء.

بوسعي أن أتخيل أن الحياة في منزل الكولونيل بروثيرو المسمى «أولد هول» ربما لا تكون سعيدة؛ فلقد تزوج الكولونيل للمرة الثانية قبل نحو خمس سنوات، وكانت زوجته الجديدة، آنْ، ذات حسن بالغ لا يكاد يكون عادياً. وقد كنت أخمّن دوماً أن العلاقات بينها وبين ابنة زوجها لم تكن على ما يرام.

جاء من يقطع عليّ عملي مرة أخرى. كان هذه المرة مساعدي هاوز، وقد أراد أن يعرف تفصيلات لقائي بالكولونيل بروثيرو. أخبرته بأمرٍ مختلف تماماً عن الغرض الحقيقي من زيارة الكولونيل، وفي نفس الوقت مرّرتُ ملاحظة استياء مني أنا، وقلت له صراحةً إن عليه أن يلتزم بتعليماتي. وقد تقبّل هاوز ملاحظاتي بصدر رحب عموماً.

شعرت بشيء من تأنيب الضمير بعد مغادرته لعدم محبتي إياه كما ينبغي. إن مشاعر المحبة والكراهية غير العقلانية تلك، التي يحس بها المرء تجاه الناس، ليست من الدين في شيءٍ بالتأكيد.

أدركت -وأنا أتنهد- أن عقارب الساعة على مكتبي تشير إلى الخامسة إلاّ ربعاً، وهو ما يعني أنها في الحقيقة الرابعة والنصف، وهكذا انطلقت إلى غرفة الجلوس.

اجتمعت هناك أربع نساء من رعايا أبرشيتي وأمامهن فناجين الشاي. جلست غريزلدا خلف طاولة الشاي محاولة أن تبدو طبيعية ضمن بيئتها، ولكنها لم تفلح إلاّ في الظهور أكثر نشازاً من المعتاد.

صافحتُ الحضور جميعاً وجلست بين الآنسة ماربل والآنسة وذربي. والآنسة ماربل عجوز بيضاء الشعر ذات سمت لطيف محبب، أما الآنسة وذربي فهي مزيج من المرارة والفجاجة في التعبير والسلوك. وإذا ما قارنّا بين هاتين المرأتين فلا شك أن الآنسة ماربل هي الأخطر بما لا يقاس.

قالت غريزلدا بصوت أعذب من العسل: كنا نتحدث -لتوّنا- عن الدكتور ستون والآنسة كرام.

خطرت في ذهني عبارة مقذعة ابتكرها دينيس: «الآنسة كرام لا تبالي بشيء أبداً». وتملكتني رغبة شديدة في الجهر بتلك العبارة ومراقبة تأثيرها، ولكني أحجمت عن ذلك لحسن الحظ.

قالت الآنسة وذربي باقتضاب: ما من فتاة مؤدبة تفعل ذلك.

سألتها: تفعل ماذا؟

فأجابت بنبرة هولٍ مستهجنة: تعمل سكرتيرةً لرجل أعزب.

قالت الآنسة ماربل: آه! يا عزيزتي، إنني أرى أن المتزوجين أسوأ حالاً. تذكري المسكينة مولي كارتر.

قالت الآنسة وذربي: المتزوجون الذين يقيمون بعيداً عن زوجاتهم ذوو سمعة سيئة بالطبع.

أجابتها زميلتها: بل حتى بعض المقيمين مع زوجاتهم. إنني أذكر...

قاطعتُ مثل هذه الذكريات التي لا تحمد عقباها وقلت: ولكن يمكن للفتيات في هذه الأيام تولي أي عمل شأنهن في ذلك شأن الرجال.

قالت السيدة برايس ريدلي بصوت قاسٍ: ويمكنهنّ أيضاً القدوم إلى الريف؟ بل والإقامة في نفس الفندق؟

تمتمت الآنسة وذربي قائلة للآنسة ماربل: وغرف النوم في الطابق نفسه أيضاً.

أما الآنسة هارتنيل -التي كانت امرأة مرحة سفعت بشرتها الأنواء الجوية، وكان فقراء القرية يخشونها كثيراً- فقد قالت بصوت جهوري عالٍ: ذلك المسكين، سيتم الإمساك به قبل أن يعرف موطئ قدميه. إنه بريء كطفل لم يولد بعد، هذا واضح جداً.

غريبة هذه العبارات التي نستخدمها. ما كانت واحدة من الحاضرات لتحلم بالإشارة إلى طفل بهذا الأسلوب ما لم يكن طفلاً حقيقياً يرقد في مهده أمام أعين الجميع.

مضت الآنسة هارتنيل قائلة بأسلوبها الفظّ المعتاد: أمر مقرف، لا بد أن الرجل يكبرها بخمس وعشرين سنة على الأقل.

تعالت في وقت واحد ثلاثة أصوات نسائية تبدي ملاحظات لا رابط بينها حول الرحلة التي قامت بها فرقة الصبيان، وذلك الحادث المؤسف أثناء اجتماع الأمهات، والجو البارد.

ورمشت الآنسة ماربل بعينيها لغريزلدا، فقالت زوجتي: ألا تحسبنَ أن هدف الآنسة كرام قد لا يعدو الرغبة في الحصول على وظيفة ممتعة؟ وأنها تعتبر السيد ستون مجرد ربّ عمل؟

ساد القليل من الصمت. وبدا واضحاً أن أياً من النساء الأربع لا تتفق معها. ثم قطعت الآنسة ماربل الصمت بأن ربتت على ذراع غريزلدا وقالت: يا عزيزتي، إنك شابة، وعقول الشباب بريئة جداً.

قالت غريزلدا بسخط إنها ليست ذات عقل بريء أبداً، فتابعت الآنسة ماربل متجاوزة اعتراضها: طبيعي أن تُحسني الظن بالناس.

- أتظنينها حقاً تريد الزواج بذلك الرجل الأصلع الممل؟

أجابت الآنسة ماربل: لقد فهمتُ أنه غني تماماً، وأظنه ذا مزاج عنيف. لقد خاض مشاجرة عنيفة مع الكولونيل بروثيرو قبل أيام.

مال النسوة بأجسامهن إلى الأمام باهتمام، فيما أكملت الآنسة ماربل: لقد اتهمه الكولونيل بروثيرو بأنه جاهل.

قالت السيدة برايس ريدلي: كم هو طبيعي من الكولونيل أن يتصرف هكذا، وكم هو سخيف أيضاً.

قالت الآنسة ماربل: إنه طبيعي جداً منه، ولكني غير واثقة إن كان ذلك سخيفاً. أتذكرين تلك المرأة التي جاءتنا وقالت إنها مندوبة إحدى مؤسسات الضمان الاجتماعي، وبعد أن أخذت التبرعات لم نعد نسمع عنها شيئاً، وثَبَتَ أن لا علاقة لها أبداً بأية مؤسسات؟

إن المرء يميل كثيراً لوضع ثقته بالناس وأخذهم بما يقولونه عن أنفسهم.

ما كنت لأحلم بوصف الآنسة ماربل بأنها امرأة تثق بالناس.

سألت الآنسة وذربي: لقد دارت بعض الأقاويل عن ذلك الفنان الشاب، السيد ريدنغ، أليس كذلك؟

أومأت الآنسة ماربل بالإيجاب وقالت: لقد طرده الكولونيل بروثيرو خارج البيت؛ يبدو أنه كان يرسم ليتيس في ثياب السباحة.

قالت السيدة برايس ريدلي: لقد كنت أظن دوماً أن بينهما شيئاً؛ فذلك الشاب يتسكع دوماً هناك. من المؤسف ألاّ تكون لتلك الفتاة أم ترعاها... إن زوجة الأب لا تشكل بديلاً أبداً.

قالت الآنسة هارتنيل: أظن أن زوجة السيد بروثيرو تبذل في ذلك كل ما في وسعها.

علقت السيدة برايس ريدلي باستهجان: الفتيات وقحات جداً.

تدخلت الآنسة الأرقّ قلباً وذربي قائلة: هذه قصة غرامية مثيرة، أليس كذلك؟ إنه شاب وسيم جداً.

قالت الآنسة هارتنيل: ولكنه منحلّ. وهذا طبيعي، فهو فنان!

قالت السيدة برايس ريدلي: ويرسمها في ثياب السباحة... ليس ذلك بالتصرف اللائق.

قالت غريزلدا: إنه يرسمني أنا أيضاً.

قالت الآنسة ماربل: "ولكن ليس في ثياب السباحة يا عزيزتي".

ثم سألتني: هل أخبرتك العزيزة ليتيس بالمشكلة؟

- أخبرتني أنا؟

- نعم، لقد رأيتها تعبر الحديقة إلى الباب الزجاجي لمكتبك.

إن الآنسة ماربل ترى دوماً كل شيء. ويشكل شغفها بالحدائق غطاء مناسباً تماماً لذلك، كما أن هوايتها في مراقبة الطيور بمنظار عالي الكفاءة تعطي دوماً فوائدها الجانبية.

قلت معترفاً: نعم، لقد أشارت إلى الموضوع.

صاحت الآنسة وذربي بانفعال: آه! لقد نسيت تماماً. إن لديّ أخباراً، فلقد رأيت الدكتور هيدوك خارجاً من بيت السيدة ليسترينج!

تبادل الجميع النظرات، وقالت السيدة ريدلي: ربما كانت مريضة.

علّقت الآنسة هارتنيل قائلة: إن كان الأمر كذلك فلا شك أن مرضها جاء فجأة؛ فقد رأيتها تتمشى في حديقتها في الثالثة من بعد ظهر اليوم، وقد بدت بصحة ممتازة.

قالت السيدة برايس ريدلي: لا بد أنها من المعارف القدامى للدكتور هيدوك. لقد أبدى تكتماً تجاه الموضوع.

أيدتها الآنسة وذربي قائلة: غريب أنه لم يأتِ أبداً على ذكر ذلك.

قالت غريزلدا بصوت منخفض غامض: في الحقيقة...

ثم توقفت، فمال الجميع إلى الأمام باهتمام وترقب، ومضت غريزلدا بأسلوب مؤثر تقول: صدف وعرفتُ أن زوجها كان يعمل في الحملات التبشيرية. إنها قصة مخيفة.. لقد تمّ أكله. أعني حرفياً أنهم أكلوه، وأُجبرت هي على الزواج من زعيم القبيلة لتصبح زوجته الأثيرة. وقد كان الدكتور هيدوك في بعثة هناك فأنقذها.

غمر الانفعال الجميع للحظة، ثم قالت الآنسة ماربل مؤنبةً وهي تبتسم: "يا لك من شقية!"، ثم ربتت على ذراع غريزلدا تأنيباً وقالت: هذا تصرف يفتقر تماماً للحكمة يا عزيزتي؛ فإن اخترعتِ مثل هذه الروايات مال الناس -على الأرجح- لتصديقها، وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى تعقيدات.

بدا وكأن المجتمِعات قد حطّ على رؤوسهن الطير، ثم ما لبثت اثنتان منهما أن نهضتا مودعتين.

قالت الآنسة وذربي: أتساءل إن كان ثمة شيء بين الشاب لورنس ريدنغ وليتيس بروثيرو، فظاهر الأمر هكذا بالتأكيد. ما رأيك يا آنسة ماربل؟

- ما كنت أنا لأقول ذلك شخصياً. ليس ليتيس، بل أظنها امرأة أخرى تماماً.

- ولكن لا بد أن الكولونيل بروثيرو ظن أنهما...

قاطعتها الآنسة ماربل قائلة: لطالما رأيتُ في الكولونيل رجلاً مغفلاً. إنه من ذلك النوع الذي يُدخل فكرة خاطئة في رأسه ثم يصر عليها. أتذكرين جو باكنيل الذي كان يدير فندق بلو بور؟ أثار مشكلة

كبرى حول وجود علاقة بين ابنته والشاب بيلي، ثم تبين لاحقاً أن العلاقة كانت دوماً مع زوجته اللعوب تلك.

كانت تركز نظراتها على غريزلدا وهي تتكلم، وقد أحسستُ فجأة بموجة غضب عارمة. قلت لها: ألا ترين -يا آنسة ماربل- أننا نرخي العنان كثيراً لألسنتنا. إن ترك الألسنة تلهج بحماقةٍ بالإشاعات السيئة يمكن أن يفضي إلى أضرار لا يمكن تقديرها.

قالت الآنسة ماربل: يا عزيزي الكاهن، إنك لشديد الورع والمثالية. إنني لأكاد أقول إن من شأن امرئ راقب النفس البشرية طويلاً كما راقبتُها أن لا يتوقع منها الكثير. إنني أرى أن النميمة والأقاويل اللاهية أمر خاطئ جداً وكريه، ولكنه ينطوي على الحقيقة في أغلب الأحيان، أليس كذلك؟

أصابت تلك الملاحظة الوداعية مقتلاً.

* * *

الفصل الثالث

قالت غريزلدا وهي تغلق الباب: يا لها من عجوز ثرثارة قذرة!

وأظهرت لضيفاتها المبتعدات وجهاً بشوشاً ثم التفتت إليّ وضحكت قائلة: هل تشك حقاً يا لين بأني أقيم علاقة مع لورنس ريدنغ؟

- يا عزيزتي! كلا، بالطبع.

- ولكنك حسبت أن الآنسة ماربل تلمّح لذلك. وقد بادرتَ إلى الدفاع عني بشكل رائع. مثل... مثل نمر غاضب.

انتابني شيء من التململ، إذ ليس لكاهن مثلي أن يضع نفسه في موقف يوصف فيه بأنه نمر غاضب. ثم قلت لها: لقد شعرت أنه لا ينبغي للمناسبة أن تمر دون إبداء ملاحظة احتجاج، ولكنني أتمنى -يا غريزلدا- أن تكوني أكثر حرصاً فيما تقولينه.

- أتعني بذلك قصة القبيلة المتوحشة أم تلميحي إلى أن لورنس كان يرسمني كما رسم تلك الفتاة! ليتهم يعلمون أنه رسمني وأنا أرتدي عباءة وافرة ثخينة، ذات ياقة عالية من الفرو، وهي في غاية

الاحتشام حقاً. بل إن لورنس لم يحاول حتى التودد إليّ.

- طبعاً، إذ يعرف أنك امرأة متزوجة.

- لا تتظاهر بأنك قادم من المريخ؛ أنت تعلم جيداً أن شابة حسناء لها زوج كهل تشكّل فرصة ثمينة لأي شاب. لا بد من وجود سبب آخر... الأمر ليس في افتقاري للجمال، فعندي الكثير منه.

- لا أظنك تريدينه أن يتودد إليك؟

- كـ... كلا.

قالتها غريزلدا بتردد رأيته أكثر من المناسب، وعلقتُ قائلاً: إن كان يحبّ ليتيس بروثيرو...

- ولكن لا يبدو أن الآنسة ماربل ترى ذلك.

- قد تكون الآنسة ماربل مخطئة.

- إنها لا تخطئ أبداً. ذلك النوع من العجائز الثرثارات دائماً على صواب.

سكتت قليلاً ثم قالت وهي تلقي إليّ نظرة جانبية سريعة: أنت تصدقني، أليس كذلك؟ أعني بأنه ما من شيء بيني وبين لورنس.

قلت مدهوشاً: يا عزيزتي غريزلدا! بالطبع أصدقك.

تقدمت زوجتي وقبّلتني ثم قالت: ليتك لا تكون سهل الانخداع إلى هذه الدرجة يا لين. إنك تصدقني في كل ما أقوله.

- أتمنى ذلك. ولكني أتوسل إليك يا عزيزتي أن تمسكي

لسانك وتحرصي فيما تقولين. إن هؤلاء النسوة لا يعرفن للمزاح طريقاً، وهنّ يأخذن كل أمر على محمل الجد.

- إن ما يحتجنه هو القليل من الانحلال في حياتهن، وعندها لن تراهن منشغلات بالبحث عنه في حياة الآخرين.

وعند هذه النقطة غادرت غريزلدا الغرفة، فألقيت نظرة على ساعتي وهرعت للقيام ببعض الزيارات التي كان عليّ القيام بها في وقت سابق من هذا النهار.

كان الحضور في مساء الأربعاء قليلاً كالمعتاد، ولكنني -حين خرجت من الكنيسة بعد نزع عباءتي في الغرفة المخصصة لذلك- وجدت المكان خالياً إلا من امرأة وقفت تحدق إلى إحدى نوافذ الكنيسة. وللكنيسة بعض النوافذ ذات الزجاج القديم الملون، بل إن الكنيسة نفسها تشكل صرحاً يستحق النظر. التفتت المرأة حين سمعتْ صوت خطواتي فرأيت أنها كانت السيدة ليسترينج.

ترددنا كلانا للحظة ثم قلت: أرجو أن تكون كنيستنا الصغيرة قد أعجبتك.

- كنت أتأمل بإعجاب واقية النافذة.

كان صوتها عذباً، منخفضاً رغم وضوحه ودقة مخارج ألفاظه. وأضافت قائلة: إنني آسفة جداً إذ لم تجدني زوجتك بالأمس.

تحدثنا بضع دقائق أخرى عن الكنيسة، وبدا واضحاً أنها امرأة ذات ثقافة عالية. ثم تركنا المبنى معاً ومشينا في الطريق، إذ أن أحد الطرق المفضية إلى بيتي كان يمر من أمام بيتها. وعندما وصلنا بوابة

بيتها قالت بمرح: لماذا لا تتفضل بالدخول لتعطيني رأيك بما فعلته؟

وقد قبلتُ الدعوة. كان البيت الذي تسكنه، والمسمى «ليتل غيتز»، يعود فيما مضى لضابط أنغلو-هندي، ولم أملك إلاّ الشعور بالارتياح لغياب الطاولات النحاسية والأصنام البورمية التي كانت هناك سابقاً. لقد فُرش البيت الآن بشكل بسيط ولكن بأسلوب حساس مميز بحيث يجد فيه المرء شعوراً بالراحة والانسجام. ومع ذلك فقد تساءلت أكثر فأكثر عن السبب الذي دفع امرأة كالسيدة ليسترينج للمجيء إلى قرية «سينت ميري ميد». كانت تبدو بكل وضوح امرأة خبيرة عركتها التجارب، بحيث بدا دفنُها لنفسها في قريةٍ ريفيةٍ أمراً يدل على ذوق غريب.

وفي الضوء الوافر لغرفة الجلوس واتتني فرصة تأملها لأول مرة: كانت امرأة طويلة جداً، وكان شعرها ذهبياً مع مسحة من الاحمرار فيه. أما حاجباها ورموشها فقد كانت سوداء، ولم أستطع أن أجزم إن كان ذلك صَنعة أم طبيعة. ولئن كان ذلك صنعة وتبرجاً فقد رأيت أنه تمّ بشكل متقن. كان في وجهها شيء غامض عندما يكون هادئاً، وكانت عيناها أغرب عينين رأيتهما... يكاد لونهما يكون ذهبياً في الظل. أما ثيابها فكانت غاية في الكمال، وأسلوبها يتميز ببساطة امرأة من عائلة رفيعة، ومع ذلك كان فيها شيء ناشز محير، يشعر المرء أنها لغز. وقد خطرت لذهني الكلمة التي استخدمتها غريزلدا: شريرة! كان ذلك تعبيراً سخيفاً بالطبع، ولكن... أتراه سخيفاً حقاً؟ وقفزت فكرة إلى ذهني مباشرة: "ليس لهذه المرأة وازع يثنيها عن شيء مما تريد".

كان كلامنا في أكثر الموضوعات عمومية؛ اللوحات والكتب

والأبنية القديمة. ومع ذلك فقد أحسست بانطباع قوي يفيد بوجود شيء آخر... شيء مختلف تماماً تريد السيدة ليسترينج أن تقوله لي.

لاحظتها تنظر إليّ مرة أو مرتين، تنظر بتردد غريب كما لو أنها لم تكن قادرة على أن تحزم أمرها. ولاحظتُ أنها أبقت الحديث مقتصراً -بحزم- على الأمور العامة، ولم تشر إلى زوج أو قريب. ومع ذلك كانت في عينيها تلك المناشدة الغريبة الملحة التي توشك أن تقول: "أأُخبرك؟ أريد إخبارك. ألا يمكنك مساعدتي؟". لكن تلك المناشدة تلاشت أخيراً... أو أنها لم تكن إلاّ خيالاً مني. شعرتُ أنني قد استُبعدت وأن اللقاء قد انتهى، فنهضت واستأذنت. ولدى مغادرة الغرفة التفتُّ فرأيتها تحدق ورائي وعلى وجهها أمارات الحيرة والشك.

وبقرار مفاجئ عدت وسألتها إن كان بوسعي المساعدة في أي أمر. قالت بارتياب: هذا لطف بالغ منك.

وقفنا معاً صامتين، ثم قالت: ليتني أعرف؟ أمر صعب. لا، لا أظن أن بوسع أحد مساعدتي، ولكن شكراً على عرضك للمساعدة.

بدا ذلك القول نهائياً، وهكذا خرجت. ولكنني كنت أتساءل وأتعجب؛ إذ لم نعتد الألغاز في سينت ميري ميد. وكنت مستغرقاً في ذلك إلى الحد الذي ألهاني -وأنا خارج من البوابة- عن رؤية الآنسة هارتنيل التي اصطدمت بي... والآنسة هارتنيل ماهرة جداً في الاصطدام العنيف غير المتكافئ!

هتفَتْ بدعابة ثقيلة: رأيتك! وقد أثارني ذلك كثيراً. يمكنك الآن أن تخبرنا بالأمر كله.

- بماذا أخبركم؟

- بأمر السيدة الغامضة! أهي أرملة أم أن لها زوجاً في مكانٍ ما؟

- لا يمكنني الجزم حقاً؛ فهي لم تخبرني.

- ما أغرب ذلك! يخيل لي أنها لا بد أن تذكر شيئاً عرضاً. يكاد يبدو أن لها أسباباً لعدم الحديث، أليس كذلك؟

- أنا -في الواقع- لا أرى هذا.

- آه، ولكنك -كما قالت الآنسة ماربل- شديد المثالية يا عزيزي الكاهن. أخبرني، أكانت تعرف الدكتور هيدوك منذ أمد بعيد؟

- لم تأتِ على ذكره، ولذلك لا أدري.

- عجيب! فيمَ تحدثتما إذن؟

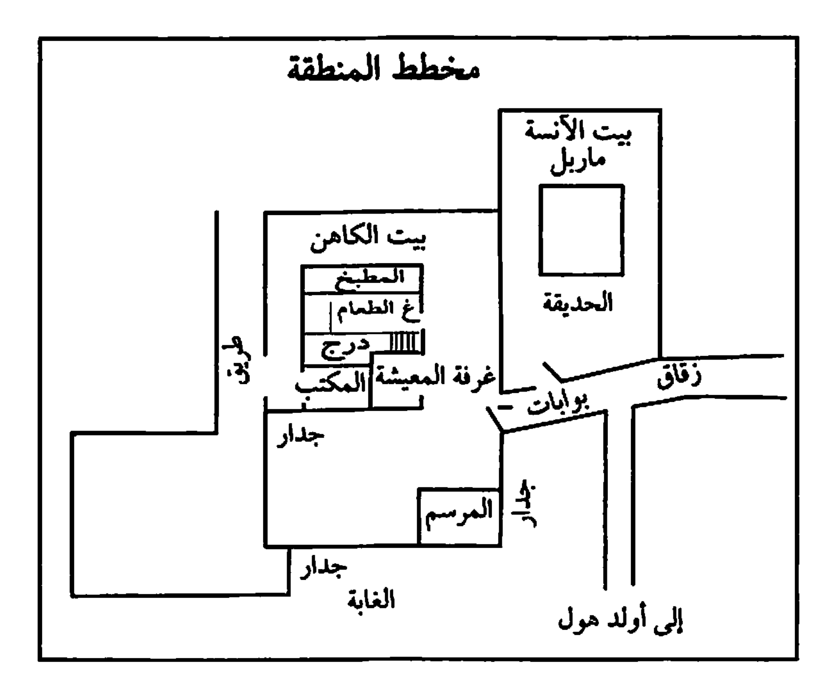
قلت صادقاً: تحدثنا عن اللوحات والموسيقى والكتب.

بدت الآنسة هارتنيل مرتابة غير مصدقة، وهي التي لا تعدو موضوعات أحاديثها الشؤون الشخصية البحتة. انتهزتُ فرصة ترددها لحظات وهي تفكر في كيفية المضي بتحقيقها فتمنيت لها مساء سعيداً وابتعدت سريعاً.

زرت بيتاً آخر أكثر قرباً من مركز القرية ثم عدت إلى بيتي عن طريق بوابة الحديقة مروراً -والحالة هذه- بالنقطة الخطيرة بمحاذاة حديقة الآنسة ماربل. ولكنني -على أية حال- لم أظن أن يكون خبر

زيارتي للسيدة ليسترينج قد وصل إلى مسامعها بعد، ولذلك شعرت بقدر لا بأس به من الأمان.

وها أنا ذا أرسم هنا لمنطقتنا رسماً توضيحياً عاماً سيكون مفيداً في توضيح ما يأتي من الأحداث، مورداً من التفصيلات ما كان ضرورياً فقط.



لم تراودني فكرة وجود أحد في المرسم؛ فلم تصدر أية أصوات من داخله لتنبهني لذلك، وأحسب أن خطواتي أنا لم تكن تصدر صوتاً على العشب. فتحت الباب وتوقفت مشدوهاً عند العتبة؛ فقد كان في المرسم شخصان، وكانت ذراعا الرجل تطوقان المرأة وهو يقبّلها بكل حب.

كان الشخصان هما الرسام لورنس ريدنغ وزوجة الكولونيل بروثيرو.

عدت فخرجت بسرعة ورجعت أدراجي إلى مكتبي. وهناك جلست على كرسي وأخرجت غليوني ورحت أقلّب التفكير في الأمور. لقد جاء هذا الاكتشاف صدمة كبرى بالنسبة لي، خاصة بعد حديثي عصر ذلك اليوم مع ليتيس حيث شعرت أنني شبه واثق بأن شيئاً من التفاهم أخذ ينمو بينها وبين الشاب. وفوق ذلك كنت مقتنعاً بأنها تظن ذلك أيضاً هي نفسها، وشعرت بأنني واثق من أنها لا تعرف شيئاً عن مشاعر الرسام تجاه زوجة أبيها.

يا لها من شبكة قذرة! إنني أعترف -راغماً- بالفضل للآنسة ماربل إذ لم تنخدع، بل خمّنتْ بوضوح حقيقة مجرى الرياح بقدرٍ لا بأس به من الدقة. لقد أسأتُ تماماً تفسير نظرتها المليئة بالمعاني إلى غريزلدا. إنني لم أحلم أبداً بالتفكير بالسيدة بروثيرو في هذه القضية. لقد ساد -دوماً- شعور بأن السيدة بروثيرو فوق الشبهات، بأنها امرأة هادئة مستقلة لا تميل للاختلاط ولا يكاد المرء يرى لديها أي عمق في المشاعر.

كنت قد وصلت إلى هذه النقطة في تأملاتي عندما أيقظتني طرقات على الباب الزجاجي لمكتبي، فنهضت واتجهت إلى الباب. كانت السيدة بروثيرو تقف في الخارج. فتحت الباب فدخلَتْ دون انتظار دعوة مني، وعبرت الغرفة لاهثة ورمت نفسها على الأريكة.

تملكني شعور بأنني لم أرها حقاً من قبل. فقد تبخرت المرأة الهادئة المنعزلة التي كنت أعرفها، وحلّت محلها مخلوقة يائسة

متلاحقة الأنفاس، وأدركت لأول مرة أن آن بروثيرو كانت بالغة الجمال. كانت امرأة بنية الشعر شاحبة الوجه ذات عينين رماديتين غائرتين، وكان وجهها -في تلك اللحظة- محمراً وصدرها يعلو ويهبط. بدا الأمر وكأن تمثالاً قد دبت فيه الحياة فجأة، وطرفت عيناي أمام هذا التحول.

قالت: رأيت من الأفضل أن آتي. لقد... لقد رأيتنا الآن؟

أطرقت برأسي فقالت بكل هدوء: إننا متحابّان.

لم تستطع -حتى في حمأة كربتها وانفعالها الواضح- أن تمنع رسم ابتسامة صغيرة على شفتيها. وبقيتُ ساكتاً فأضافت: أظن أن ذلك يبدو لك خطأ جسيماً.

- وهل تتوقعين مني قول أي شيء آخر يا سيدة بروثيرو؟

- لا، لا؛ لا أتوقع ذلك.

مضيت قائلاً وأنا أحاول جعل صوتي كألطف ما يمكن له أن يكون: أنت امرأة متزوجة...

قاطعتني قائلة: آه! أعرف، أعرف. أتظن أنني لم أفكر بذلك مراراً وتكراراً؟ إنني لست امرأة سيئة حقاً... لست كذلك. والأمور ليست... ليست كما قد يخطر ببالك.

قلت متجهماً: أنا سعيد لذلك.

سألت بشيء من الخنوع: هل ستخبر زوجي؟

قلت ببرود: يبدو أن الفكرة العامة مفادها أن رجل الدين غير قادر على التصرف كرجل مهذب شهم، وهي فكرة غير صحيحة.

رمتني بنظرة امتنان وقالت: أنا سعيدة جداً. آه، سعيدة جداً جداً. إنني لا أستطيع الاستمرار، لا أستطيع -ببساطة- الاستمرار... ولا أدري ماذا أفعل.

ارتفع صوتها وشابته مسحة من الهستيرية وهي تقول: أنت لا تعرف كيف هي حياتي. لقد كنت بائسة مع لوكيوس منذ البداية. ما من امرأة يمكن أن تسعد معه... ليته كان ميتاً! إنها أمنية فظيعة، ولكنني أتمناها فعلاً! أنا يائسة. صدقني، أنا يائسة.

جفلتْ ونظرتْ من ورائي إلى الباب الزجاجي وقالت: ما هذا؟ أظنني سمعت أحداً؟ ربما كان لورنس.

ذهبتُ إلى الباب الزجاجي الذي لم أكن قد أغلقته كما ظننت. خرجتُ منه ونظرت إلى الحديقة ولكنني لم أرَ أحداً. ومع ذلك فقد كدت أكون مقتنعاً أنا الآخر بأنني سمعت أحداً، أو ربما كانت ثقتها هي التي أقنعتني بذلك.

عندما دخلت الغرفة من جديد كانت تميل بجسمها إلى الأمام وتُطرق رأسها. بدت صورة مجسدة لليأس. قالت ثانية: لا أدري ماذا أفعل... لا أدري ماذا أفعل.

جئت وجلست بقربها وقلت الأشياء التي رأيت من واجبي قولها، محاولاً أن أكون مقنعاً في كلامي، وأنا واعٍ طوال الوقت، وبلا ارتياح، أنني عبّرت في نفس ذلك الصباح عن شعوري بأن

عالماً يخلو من الكولونيل بروثيرو سيكون عالماً أفضل بكثير. وقد توسلتُ إليها -قبل أي شيء آخر- أن لا تقدم على تصرف متهور؛ فمغادرة بيتها وزوجها كانت خطوة خطيرة تماماً، ولكن لا أحسب أنني أقنعتها. لقد عشت من الزمن ما يكفي لأعرف أن مجادلة امرئ ولهان مسألة عقيمة، ولكنني أظن أن كلماتي قد جلبت لها بعض الراحة والعزاء؛ فقد شكرتني عندما نهضت للمغادرة ووعدتْ أن تفكر ملياً بما قلتُه.

ومع ذلك شعرتُ بعد مغادرتها بالكثير من عدم الارتياح. شعرت أنني أسأت حتى الآن الحكم على شخصية آن بروثيرو. لقد رأيت فيها للتوّ امرأة شديدة اليأس، امرأة من شأنها أن لا تصغي لأي وازع إذا ما أُثيرت عواطفها. وقد كانت تحب لورنس ريدنغ بجنون وحدةٍ ويأس، فيما هو يصغرها بالعديد من السنين. وهو الأمر الذي أحسست أنني غير مرتاح إليه بتاتاً.



الفصل الرابع

كنت قد نسيت تماماً أننا دعونا لورنس ريدنغ إلى العشاء في تلك الليلة، وقد فوجئت عندما اندفعت غريزلدا إلى مكتبي لتوبخني مشيرة إلى أن موعد العشاء لم يتبقّ عليه سوى دقيقتين فقط.

صاحت غريزلدا خلفي وأنا على الدرج: آمل أن تكون الأمور جاهزة على ما يرام. لقد فكرتُ ملياً فيما قلتَه على الغداء، وقد فكرت في بعض المأكولات الجيدة حقاً.

يمكنني القول -بإشارة عارضة- إن عشاءنا قد أكد صحة ما قالته غريزلدا من أن تدخّلها في شؤون الطبخ يجعل الأمور أسوأ بكثير؛ فقد كان لديها طموح في تنويع أصناف المأكولات، ويبدو أن ماري قد وجدت لذة شريرة في مراقبة زوجتي وهي تتبع أفضل الطرق في إفساد الطعام، بحرقه تارة وبرفعه عن النار نيئاً تارة أخرى. أما بعض القواقع التي أرسلت زوجتي في طلبها -وهي الطعام الذي لا يمكن أن يفسده أي قدر من نقص الخبرة- فإننا لم نستطع تقديمها مع الأسف لأننا لم نجد في البيت ما نفتحها به... وهو ما لم نكتشفه إلاّ عندما أزِف وقت تقديمها.

كنت قد شككت في إمكانية مجيء لورنس ريدنغ، إذ كان بوسعه -بكل سهولة- أن يرسل اعتذاراً. لكنه وصل في موعده بدقة، ومضينا نحن الأربعة لتناول العشاء.

إن للورنس ريدنغ شخصية جذابة لا تُنكر؛ فهو في نحو الثلاثين من عمره، أسود الشعر، ولكن في عينيه زرقة لامعة مدهشة. وهو من أولئك الشباب الذين يحسنون القيام بكل شيء. فهو ماهر في الألعاب، ويتقن الصيد، وهو ممثل هاوٍ جيد، وراوي قصص مبدع، ويمكنه إنجاح أية حفلة بمواهبه المتعددة. أظن أن في عروقه دماء إيرلندية. ورغم أنه ليس أبداً من ذلك النمط التقليدي الذي غالباً ما يراه المرء في الرسامين، إلاّ أنني أظنه رساماً ماهراً وفق الأساليب الحديثة، مع أنني -شخصياً- لا أفقه في الرسم الكثير.

كان من الطبيعي في هذه الأمسية بالذات أن يبدو لورنس شارد الذهن، ولكنه تصرف -عموماً- بشكل جيد تماماً. ولا أظن أن غريزلدا أو دينيس قد لاحظا شيئاً غير طبيعي فيه. وربما لم أكن لألاحظ شيئاً أنا الآخر لو لم أكن أعرف من قبل.

كانت غريزلدا وكان دينيس مبتهجين بشكل خاص، يوردان الطرائف على الدكتور ستون والآنسة كرام اللذين أصبحا حديث القرية. خطر لي فجأة خاطر أحسسته كوخزة مؤلمة، وهو أن دينيس أقرب عمراً إلى غريزلدا مني إليها، وهو يدعوني «العم لين» بينما يدعوها غريزلدا، وقد أشعرني ذلك بشيء من العزلة.

أظنني كنت منزعجاً -دون شك- من السيدة بروثيرو، وأنا ممن لم يعتادوا الاستغراق في مثل هذه التأملات التي لا فائدة منها.

ورغم أن لورنس شارك في الأحاديث بابتهاج، إلاّ أنني كنت ملاحظاً نظراته التي كانت تتوجه باستمرار حيث كنت أجلس، ولم أُدهش حين ناور بعد العشاء ليجعلني أذهب إلى مكتبي. وحالما أصبحنا بمفردنا تغير أسلوب تصرفه وقال: لقد كشفت سرّنا يا سيدي، ما الذي ستفعله حيال الأمر؟

كان بوسعي أن أتحدث مع لورنس بصراحة أشد بكثير من صراحتي مع السيدة بروثيرو، وهو ما قمت به، وقد تحمّل الشاب كلامي بشكل جيد. وعندما فرغت قال: لا بد لك من قول ذلك كله بالطبع، وربما كنتَ محقاً فيما تقوله كما أظن، ولكن ما بيني وبين آن ليس تلك العلاقة العادية التي قد تتصورها.

قلت له إن عبارته تلك يقولها الناس منذ فجر الخليقة، فارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة غريبة وقال: أتعني أن كل امرئ يرى حالته فريدة لا تتكرر؟ ربما كان الأمر كذلك، ولكن ينبغي أن تصدق أمراً واحداً.

أكد لي أنه «لا شيء في العلاقة» وأن آن من أفضل وأخلص النساء، ثم قال بتجهم: لو كان بروثيرو العجوز شخصية في رواية لقُتل منذ زمن... وكان في ذلك راحة للجميع.

أنّبته على ذلك فقال: آه! هذا لا يعني أنني سأغرز سكيناً في ظهره، مع أنني أقدم جزيل شكري لأي امرئ يفعل ذلك. ما من أحد في هذا العالم يذكره بخير، وإنني لأعجب كيف لم تقدم زوجته الأولى على قتله. لقد قابلتها مرة منذ سنوات وبدت لي امرأة قادرة على مثل هذا الأمر. كانت واحدة من أولئك النساء الهادئات

الخطيرات. إنه يرعد ويبرق طَوال الوقت، ويثير المتاعب في كل مكان، وهو أبخل خلق الله، وذو مزاج قذر لا يحتمل. إنك لا تدري مقدار الأذى الذي اضطرت آن لتحمّله منه. لو كان لي في هذه الدنيا أي مال لأخذتها بعيداً دون إضاعة للوقت.

تكلمت معه بعد ذلك بكل جدية. رجوته أن يغادر سينت ميري ميد؛ فبقاؤه فيها ليس من شأنه إلاّ التسبب لآن بروثيرو بشقاء أعظم مما شهدته حتى الآن. فالناس سيتكلمون، وسيصل الأمر إلى مسامع الكولونيل بروثيرو... وسيكون وضعها أصعب بما لا يقارن.

احتج لورنس قائلاً: لا أحد يعلم بالأمر سواك يا سيدي.

قلت: يا فتاي العزيز، أنت تقلل من قيمة الغريزة البوليسية في حياة قريتنا؛ ففيها يعرف الجميع أخصّ خصوصياتك. ما من رجل تحرٍّ في إنكلترا يضاهي عجوزاً عزباء لديها من الوقت الكثير.

قال إن ذلك لا يشكل خطورة، فالجميع يظنونه مغرماً بليتيس. فسألته: هل خطر لك أن ليتيس نفسها قد تظن ذلك أيضاً؟

بدا مدهوشاً تماماً للفكرة، وقال إن ليتيس لا تأبه له أبداً، وإنه واثق من ذلك. ثم مضى قائلاً: إنها فتاة غريبة نوعاً ما. تبدو دوماً وكأنها في حلم، ومع ذلك فإنني أرى أنها فتاة عملية في أعماقها. أظن أن كل ذلك الغموض والشرود ما هو إلاّ قناع وتمثيل. إن ليتيس تعرف تماماً ما تفعله، وإن فيها عرقاً غريباً من حب الانتقام. الغريب أنها تكره آن... تمقتها بالمعنى الحرفي، ومع ذلك فإن آن تعاملها دوماً معاملة ملائكية.

لم أعتمد -طبعاً- كلامه فيما يخص هذه النقطة الأخيرة؛ فبالنسبة للشباب المتيَّمين حباً تكون الحبيبات دوماً أشبه بالملائكة. ومع ذلك فإن آن -كما لاحظت- تصرفت دوماً بلطف وإنصاف مع ابنة زوجها؛ لذلك دهشت عصر ذلك اليوم من المرارة التي صبغت لهجة ليتيس. وعند تلك النقطة اضطررنا لقطع الحديث لأن غريزلدا ودينيس اندفعا إلى المكتب وقالا إن عليّ أن لا أجعل لورنس يتصرف كعجوز ممل.

قالت غريزلدا وهي تلقي بنفسها على أحد الكراسي: يا إلهي! كم أنا متشوقة لشيء مثير يحصل. جريمة قتل... أو حتى عملية سطو!

قال لورنس محاولاً تقمص حالتها المزاجية: لا أجد ما يستحق السطو... إلاّ إذا فكرنا بطقم أسنان الآنسة هارتنيل.

قالت غريزلدا: إنه يطقطق ويصدر أصواتاً فظيعة. لكنك مخطئ في ظنك أن شيئاً لا يستحق السطو؛ ففي أولد هول بعض التحف الفضية القديمة الرائعة، وبعض الأواني الأثرية والفناجين التي تعود إلى عهد الملك تشارلز الثاني، وتحف كثيرة أخرى كهذه. أظنها تساوي آلاف الجنيهات.

علق دينيس قائلاً: إن من شأن العجوز أن يطلق عليك النار إن اقتربت من ذلك. وهو ما يستمتع بفعله.

قالت غريزلدا: سنمسك به قبل ذلك! من منكم يملك مسدساً؟

قال لورنس: لدي مسدس من طراز ماوزر.

- حقاً؟ كم هو مثير. لماذا تحتفظ به؟

- إنه تذكار من زمن الحرب.

تطوع دينيس قائلاً: لقد كان العجوز بروثيرو يري طقم الفضة للسيد ستون اليوم، وكان ستون يتظاهر بأنه مهتم جداً بذلك.

قالت غريزلدا: ولكنني ظننت أنهما قد تشاجرا بشأن القبر.

أجابها دينيس: لقد تصالحا. وإن كنت لا أدري لماذا ينخرط الناس في نبش القبور!

قال لورنس: إن هذا الرجل، ستون، يحيرني. إنه شديد الشرود دون شك، ويكاد المرء يقسم أحياناً أنه لا يفقه شيئاً في مهنته نفسها.

قال دينيس: هذا من الحب... الغالية غلاديس كرام، والشباب، والهوى، والسكنى في طابق واحد في الفندق...

قلت مؤنباً: كفى يا دينيس.

قال لورنس: حسناً، علي أن أذهب. شكراً جزيلاً لك يا سيدة كليمنت على هذه الأمسية الجميلة.

ودّعته غريزلدا، وكذلك دينيس الذي عاد بعد ذلك إلى المكتب بمفرده. بدا أن شيئاً قد حدث وكدّر الفتى، فقد أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو عابس يرفس الأثاث بقدمه. وأثاثنا بالٍ أساساً بحيث لا يكاد الركل يزيده ضرراً، ولكني شعرت أن عليّ إبداء احتجاج بسيط جعل دينيس يتأسف.

سكت لحظة ثم انفجر قائلاً: يا للنميمة من عادة عفنة سيئة!

فوجئت قليلاً وسألته: ما الأمر؟

قال: لا أدري إن كان علي أن أخبرك.

فوجئت أكثر فأكثر، وأكمل دينيس: إنها عادة في منتهى السوء. السعي هنا وهناك وقول الأشياء... ولا حتى قولها، بل الإيحاء واللمز بها. كلا، لا أكاد أستطيع إخبارك! إنه أمر قذر جداً.

نظرت إليه بفضول، ولكني لم أحثه على الكلام. ومع ذلك فقد عجبت كثيراً لسلوكه؛ فإن التأثر بالأمور بهذا العمق لم يكن أبداً من صفات دينيس. وفي تلك اللحظة دخلت غريزلدا وقالت: لقد خابرتني الآنسة وذربي لتوها. لقد خرجت السيدة ليسترينج من بيتها في الساعة الثامنة إلاّ ربعاً ولم تعد بعد، ولا أحد يعرف أين ذهبت.

- ولماذا يُفترض أن يعرف أحد؟

- ولكن خروجها لم يكن للذهاب إلى الدكتور هيدوك. الآنسة وذربي متأكدة من ذلك؛ لأنها اتصلت بالآنسة هارتنيل التي تسكن في منزل ملاصق لبيت الدكتور، والتي كان من شأنها -قطعاً- أن تراها قادمة لو صح ذلك.

قلت: إنني لا أفهم أبداً كيف يحصل أهل هذه القرية على التغذية الضرورية. لا بد أنهم يتناولون وجباتهم وقوفاً أمام النوافذ حتى يتأكدوا من أن شيئاً لم يفُتْهم.

قالت غريزلدا وهي تنتفخ فرحاً: وهذا ليس كل شيء، فقد اكتشفوا جديداً فيما يخص فندق بلو بور. إن للدكتور ستون وللآنسة كرام غرفتين متلاصقتين في الفندق. ثم أشارت بسبابتها

بشكل موحٍ وأضافت: ولكن دون باب يوصل بين الغرفتين!

علّقتُ قائلاً: لا شك أن ذلك شكّل خيبة أمل للجميع.

وهو ما أثار ضحك غريزلدا.

* * *

بدأ يوم الخميس بداية سيئة. فقد اختارت سيدتان من أبرشيتي أن يتشاجرا بشأن ديكورات الكنيسة، وهكذا استُدعيت لأحكم بين سيدتين في أواسط عمريهما ترتعد كلتاهما غضباً بالمعنى الحرفي للكلمة. وكان من شأن تلك الظاهرة -لو لم تكن مؤلمة- أن تكون مثيرة تماماً للاهتمام. ثم إن عازف الأورغن لدينا، وهو شاب بالغ الحساسية، كان يشعر بالحرج والإهانة وكان لا بد من ترضيته. وفوق ذلك أعلن أربعة من رعايا الأبرشية عصياناً مفتوحاً ضد الآنسة هارتنيل التي أتت إلي وهي تتميز غيظاً من ذلك.

وكنت على وشك المغادرة إلى المنزل عندما قابلت الكولونيل بروثيرو. كان في أحسن حالات مزاجه مرحاً وقد حكم -بصفته حاكماً قضائياً- بالسجن على ثلاثة من سارقي الطيور.

وبما أنه يكاد يعاني من الصمم، ويرفع صوته (شأن الصُمّ دائماً) فقد صاح بصوته القوي: الحزم، هذا ما نحتاجه في أيامنا هذه... الحزم؛ ليكونوا نكالاً! سمعت أن ذلك الشقي، آرتشر، خرج بالأمس يتوعد بالانتقام مني، ذلك الشقي الوقح! المُهدَّدون يعيشون طويلاً كما يقول المثل. سأريه قيمة تهديده عندما أمسكه في المرة القادمة وهو يسرق طيوري. التراخي... نحن متراخون جداً

هذه الأيام! إنني أؤمن بكشف الناس على حقيقتهم. يطلبون منك دوماً أن تتسامح مع فلان لأن له زوجة وأطفالاً، وهو هراء مطلق وسخف. لماذا ينجو امرئ من جريرة أعماله لمجرد انتحابه وتباكيه على زوجته وأطفاله؟ الأمر سيان عندي... وبغضّ النظر عن هوية المرء: أكان طبيباً أم محامياً أم رجل دين أم سارق طيور أم سكّيراً مشرداً... إن أمسكته يخرق القانون فدعِ القانون يعاقبه. إنك تتفق معي، أليس كذلك؟

- لقد نسيتَ أن رسالتي تلزمني باحترام صفةٍ هي فوق كل الصفات... وهي صفة الرحمة.

- حسناً، ولكنني رجل عادل؛ ليس بوسع أحد إنكار ذلك.

لم أتكلم، فما لبث أن قال بحدة: لماذا لا تجيبني؟ أطلعني على رأيك يا رجل.

ترددت، ثم قررت الكلام فقلت: لقد كنت أفكر بأنني -عندما يأتي أجلي- سيؤسفني أن لا يكون لديّ من عذر أبذله ساعة الحساب إلاّ العدالة. لأن ذلك قد يعني أنه لن يكون لي من جزاء إلاّ العدالة وحدها...

- هاه! إن ما نحتاجه هو القليل من النفسية المقاتلة. لقد كنت دوماً أؤدي واجبي كما أرجو. حسناً، دعنا من ذلك كله. سأكون خارجاً هذا المساء كما قلت، وسنجعل لقاءنا في السادسة والربع بدل السادسة إن لم يكن لديك مانع، ففي القرية رجل عليّ أن أراه.

- سيناسبني ذلك تماماً.

هزّ عصاه ومضى، وحين التفتّ اصطدمت بهاوز فرأيت المرض ظاهراً عليه هذا الصباح. وكنت قد أردت تأنيبه قليلاً بشأن عدة أمور أصابتها الفوضى أو تم تأجيلها ضمن المنطقة التي يشرف عليها، ولكنني عدلت عن ذلك وأنا أرى وجهه الشاحب المرهق. وقد سألته عن مرضه فأنكره، ولكن دون حماسة. ثم اعترف أخيراً بأنه لا يشعر أنه على ما يرام، وبدا مستعداً لسماع نصيحتي في الذهاب إلى البيت وملازمة الفراش.

تناولت غدائي على عجل وخرجت لإجراء بعض الزيارات، وكانت غريزلدا قد ذهبت إلى لندن في القطار. ثم عدت في نحو الرابعة إلاّ ربعاً وفي نيتي أن أضع الخطوط العامة لموعظة يوم الأحد، ولكن ماري أخبرتني بأن السيد ريدنغ ينتظرني في المكتب، فدخلت لأجده يذرع المكتب جيئة وذهاباً بوجه قلق يبدو عليه الشحوب والإعياء. ولدى دخولي التفت بسرعة قائلاً: اسمعني يا سيدي، لقد كنت أفكر ملياً بما قلتَه أمس، حتى إنني لم أكد أنام في الليلة الماضية. إنك على حق؛ علي أن أقطع العلاقة وأرحل بعيداً.

- يا فتاي العزيز...

- لقد كنت محقاً فيما قلته عن آن. لن يسبب لها بقائي هنا إلاّ المتاعب. وهي... وهي أطيب من أن أعرّضها لذلك. لقد اقتنعتُ بضرورة سفري. يكفي ما سببته لها من مصاعب، ليسامحني الله!

- أعتقد أنك اتخذت القرار الوحيد الممكن. أعرف أنه قرار صعب، ولكن صدقني أنه سيكون الأفضل في النهاية.

لعله رأى أنني أستسهل القول إذ ليست لي بالأمر علاقة مباشرة.

وبعد برهة قال: ستعتني بآن، أليس كذلك؟ إنها تحتاج صديقاً.

- بإمكانك أن تطمئن إلى أنني سأبذل كل ما في وسعي.

ضغط على يدي وقال: أشكرك يا سيدي؛ إنك رجل صالح. سأذهب لوداعها هذا المساء، وربما أحزم أمتعتي وأسافر غداً؛ لا فائدة من إطالة العذاب. شكراً على إعطائي سقيفة حديقتكم لأرسم فيها، وآسف لأني لم أكمل رسم السيدة كليمنت.

- لا تقلق لذلك يا فتاي العزيز. مع السلامة، وليحفظك الله.

حاولت بعد ذهابه الانكباب على موعظتي ولكن دون جدوى، فقد بقيت أفكر في لورنس وآن بروثيرو. ثم تناولت فنجاناً من الشاي البارد الأسود الذي لا يكاد يُشرب، وفي الساعة الخامسة والنصف رنّ جرس الهاتف، حيث أُنبئت أن السيد أبوت من سكان لاورفارم في النزع الأخير وأن أهله يناشدونني الذهاب فوراً لأشهد موته.

حاولت الاتصال مباشرة بالكولونيل بروثيرو في أولد هول لأن المنطقة التي سأذهب إليها تبعد نحو ميلين، وبما أنني سأذهب وأعود مشياً على قدميّ لأنني لم أنجح قط في تعلّم ركوب الدراجة فلن أتمكن من العودة في الساعة السادسة والربع. ولكن قيل لي إن الكولونيل قد غادر لتوه بسيارته، وهكذا غادرت بعد أن تركت مع ماري خبراً بأنني استُدعيت لمنطقة بعيدة، وأنني سأحاول العودة في السادسة والنصف أو بعدها بقليل.

* * *

الفصل الخامس

عندما وصلت بوابة بيتي لدى عودتي كانت الساعة أقرب إلى السابعة منها إلى السادسة والنصف. وقبل أن أقترب من البوابة فُتحتْ فجأة وخرج منها لورنس ريدنغ. توقف مشدوهاً عند رؤيتي، ولفت منظره انتباهي على الفور؛ فقد بدا وكأنه على شفا الجنون... حدقتْ عيناه بشكل غريب، وكان يرتعد شاحباً شحوب الموتى.

تساءلت للحظة إن كان قد شرب شيئاً، ولكنني ما لبثت أن استبعدت الفكرة، وقلت له: مرحباً، أجئت لتراني ثانية؟ أنا آسف لأنني كنت خارجاً. هيا ندخل، فعليّ أن أقابل الكولونيل بروثيرو بشأن بعض الحسابات، ولكننا لن نتأخر على الأرجح.

- بروثيرو؟

قال ذلك وبدأ يضحك، ثم أكمل: بروثيرو؟ أوَسوف ترى بروثيرو؟ آه، سترى بروثيرو دون شك! آه، يا إلهي... نعم.

نظرت إليه ومددت يدي لاشعورياً إليه فابتعد جانباً بحدة وقال بشكل أقرب إلى الصياح: "لا؛ عليّ أن أذهب... عليّ أن أفكر...

يجب أن أفكر". ثم انطلق راكضاً، وسرعان ما اختفى في نهاية الطريق المنحدر إلى القرية وقد تركني أحدق خلفه وقد عاودتني فكرة السّكْر. وأخيراً هززت رأسي ودخلت.

نحن نترك الباب الأمامي مفتوحاً دائماً، ولكنني قرعت الجرس مع ذلك، فجاءت ماري وهي تنشف يديها بصدرية المطبخ وقالت: ها قد عدتَ أخيراً.

- هل الكولونيل بروثيرو هنا؟

- إنه في المكتب، وقد وصل منذ السادسة والربع.

- والسيد ريدنغ كان هنا أيضاً؟

- جاء قبل بضع دقائق وسأل عنك. قلت له إنك على وشك العودة وإن الكولونيل بروثيرو ينتظر في المكتب، فقال إنه سينتظر هو الآخر. إنه هناك الآن.

- لا، ليس هناك. لقد التقيته لتوي نازلاً في الطريق.

- حسناً، لم أسمعه يخرج. لم يمكث -إذن- أكثر من دقيقتين. أما السيدة فلم تعد من المدينة بعد.

أومأت برأسي وأنا شارد الذهن، وعادت ماري باتجاه المطبخ فيما مضيت أنا في الممر وفتحت باب المكتب. وبعد ظلمة الممر انبهرت عيناي وطرفتا من ضوء الأصيل الغامر الذي يملأ الغرفة. مشيت خطوة أو اثنتين للداخل ثم وقفت جامداً... لم أكد أستطيع للحظات استيعاب المشهد أمام عيني!

كان الكولونيل بروثيرو ممدداً فوق مكتبي بشكل رهيب غير طبيعي مفتوح الذراعين والرجلين. وكانت ثمة بركة صغيرة من سائل قاتم قرب رأسه على المكتب، وكان السائل ينقّط ببطء على الأرض بإيقاع رهيب: "لق، لق، لق..". تمالكت نفسي وتقدمت منه. كان جلده بارد الملمس، واليد التي رفعتها هوت ثانية لا حياة فيها. كان الرجل ميتاً... بطلقة في رأسه.

ذهبت إلى الباب وناديت ماري. وعندما جاءت أمرتها أن تركض بأقصى سرعتها وتحضر الدكتور هيدوك الذي يسكن عند منعطف الطريق تماماً. قلت لها إن حادثاً قد وقع، ثم عدت وأغلقت الباب لأنتظر قدوم الطبيب. وقد وجدتْه ماري في بيته لحسن الحظ. والدكتور هيدوك رجل ضخم الجسم حلو المعشر ذو وجه واضح القسمات يوحي بالنزاهة. ارتفع حاجباه عندما أشرت بصمت إلى الطرف الآخر من الغرفة، ولكن لم تبدُ منه -كأي طبيب حقيقي- أية بوادر عاطفية. انحنى فوق الميت يفحصه بسرعة، ثم اعتدل ونظر إليّ فقلت: حسناً؟

- إنه ميت... أظنه مات منذ نصف ساعة.

- أهو انتحار؟

- مستحيل يا رجل، انظر إلى موقع الجرح. وفوق ذلك، إن كان قد أطلق النار على نفسه فأين السلاح؟

هذا صحيح فعلاً، لم يكن من أثر لشيء من هذا القبيل. قال هيدوك: الأفضل أن لا نعبث بأي شيء. فلأتصل بالشرطة.

رفع سماعة الهاتف وتكلم مع مركز الشرطة معطياً الحقائق بأكبر قدر من الاقتضاب، ثم وضع السماعة وجاء إلى حيث أجلس قائلاً: إنه عمل قذر. كيف عثرت عليه؟

شرحت له ثم سألته بصوت واهن: أهي جريمة قتل؟

- هكذا يبدو الأمر. أعني: ما عساها تكون غير ذلك؟ أمر غريب. أتساءل من يا ترى يحمل عداء للعجوز المسكين. أعرف طبعاً أنه لم يكن يحظى بشعبية، ولكن الناس لا تُقتل عادة لمثل هذا السبب... يا له من حظ عاثر.

- يوجد أمر غريب نوعاً ما. لقد تلقيت اتصالاً هاتفياً عصر اليوم لأذهب لرؤية رجل في سكرات الموت، وعندما وصلت إلى بيته دُهش الجميع لرؤيتي. كان الرجل المريض أفضل حالاً بكثير مما كان عليه في الأيام الماضية، وقد أنكرت زوجته تماماً أنها اتصلت بي.

قطّب هيدوك حاجبيه وقال: هذا أمر ذو مغزى عميق... جداً. لقد تم إبعادك عن الطريق. أين زوجتك؟

- ذهبت إلى لندن لقضاء هذا اليوم.

- والخادمة؟

- في المطبخ... في الجانب الآخر من البيت تماماً.

- حيث لا يُحتمل أن تسمع شيئاً مما يدور هنا. نعم، إنه أمر قذر. من كان يعرف أن بروثيرو قادم إليك هنا هذا المساء؟

- لقد أشار إلى ذلك صباح اليوم في شارع القرية بأعلى صوته كما هي عادته.

- أتعني أن القرية بأسرها تعرف؟ هذا هو الأمر المعتاد على أية حال. أتعرف أحداً يحمل له ضغينة؟

خطرت في ذهني صورة وجه لورنس ريدنغ الشاحب وعينيه الذاهلتين. ولكن جلبة الأقدام المسرعة في الممر وفّرت علي حرج الإجابة. نهض صديقي قائلاً: الشرطة.

وصل الشرطي هيرست الذي بدا شديد الاهتمام رغم مسحة من القلق على محياه، وحيانا قائلاً: مساء الخير أيها السادة. سيكون المفتش هنا في الحال، وسأتبع تعليماته ريثما يصل. فهمتُ أن الكولونيل بروثيرو قد وُجد مُطلَقاً عليه الرصاص... في بيت الكاهن.

سكت ثم وجه إليّ نظرة شك باردة حاولت أن أقابلها بما يناسبها من سمت البراءة الواعية، وبعد ذلك انتقل إلى المكتب قائلاً: ينبغي عدم لمس شيء حتى مجيء المفتش.

أخرج الشرطي دفتر ملاحظاته، وأمسك قلمه، ونظر إلينا بترقب. أعدت عليه قصة اكتشافي للجثة، وبعدما سجلها كلها -الأمر الذي استغرق الكثير من الوقت- التفت إلى الطبيب وقال: ماذا كان سبب الوفاة برأيك يا دكتور؟

- طلقة في الرأس من مسافة قريبة.

- وما هو السلاح؟

- لا أستطيع الجزم بذلك قبل استخراج الرصاصة، ولكنني

أرجّح أن تكون رصاصة من مسدس ذي عيار صغير، ماوْزَرْ ٢٥ مثلاً.

جفلت إذ تذكرت حديثنا في الليلة السابقة، واعتراف لورنس ريدنغ بشأن المسدس. التفتَ الشرطي إليّ بعينه الباردة التي تشبه عين السمكة وقال: هل قلت شيئاً يا سيدي؟

هززت رأسي بالنفي؛ إذ أن الأفكار التي تراودني لا تعدو أن تكون مجرد شكوك، ولذلك فالأفضل أن لا أبوح بها. قال الشرطي مخاطباً الطبيب: متى حدثت المأساة برأيك؟

تردد الطبيب قليلاً قبل الإجابة ثم قال: أظن أن الرجل قد توفي قبل نحو نصف ساعة، وليس أكثر من ذلك بالتأكيد.

التفت هيرست إليّ وقال: هل سمعت الفتاة شيئاً؟

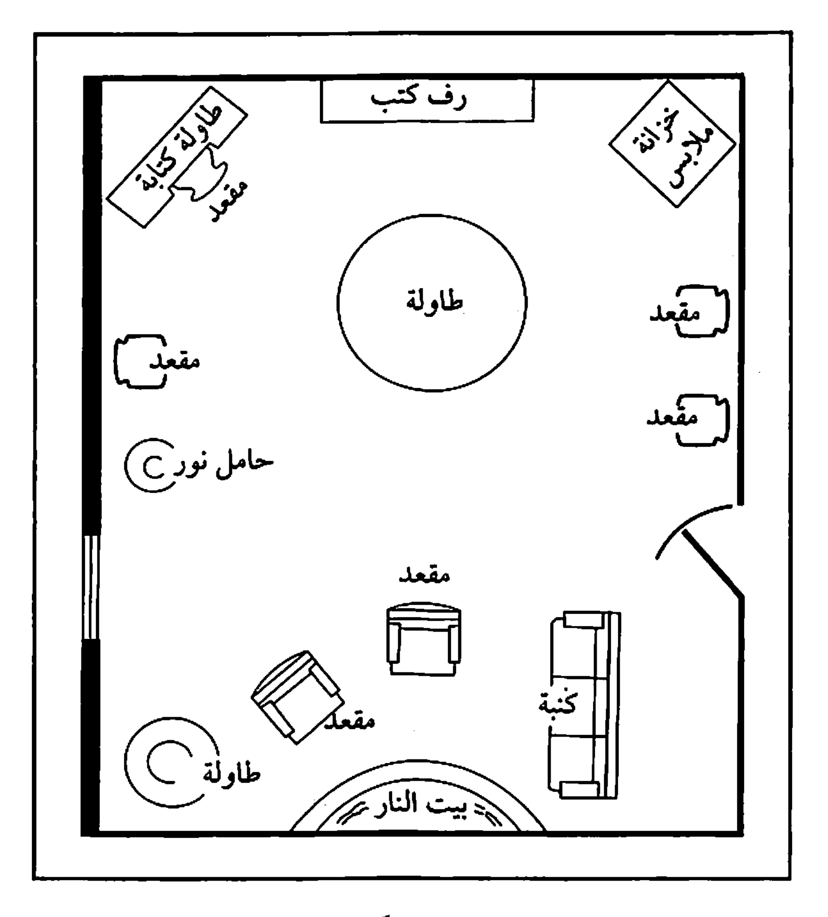
- لا أظن، لكن من الأفضل أن تسألها.

غير أن المفتش سْلاك وصل في هذه اللحظة قادماً بالسيارة من متش بينهام على بعد ميلين.

ولئن كانت كلمة سلاك في لغتنا تعني الرخو أو المترهل كسلاً فإن أفضل ما أستطيع وصف المفتش به هو أنه كان أبعد ما يكون عن معاني اسمه. كان رجلاً أسمر لا يهدأ، بادي النشاط، ذا عينين سوداوين تلسعان المرء بنظراتهما الحادة طوال الوقت. وكان أسلوب تصرفه وقحاً وتسلطياً إلى أبعد حد.

رد على تحيتنا بإيماءة مقتضبة وأخذ دفتر ملاحظات مرؤوسه فقرأه بإمعان وتبادل معه بعض الكلمات المقتضبة بصوت منخفض ثم ذهب إلى الجثة قائلاً: أحسب أن كل شيء قد تم العبث به وتخريبه.

(ولفائدة قرائي فإنني أضع هنا تخطيطاً لغرفة مكتبي)



قال هيدوك: أنا لم ألمس شيئاً.

وقلتُ: وأنا كذلك.

انشغل المفتش لبعض الوقت منكباً يتفحص الأشياء على المكتب ويدقق في بقعة الدم الكبيرة، ثم ما لبث أن قال بلهجة المنتصر: آه! ها قد وجدنا ما نريده. ساعة الحائط وقعت لدى سقوطه

فتوقفت. سيدلّنا ذلك على وقت وقوع الجريمة... الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة. متى قلت إن الجريمة قد وقعت يا دكتور؟

- قلت إنها وقعت قبل نصف ساعة، ولكن...

نظر المفتش إلى ساعته وقال: السابعة وخمس دقائق. وقد تلقيت البلاغ قبل نحو عشر دقائق، في الساعة السابعة إلاّ خمس دقائق. وكان اكتشاف الجثة في نحو السابعة إلاّ ربعاً. فهمت أنك حضرت في الحال تقريباً. لنقل إنك فحصت الجثة في السابعة إلاّ عشر دقائق... إن ذلك يكاد ينطبق تماماً بالدقيقة والثانية.

قال الطبيب: أنا لا أضمن الوقت بشكل مطلق، إنه تخمين تقريبي.

- إنه تخمين ممتاز، تخمين ممتاز.

كنت أحاول التدخل بكلمة فقلت: فيما يخص الساعة...

قاطعني المفتش قائلاً: اسمح لي يا سيدي، سأسألك أية أسئلة أريد معرفتها. الوقت قصير، ما أريده هو الصمت المطبق.

- نعم، ولكني أود أن أخبرك...

قاطعني المفتش مرة أخرى -وهو يحدق إليّ بشراسة- قائلاً: "الصمت المطبق"، فأجبته إلى طلبه.

كان ما يزال منكباً على المكتب يفحصه، ثم دمدم قائلاً: ما الذي دعاه للجلوس هنا؟ أكان يريد كتابة ملاحظة ما؟ هل... ما هذا؟

رفع ورقة ملاحظات بنشوة المنتصر، وبدا فرحاً بما اكتشفه إلى الحد الذي دفعنا إلى التقرب منه لفحصها معه.

كانت ورقة ملاحظات مأخوذة من دفتر ملاحظاتي، وقد كُتب في أعلاها رقم يشير إلى الساعة: ٦,٢٠ ، وتبدأ الرسالة على النحو التالي: «عزيزي كليمنت، أنا آسف لأنني لا أستطيع الانتظار أكثر، ولكن عليّ أن...»، ثم تتوقف الكتابة بعد ذلك تاركة خطاً طويلاً لا معنى له.

قال المفتش بنشوة: هذا أوضح من شمس النهار، فقد جلس هنا ليكتب هذه الورقة، فأتاه بهدوء عدو له من خلال الباب الزجاجي وأطلق عليه النار وهو يكتب. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

شرعت أقول: أود -فقط- القول إن...

فقاطعني فوراً: أبداً، من فضلك يا سيدي! أريد أن أرى إن كانت توجد آثار أقدام.

انكبّ على يديه وركبتيه وأخذ يحبو باتجاه الباب الزجاجي. قلت له بعناد: أظن أن عليك أن تعرف...

نهض المفتش وتكلم بحزم ولكن دون انفعال: سنأتي على كل ذلك فيما بعد. سأكون ممتناً إن خرجتم من هنا أيها السادة. أفرغوا غرفة المكتب جميعاً رجاء.

وهكذا سمحنا لأنفسنا بأن نُخرج من الغرفة كالأطفال.

بدا وكأن ساعات قد مرت، ومع ذلك لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة والربع. قال هيدوك: حسناً، يكفي هذا. عندما

يحتاجني ذلك الحمار المغرور بوسعكم إرساله إلى العيادة. وداعاً.

جاءت ماري من المطبخ وقالت وعيناها مدورتان تنتفخان انفعالاً: لقد عادت سيدتي... دخلت منذ نحو خمس دقائق.

وجدتُ غريزلدا في غرفة الجلوس. بدت خائفة رغم شعورها بالإثارة، وأخبرتُها بكل شيء فيما هي تنصت بكل اهتمام. ثم أنهيت قصتي قائلاً: سُجِّلت الساعة في أعلى الرسالة على أنها ٦,٢٠، وقد وقعت ساعة الحائط وتوقفت عند الساعة ٦,٢٢.

- نعم، ولكن ألم تخبره أننا كنا نضبط ساعة الحائط تلك بحيث تكون متقدمة دوماً ربع ساعة عن الوقت الحقيقي؟

- نعم، لم أخبره. إنه لم يترك لي مجالاً لذلك، رغم كل محاولاتي.

عبست غريزلدا حائرة ثم قالت: ولكن اسمع يا لين، إن ذلك يجعل الأمر كله غريباً جداً؛ فعندما أشارت تلك الساعة إلى السادسة والثلث لم تكن الساعة في الواقع إلاّ السادسة وخمس دقائق. وفي السادسة وخمس دقائق لا أحسب أن الكولونيل بروثيرو كان قد وصل إلى البيت أساساً!

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

جلسنا لبعض الوقت نفكر حائرَيْن بمسألة الساعة تلك دون أن نصل إلى نتيجة.

قالت غريزلدا إن عليّ أن أبذل جهداً آخر لإبلاغ المفتش سلاك بالأمر، ولكني كنت أحس في تلك اللحظة بشيء أقرب إلى عناد البغال؛ فلقد كان المفتش سلاك وقحاً إلى حد بغيض دون أي داعٍ لذلك. وكنت أتطلع إلى لحظة أستطيع فيها إبراز معلومتي القيمة وإزعاجه بها. ومن شأني وقتها أن أقول له بلهجةٍ لا تخلو من تأنيب: "لو أنك أصغيت لي فقط أيها المفتش...".

توقعت أن يتحدث إليّ قبل مغادرة المنزل على الأقل، ولكننا علمنا من ماري -لدهشتنا- أنه قد غادر بعدما أقفل باب غرفة المكتب وأصدر أوامره بأن لا يحاول أحد دخولها.

اقترحت غريزلدا أن تذهب إلى أولد هول قائلة: سيكون الأمر فظيعاً بالنسبة لآن بروثيرو مع وجود الشرطة وغير ذلك. ربما استطعت تقديم شيء من المساعدة لها.

رحبتُ بتلك الفكرة وانطلقت غريزلدا بعد أن أوصيتها بأن

تتصل بي إن رأت أن وجودي يمكن أن يشكل عزاء أو راحة لزوجة بروثيرو أو ابنته.

كان دينيس هو التالي في الوصول إلى موقع الأحداث عائداً من مباراة تنس. وبدا أن وقوع الجريمة في بيتنا قد أثار ارتياحه الشديد؛ فقد هتف قائلاً: تخيل وجودنا في مركز الأحداث في واقعة قتل! لقد كنت أرغب دوماً في أن أكون في مثل هذه المعمعة. لماذا أقفل الشرطة باب المكتب؟ ألا يمكن أن يُفتح بأي مفتاح آخر؟

رفضت السماح له بمثل هذه المحاولة، وقد أذعن باستياء لذلك. وبعدما ألحّ حتى أخذ كل التفصيلات الممكنة عن الحادث خرج إلى الحديقة باحثاً عن آثار الأقدام وهو يعلّق بمرح قائلاً إن من حسن الحظ أن يكون القتيل هو بروثيرو الذي يكرهه الجميع. وقد أزعجتني بلادة حسه وابتهاجه، ولكنني فكرت بأنني ربما كنت أقسو على الفتى؛ ففي مثل عمر دينيس تكون القصص البوليسية أقصى ما يفرح، ولا بد لأي فتىً طبيعي -إذا ما وجد قصة بوليسية حقيقية تنتظره على عتبة بيته إذا صح التعبير- من أن يبلغ فرحه عنان السماء. إن الموت لا يعني الشيء الكثير لصبي في السادسة عشرة من عمره.

عادت غريزلدا بعد نحو ساعة. وقد رأت آن بروثيرو هناك بعد تلقيها النبأ من المفتش الذي غادر البيت بعدما سمع أن السيدة بروثيرو قد رأت زوجها آخر مرة في القرية عند الساعة السادسة إلاّ ربعاً تقريباً وأنها لا تمتلك أية معلومات قد تلقي الضوء على القضية، وقال المفتش إنه سيعود في اليوم التالي لإجراء تحقيق أوسع.

قالت غريزلدا متبرمة: كان نزيهاً تماماً في تعامله.

سألتُها: وكيف تلقّت السيدة بروثيرو الأمر؟

- حسناً... كانت هادئة تماماً، ولكنها هادئة دوماً.

- نعم، إنني لا أستطيع تخيل آن بروثيرو وهي تصاب بنوبات هستيريا مثلاً.

- كان الأمر صدمة كبيرة لها بالطبع. بوسع المرء رؤية ذلك. وقد شكرتني على حضوري وقالت إنها ممتنة جداً وإنه لا يوجد ما يمكنني تقديمه.

- وماذا عن ليتيس؟

- كانت في الخارج تلعب التنس في مكان ما، ولم تكن قد عادت -بعد- إلى البيت.

توقفت لحظة ثم قالت: أتدري يا لين، لقد كانت حقاً هادئة جداً... أمر غريب فعلاً.

- ربما كان ذلك من الصدمة.

- نعم، أظن ذلك. ومع ذلك...

قطبت حاجبيها حائرة وأضافت: لم يبدُ الأمر كذلك على نحوٍ ما. لم تبدُ مصدومة ذاهلة بقدر ما بدت... بقدر ما بدت مرعوبة.

- مرعوبة؟!

- نعم، ولكن دون أن تُظهر ذلك... أو أنها لم تقصد إظهاره. ولكن نظرة غريبة محترسة بدت في عينيها. أتساءل إن كانت لديها أية

فكرة عمّن قتله. سألَتْ مراراً إن كانت توجد شبهات حول أحد.

قلت متأملاً: حقاً؟

- نعم. إن آن تتمتع -طبعاً- بقدر هائل من ضبط النفس، ولكن بوسع المرء أن يلاحظ أنها كانت منزعجة جداً. منزعجة أكثر مما كنت أتخيل، فهي في نهاية الأمر لم تكن متعلقة به إلى ذلك الحد. بل إنني لأكاد أقول إنها كانت تكرهه.

- الموت يبدل مشاعر المرء أحياناً.

- نعم، أظنه كذلك.

دخل دينيس في غاية الانفعال لعثوره على آثار قدم في مسكبة الزهور، وكان واثقاً من أن الشرطة قد أغفلوها وأنها ستشكل نقطة تحول في حلّ اللغز.

أمضيت ليلة مزعجة. وقد نهض دينيس مبكراً فطاف بالمنزل ودار حوله قبل موعد الإفطار بزمن طويل، وذلك لدراسة «آخر التطورات» على حد قوله. ومع ذلك فقد كانت ماري -وليس هو- من أبلغنا بالخبر الصباحي المثير. كنا قد جلسنا لتونا لتناول الإفطار عندما اندفعت بقوة إلى الغرفة وخاطبتنا بما هو دأبها من الابتعاد عن الرسميات: أتصدقون ذلك؟ لقد أخبرني الخباز الآن. لقد اعتقلوا السيد ريدنغ.

صاحت غريزلدا غير مصدقة: اعتقلوا لورنس، مستحيل! لا بد أنها غلطة سخيفة.

قالت ماري بانفعال المنتشي: لا غلط في الأمر يا سيدتي؛ فقد

ذهب السيد ريدنغ إليهم بنفسه وسلّم نفسه. ذهب إليهم مباشرة ورمى المسدس على الطاولة وقال: "أنا فعلتها". هكذا بكل بساطة!

نظرَتْ إلينا نحن الاثنين وهزت رأسها بتأكيد قوي ثم انسحبت مقتنعة بما تركته فينا من أثر. حدقنا أنا وغريزلدا كل منا إلى الآخر، ثم قالت غريزلدا: آه! هذا ليس صحيحاً. لا يمكن أن يكون صحيحاً.

لاحظتْ صمتي فقالت: لين، لا أظنك ترى ذلك صحيحاً؟

لم أجد الإجابة سهلة فجلست صامتاً والأفكار تجول في رأسي. قالت غريزلدا: لا بد أنه مجنون، مجنون تماماً. أم تظنهما كانا ينظران إلى المسدس فانطلقت منه رصاصة فجأة؟

- هذا لا يبدو أمراً محتمل الحدوث أبداً.

- ولكن لا بد أنه كان حادثاً عرضياً ما؛ إذ لا يوجد أي دافع مطلقاً. لماذا يقدم لورنس على قتل الكولونيل بروثيرو بالله عليك؟

كان بوسعي أن أجيب عن هذا السؤال بكل جزم، ولكنني رغبت في صيانة سمعة آن بروثيرو قدر الإمكان، فربما كانت لدينا فرصة لإبقاء اسمها خارج الموضوع. ولذلك قلت: تذكري أنهما سبق وتشاجرا.

- بشأن ليتيس وملابس السباحة. نعم، ولكن تلك قضية تافهة. وحتى لو كان هو وليتيس مخطوبين سراً... إن ذلك لا يشكل سبباً لقتل أبيها.

- إننا لا نعرف ما هي الحقائق الفعلية للقضية يا غريزلدا.

- إنك تصدق ذلك فعلاً يا لين! آه... كيف تصدق ذلك؟! إنني واثقة أن لورنس لم يمسّ شعرة في رأس الرجل.

- تذكري أنني رأيته خارج البوابة تماماً، وبدا كرجل مجنون.

- نعم، ولكن... آه! مستحيل.

- ثم إن هناك مسألة الساعة أيضاً، وهي تلقى بذلك تفسيراً. لا بد أن لورنس أعاد عقاربها لتشير إلى السادسة والثلث على أمل أن يجد لنفسه دليل غياب عن مكان الجريمة لحظة وقوعها. انظري كيف وقع المفتش سلاك في المصيدة.

- أنت مخطئ يا لين، فقد كان لورنس يعرف بأمر تقديم تلك الساعة. وقد اعتاد القول إن ذلك «لإبقاء الكاهن دقيق المواعيد».. ما كان لورنس ليرتكب أبداً غلطة إرجاع العقارب إلى الساعة ٢٢, ٦. كان من شأنه -لو صح ذلك- أن يضع العقارب بحيث تشير إلى زمن مناسب... كالسابعة إلاّ ربعاً مثلاً.

- ربما لم يكن يعرف متى وصل بروثيرو إلى هنا، أو ربما نسي ببساطة أن الساعة تزيد ربع ساعة عن الزمن الحقيقي.

عارضتني غريزلدا قائلة: كلا، لو كنت ترتكب جريمة قتل فلا بد أن تكون حريصاً جداً على أمور كهذه.

- لا يمكنك الجزم يا عزيزتي، فلم يسبق لك ارتكاب جريمة قتل!

وقبل أن تستطيع غريزلدا الإجابة وقع خيالٌ على طاولة الإفطار

وجاءنا صوت بالغ اللطف يقول: أرجو أن لا يكون وجودي تطفلاً. اعذراني، ولكن في مثل هذه الظروف المحزنة، المحزنة جداً...

كانت تلك جارتنا، الآنسة ماربل، التي تقبلت نفينا لوجود أي إزعاج ودخلت من خلال الباب الزجاجي حيث سحبتُ لها كرسياً. بدت متوردة الوجه قليلاً ومنفعلة تماماً. مضت قائلة: أليس ذلك أمراً فظيعاً جداً؟ الكولونيل بروثيرو المسكين. صحيح أنه قد لا يكون رجلاً بالغ اللطف، أو ذا شعبية، ولكن ذلك لا يقلل من الحزن شيئاً. وقد قتل عملياً في مكتبة البيت كما فهمت؟

قلت لها إن ذلك هو ما حصل بالفعل، فسألت الآنسة ماربل غريزلدا: والكاهن العزيز لم يكن هنا وقتها؟

شرحتُ لها أين كنت، فقالت وهي تنظر حولها: والسيد دينيس ليس معكم هذا الصباح؟

أجابت غريزلدا: إن دينيس يتخيل نفسه رجل تحرٍّ هاوياً. إنه منفعل كثيراً لآثار قدم وجدها في إحدى مساكب الأزهار، وأظنه ذهب ليخبر الشرطة عنها.

قالت الآنسة ماربل: يا عزيزتي، لا شك أنها كانت معمعة متعبة، أليس كذلك؟ والسيد دينيس يظن أنه يعرف من ارتكب الجريمة. حسناً، أظن أننا جميعاً نرى أننا نعرف ذلك.

سألتها غريزلدا: أتعنين أن الأمر واضح؟

- آه يا عزيزتي! لا، لم أقصد ذلك أبداً، ولكني أظن أن كل امرئ يظن القاتل شخصاً مختلفاً، ولذلك من المهم وجود أدلة. أنا

مثلاً مقتنعة تماماً بأنني أعرف من فعلها، ولكنني لا أملك أي دليل مهما صغُر. أعرف أن على المرء أن يكون بالغ الحرص فيما يقوله في زمن كهذا... إنهم يسمون مثل هذا الكلام تشهيراً جنائياً، أليس كذلك؟ لقد قررت أن أكون في منتهى الحرص مع المفتش سلاك. لقد أرسل يقول إنه سيأتي لرؤيتي هذا الصباح، ولكنه اتصل قبل قليل ليقول إن ذلك لم يعد ضرورياً.

قلت: أظن أنه لم يعد ضرورياً بعد الاعتقال.

انحنت الآنسة ماربل إلى الأمام وقد تورد خداها وقالت: الاعتقال؟ لم أعرف أن أحداً قد اعتُقل.

من النادر جداً أن تكون الآنسة ماربل أقلّ منا اطلاعاً بحيث أنني سلّمت جدلاً بأنها كانت على علم بآخر التطورات. قلت لها: يبدو أنك لم تسمعي بعد. نعم، حدث اعتقال... اعتُقل لورنس ريدنغ.

- لورنس ريدنغ؟

بدت الآنسة ماربل مدهوشة جداً، ثم قالت: ما كنت لأظن...

قاطعتها غريزلدا بحماسة قائلة: لا أستطيع تصديق ذلك حتى الآن. كلا، رغم اعترافه الفعلي.

- اعترافه؟ أتقولين إنه اعترف؟ آه! يا إلهي، إنني أرى الآن أنني كنت في حيرة شديدة... نعم، كنت في غاية الاضطراب.

قالت غريزلدا: لا أملك إلاّ الشعور بأن الأمر كان -دون شك-

حادثاً ما. ألا ترى ذلك يا لين؟ أعني أن ذهابه لتسليم نفسه بهذا الشكل يوحي بذلك.

مالت الآنسة ماربل إلى الأمام بلهفة وقالت: أتقولين إنه سلم نفسه؟

- نعم.

تنهدت الآنسة ماربل بعمق وقالت: آه! إنني سعيدة جداً.

نظرتُ إليها بشيء من الدهشة وقلت: أظن أن ذلك يُظهر حالة ندم حقيقية.

قالت الآنسة ماربل بدهشة بالغة: ندم؟ آه، ولكن من المؤكد يا عزيزي الكاهن أنك لا تراه مذنباً.

جاء الآن دوري بالدهشة وقلت: ولكن طالما أنه اعترف...

- نعم، ولكن ذلك لا يعدو أن يثبت الأمر، أليس كذلك؟ أعني أن ذلك يثبت أن لا علاقة له بالجريمة.

قلت: قد أكون غبياً، ولكنني لا أرى كيف يمكن لاعترافه أن يثبت ذلك. ما لم يرتكب المرء جريمةً فما الذي يدفعه للتظاهر بارتكابها؟

- آه، يوجد سبب بالطبع! أمر طبيعي... يوجد دوماً سبب. والشباب سريعو الانفعال، ويميلون دوماً لتصديق أسوأ الاحتمالات.

ثم التفتت إلى غريزلدا وقالت: ألا تتفقين معي يا عزيزتي؟

- إنني... إنني لا أدري. من الصعب أن يعرف المرء بماذا يفكر. لا أرى أي سبب يدفع لورنس للتصرف بمثل هذه البلاهة.

شرعت أقول: لو أنك رأيت وجهه مساء أمس...

قالت الآنسة ماربل: أخبرني عن ذلك.

وصفت لها عودتي إلى البيت وهي مصغية بكل انتباه، وعندما أكملتُ قالت: أعلم أنني كثيراً ما أكون شديدة الحماقة ولا أستوعب الأمور كما ينبغي، ولكنني حقاً لا أفهم ما الذي تقصده. يبدو لي أنه إذا ما حزم شابٌ أمره وقرّر الإقدام على فعلة شريرة بمستوى قتل نفس بشرية فإنه لن يبدو بعد ذلك شارد الذهن تائهاً من فعلته. من شأن تلك الفعلة أن تكون تصرفاً تمّ التخطيط له مسبقاً وارتكابه بأعصاب باردة، ورغم أن من المحتمل أن يصاب القاتل بارتباك ربما أدى إلى خطأ بسيط، إلاّ أنني لا أظن أن من شأنه أن يصاب بحالة انفعال شديد كالتي ذكرتَها. ورغم أن من الصعب تمثّل ذلك الموقف، إلا أنني لا أستطيع تصور نفسي -أنا شخصياً- أصاب بمثل تلك الحالة.

قلت محاججاً: ولكننا لا نعرف ظروف الحادث. فلو وقع شجار -مثلاً- لكان من المحتمل أن تُطلق رصاصة في نوبة غضب مفاجئة، وربما شعر لورنس بعدها بهول ما أقدم عليه. والحقيقة أنني أفضل الاعتقاد بأن هذا هو ما حدث فعلاً.

- أعلمُ يا عزيزي السيد كليمنت أن هناك العديد من الطرق التي نفضل النظر من خلالها إلى الأمور، ولكن على المرء أن يأخذ

الحقائق كما هي، أليس كذلك؟ ولا يبدو لي أن الحقائق تحتمل التفسير الذي حمّلتَها إياه. لقد أكدت خادمتكم جازمة أن السيد ريدنغ لم يمكث في البيت أكثر من دقيقتين، وهو وقتٌ لا يكفي بالتأكيد لنشوب مشاجرة كالتي تصفها. وفوق ذلك فقد فهمت أن النار قد أُطلقت على الكولونيل من مؤخرة رأسه وهو يكتب رسالة. هذا على الأقل ما أخبرتنيه خادمتي.

قالت غريزلدا: هذا صحيح. يبدو أنه كان يكتب ملاحظة يقول فيها إنه لا يستطيع المضي في الانتظار. وقد وُضع الوقت في أعلى الرسالة على أنه ٦,٢٠، والساعة التي وقعت توقفت عند الساعة ٦,٢٢، وهذا ما كنا -أنا ولين- محتارَيْن بشأنه نضرب أخماساً في أسداس.

ثم شرحتُ عادتنا في إبقاء الساعة متقدمة ربع ساعة عن الزمن الحقيقي، فقالت الآنسة ماربل: أمر غريب جداً. إنه حقاً أمر غريب. ولكن الرسالة ما تزال بالنسبة لي أكثر غرابة. أعني...

توقفت والتفتت. كانت ليتيس بروثيرو تقف خارج الباب الزجاجي. دخلت وهي تومئ برأسها وتقول: صباح الخير. ثم ألقت بنفسها على كرسي وقالت بحيوية أكثر من المعتاد: سمعت أنهم اعتقلوا لورنس.

قالت غريزلدا: نعم، كانت تلك صدمة كبيرة لنا.

قالت ليتيس: ما كنت أظن حقاً أن من شأن أحد أن يقتل أبي.

بدا واضحاً أنها تتباهى بعدم سماحها لأي مظهر من مظاهر

الحزن أو العاطفة أن يظهر عليها. أكملت تقول: رغم أنني واثقة أن الكثيرين أرادوا قتله... بل لقد مرّت أوقات انتابتني فيها أنا شخصياً مثل هذه الرغبة.

سألتها غريزلدا: هل تأكلين أو تشربين شيئاً يا ليتيس؟

- لا، شكراً. لقد مررت لأرى إن كانت قبعتي عندكم هنا. إنها قبعة صغيرة صفراء غريبة الشكل. أظنني تركتها في المكتب بالأمس.

- إن كنتِ تركتِها فهي ما تزال هناك؛ فماري لا ترتب شيئاً.

قالت ليتيس وهي تنهض: سأذهب لأرى. آسفة لإزعاجكم، ولكن يبدو أنني أضعت كل قبعاتي.

تدخلتُ قائلاً: أخشى أن لا يكون بوسعك أخذها الآن؛ فقد أقفل المفتش سلاك الغرفة.

- آه، يا للإزعاج! ألا نستطيع الدخول من الباب الزجاجي؟

- لا أظن ذلك. لقد أُقفل من الداخل، ولكن من المؤكد -يا ليتيس- أن قبعة صفراء لن تكون مناسبة في الوقت الحاضر.

- أتعني الحداد وما إلى ذلك؟ لن أهتم للحداد؛ فأنا أراه فكرة قديمة جداً. ولكن أمر لورنس مزعج... نعم، إنه مزعج.

نهضت ووقفت عابسة شاردة الذهن، ثم قالت: أحسب أن كل ذلك كان بسببي وبسبب ملابس سباحتي. الأمر كله سخيف جداً.

فتحت غريزلدا فمها كمن يريد الكلام، ولكنها عادت وأغلقته لسبب غير معروف. ارتسمت ابتسامة غريبة على وجه ليتيس وقالت: أظنني سأذهب إلى البيت وأخبر آن بنبأ إلقاء القبض على لورنس. ثم خرجت من الباب الزجاجي مرة أخرى، فالتفتت غريزلدا إلى الآنسة ماربل وقالت: لماذا دُستِ على قدمي؟

ابتسمت العجوز وقالت: ظننتك تريدين قول شيء يا عزيزتي، وغالباً ما يكون من الأفضل كثيراً ترك الأمور تتطور من تلقاء نفسها. لا أحسب أبداً أن هذه الفتاة مشوشة تفتقر إلى الدقة كما تتظاهر. إن في رأسها فكرة محددة تماماً، وهي تمثل لإخفائها.

طرقت ماري بشدة على باب غرفة الطعام ثم دخلت مباشرة، فقالت غريزلدا: ما الأمر؟ ينبغي أن تتذكري يا ماري أن لا تطرقي الأبواب بهذا الشكل، ألم أوصِك بذلك من قبل؟

قالت ماري: ظننت أنكم ربما كنتم منشغلين. الكولونيل ميلتشيت موجود هنا ويريد رؤية سيدي.

الكولونيل ميلتشيت هو رئيس الشرطة في مقاطعتنا. ولذا فقد نهضتُ فوراً، ومضت ماري قائلة: حسبت أنكم لن ترغبوا في أن أتركه في الصالة، ولذلك أدخلته غرفة الجلوس. هل أنظف المائدة؟

- لا، ليس بعد. سأقرع لك الجرس عندما ننتهي.

ثم التفتت إلى الآنسة ماربل فيما غادرتُ أنا الغرفة.

* * *

الفصل السابع

الكولونيل ميلتشيت رجل ضئيل الجسم رشيق الحركة من عادته أن يُصدر شخيراً مفاجئاً على غير توقع. وهو ذو شعر أحمر وعينين زرقاوين لامعتين لا تنقصهما الحدة. بادرني قائلاً: صباح الخير أيها الكاهن. عملية قذرة، أليس كذلك؟ مسكين ذلك الرجل. وهذا لا يعني أنني كنت أحبه؛ فأنا لم أحبه، بل إن أحداً لم يحبه. وهو أمر محرج قذر بالنسبة لك أيضاً. أرجو أن لا يكون قد أزعج زوجتك.

قلت له إن غريزلدا واجهت الموقف بشكل جيد، فقال: هذا من حسن حظك. من الفظيع أن يحدث مثل هذا الأمر في بيت المرء. لقد دهشت لذلك الشاب ريدنغ... ولإقدامه على ذلك بهذا الشكل، دون أي احترام لمشاعر أحد.

انتابتني رغبة جامحة بالضحك، ولكن بدا أن الكولونيل لا يرى غرابة في توقّع أن يحترم قاتل مشاعر الآخرين، ولذلك أمسكت زمام نفسي. قال الكولونيل وهو يلقي بنفسه على أحد الكراسي: لقد فوجئت عندما سمعت أن الرجل تقدم وسلّم نفسه.

- كيف حدث ذلك بالضبط؟

- ليلة أمس، في نحو العاشرة ليلاً. دخل الرجل وألقى بمسدس وقال: "ها أنذا. أنا فعلتها". بهذه البساطة.

- ما السبب الذي بسطه لتصرفه؟

- أقلّ القليل. لقد نبهوه طبعاً بشأن حقه في الاحتفاظ بأقواله، ولكنه اكتفى بالضحك. قال إنه جاء إلى هذا المكان لرؤيتك، ووجد بروثيرو، فتبادلا كلمات ثم أطلق عليه النار. رفض التصريح بسبب المشاجرة. اسمعني يا كليمنت... الأمر بيني وبينك فقط، هل تعلم شيئاً عن الأمر؟ لقد سمعت إشاعات حول منعه من دخول البيت وغير ذلك. فما الأمر؟ هل قام بإغواء الفتاة أم ماذا؟ لا نريد إقحام اسم البنت في الأمر قدر استطاعتنا، وذلك لمصلحة الجميع. أكانت تلك هي المشكلة؟

- لا، بوسعي أن أؤكد لك أن السبب كان شيئاً آخر تماماً، ولكني لا أستطيع قول المزيد في هذه المرحلة.

أومأ برأسه ونهض قائلاً: يسعدني سماع ذلك. تدور الكثير من الشائعات... وما أكثر النساء في هذه المنطقة! إنني آسف لما حصل لريدنغ؛ لقد رأيت فيه دوماً شاباً مؤدباً، وربما التمسوا له دفاعاً يخفف عقوبته، كمرض نفسي أو غير ذلك، خاصة إذا لم يظهر دافع مناسب للجريمة. حسناً، علي أن أذهب لرؤية هيدوك. لقد تم استدعاؤه لمعاينة مريضٍ ما، ولكنه عاد الآن بلا ريب. هل تأتي معي؟

قلت إنني أود ذلك كثيراً، وخرجنا معاً.

بيت الدكتور هيدوك ملاصق لبيتي. قال خادمه إن الطبيب قد وصل لتوه، وقادنا إلى غرفة الطعام حيث كان هيدوك جالساً وأمامه طبق ساخن من البيض واللحم. حياني بإيماءة ودية وقال: أنا آسف لاضطراري للخروج... كانت حالة ولادة. لقد بقيت سهران أغلب الليل بقضيتكم، وقد أخرجت الرصاصة.

ثم دفع عبر الطاولة علبة صغيرة أخذ ميلتشيت يتفحصها.

- من عيار ٢٥؟

أومأ هيدوك برأسه بالإيجاب وقال: سأُبقي التفصيلات الفنية لجلسة التحقيق. كل ما يهمك معرفته هو أن الوفاة حدثت بشكل فوري عملياً. ذلك الأحمق المغفل... ما الذي دفعه للقيام بذلك؟ المدهش -بالمناسبة- أن أحداً لم يسمع الطلقة.

قال ميلتشيت: نعم، هذا ما يدهشني.

قلت: إن نافذة المطبخ مطلة على الجانب الآخر من البيت، ومع وجود أبواب المكتب وغرفة الأواني والمطبخ مغلقة كلها فإنني أشك في إمكانية سماع شيء، كما أن أحداً لم يكن في البيت إلاّ الخادمة.

قال ميلتشيت: هممم. الأمر غريب مع ذلك. أعجب أن تلك العجوز لم تسمعها، ما هو اسمها، ماربل؟ فقد كانت نافذة المكتب مفتوحة.

قال هيدوك: ربما سمعتها.

قلت: لا أظنها سمعتها. فقد كانت عندنا الآن، ولم تذكر شيئاً

من ذلك، وهو ما كانت ستفعله -بالتأكيد- لو كان لديها ما تقوله.

- ربما سمعت الطلقة ولم تلقِ لها بالاً... أو حسبتها سيارة تطلق أصوات اختناق المحرك.

أثار انتباهي أن هيدوك كان يبدو أكثر ابتهاجاً هذا الصباح. بدا كرجل يحاول كبح مرح غامر ينتابه، وأضاف قائلاً: أو ماذا عن احتمال وجود كاتم صوت؟ هذا محتمل تماماً، وعندها لن يسمع أحد شيئاً.

هز ميلتشيت رأسه بالنفي وقال: لم يجد سلاك شيئاً من ذلك، وقد سأل ريدنغ، وبدا أن ريدنغ لم يعرف في البداية عما يتكلم المفتش، ثم أنكر تماماً استخدام شيء من هذا القبيل، وأظن أن بوسع المرء تصديقه في ذلك.

- نعم، هذا صحيح، يا له من بائس مسكين.

قال الكولونيل ميلتشيت: بل تباً له من شاب مغفل. إنني آسف يا كليمنت، ولكنه حقاً كذلك. لا يكاد المرء يستطيع النظر إليه كقاتل.

سأل هيدوك وهو يرتشف آخر رشفة من قهوته ويعود بكرسيه إلى الوراء: أوجدتم أية دوافع؟

- قال إنهما تشاجرا ففقد أعصابه وأطلق عليه النار.

هز الطبيب رأسه وقال: يأمل بذلك أن تُعتبر القضية قتلاً دون سابق تصميم، أليس كذلك؟ إنها قصة لا تصمد أمام الحقائق. لقد

تسلل خلفه وهو يكتب وأطلق النار على رأسه. ليس في الأمر أي شجار.

قلت وأنا أتذكر كلمات الآنسة ماربل: لم يكن الوقت كافياً للشجار على أية حال. إن التسلل وقتل الرجل ثم إعادة عقارب الساعة والمغادرة ثانية من شأنها جميعاً أن تأخذ كل وقته. لن أنسى أبداً وجهه عندما قابلته خارج البوابة، ولا طريقته عندما قال: "أوَسوف ترى بروثيرو؟ نعم، سترى بروثيرو دون شك!". إن ذلك -وحده- كان ينبغي أن يثير شكوكي إزاء ما حدث قبل دقائق قليلة من ذلك.

نظر هيدوك إليّ وقال: ما الذي تعنيه بقولك «ما حدث قبل دقائق»... متى تظن ريدنغ أطلق عليه النار؟

- قبل عدة دقائق من وصولي إلى البيت.

- مستحيل، مستحيل تماماً. لقد كان ميتاً قبل ذلك بكثير.

صاح الكولونيل ميلتشيت: ولكن يا صديقي، أنت نفسك قلت إن نصف الساعة ليس إلاّ تقديراً تقريبياً.

- نعم، يمكن أن تكون نصف ساعة أو أكثر أو أقل بخمس دقائق. إنها عشرون دقيقة في حدها الأدنى، أما أقل من ذلك فلا، وإلاّ لكان جسم القتيل دافئاً عندما وصلتُ هناك.

حدقنا كلٌّ إلى الآخر. كان وجه هيدوك قد تغير فأصبح -فجأة- مكتئباً مُسناً، وقد تعجبت لهذا التغير فيه. قال الكولونيل بعد أن وجد صوته: ولكن اسمعني يا هيدوك، إن كان ريدنغ يعترف بأنه أطلق عليه النار في السابعة إلاّ ربعاً...

انتفض هيدوك واقفاً وزمجر قائلاً: أقول لك إن ذلك مستحيل. إن كان ريدنغ يقول إنه قتل بروثيرو في السابعة إلاّ ربعاً فإنه يكذب. ما بالك يا رجل؟ إنني أقول ما أقوله وأنا طبيب وأعرف عملي. كان الدم قد بدأ بالتخثر.

بدأ ميلتشيت يقول: إن كان ريدنغ يكذب...

ثم توقف وهزّ رأسه وقال: الأفضل أن نذهب لنراه.

* * *

الفصل الثامن

أمضينا الطريق إلى مركز الشرطة صامتين تقريباً، إلا أن هيدوك تراجع قليلاً إلى الخلف وهمس في أذني: أتعلم أنني غير مرتاح لهذا الأمر... غير مرتاح أبداً! في هذا الأمر شيء لا نفهمه.

بدا في غاية القلق والانزعاج. كان المفتش سلاك في المركز، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام لورنس ريدنغ.

بدا الشاب شاحباً مرهقاً ولكن رابط الجأش... بل رأيت أنه كان رابط الجأش إلى حدٍّ يثير الإعجاب إذا ما أخذ المرء موقفه بعين الاعتبار. شخر ميلتشيت وتنحنح فيما بدا واضحاً أنه يحس بالعصبية، ثم قال: اسمعني يا ريدنغ. لقد فهمتُ أنك أدليت بأقوال للمفتش سلاك. قلتَ إنك ذهبت إلى بيت الكاهن في نحو السابعة إلاّ ربعاً، ووجدت بروثيرو هناك فتشاجرت معه وأطلقت عليه النار وخرجت. أنا لا أعيد قراءة أقوالك عليك، ولكن هذا هو فحواها.

- نعم.

- سأسألك بعض الأسئلة: لقد سبق وقيل لك إنك لست مضطراً للإجابة إلاّ إذا اخترت أنت ذلك. إن محاميك...

قاطعه لورنس قائلاً: ليس لديّ ما أخفيه... لقد قتلت بروثيرو.

شخر ميلتشيت وقال: آه! حسناً... ولكن كيف صدف وكنت تحمل مسدساً معك؟

تردد لورنس قليلاً وقال: كان في جيبي.

- وأخذته معك إلى بيت الكاهن؟

- نعم.

- لماذا؟

- إنني أحمله دائماً.

تردد ثانية قبل أن يجيب، وكنت متأكداً تماماً بأنه كان يكذب.

- لماذا أرجعت عقارب الساعة إلى الوراء؟

- الساعة؟

بدا متحيراً، فقال الكولونيل: نعم، كانت العقارب تشير إلى الساعة ٦,٢٢.

قفزت نظرة رعب إلى عينيه ثم قال: الساعة؟ نعم، أنا بدلتها.

تكلم هيدوك فجأة: أين أطلقت النار على الكولونيل بروثيرو؟

- في المكتب في بيت الكاهن.

- أعني: في أي جزء من جسمه؟

- آه! إنني... في رأسه كما أظن. نعم، في رأسه.

- ألست متأكداً؟

- بما أنكم تعرفون فلا أرى ضرورة لأن تسألوني.

كانت عبارته تلك تبجحاً ضعيفاً غير مقنع. سُمعت جلبة في الخارج، ثم دخل شرطيٌّ حاسر الرأس حاملاً رسالة معه وقال: إنها للكاهن، ومكتوب عليها أنها عاجلة جداً. أخذتها ففتحتها وقرأت:

رجاء، رجاء... تفضل بزيارتي. لا أدري ماذا أفعل. الأمر فظيع جداً، أريد أن أخبر أحداً. أرجوك أن تأتي في الحال، وأحضرْ معك من تشاء.

آن بروثيرو

نظرت إلى الكولونيل نظرة ذات مغزى، ففهم الإشارة وخرجنا جميعاً معاً. نظرت خلفي ونحن نخرج فلمحت وجه لورنس ريدنغ. كانت عيناه مسمَّرتين على الورقة في يدي، ولعلّي لم أرَ أبداً -على وجه أي إنسان من قبل- مثل هذه النظرة الفظيعة من الألم واليأس.

تذكرت جلوس آن بروثيرو على الأريكة في مكتبي وقولها: «إنني امرأة يائسة»، وشعرت بقلبي يغدو أثقلَ هماً. لقد فهمت الآن السبب في إقدام لورنس ريدنغ على ذلك الاتهام البطولي للذات. كان ميلتشيت يتحدث إلى المفتش سلاك قائلاً: هل أجريتم أية تحقيقات عن تحركات ريدنغ في وقت سابق من ذلك اليوم؟ لدينا ما يدعو إلى الظن بأنه أطلق النار على بروثيرو في وقت أبكر مما يدّعي. ابحث لي في ذلك من فضلك.

ثم التفت إلي فسلمته رسالة آن بروثيرو دون أن أنبس بكلمة. قرأها وزمّ شفتيه تعجباً ثم نظر إليّ متسائلاً: أهذا ما كنت تلمّح إليه صباح اليوم؟

- نعم. لم أكن واثقاً عندها إن كان من واجبي أن أتكلم، أما الآن فأنا واثق تماماً.

أخبرته بما رأيته تلك الليلة في المرسم، فتبادل الكولونيل بضع كلمات مع المفتش، ثم انطلقنا ومعنا الدكتور هيدوك إلى أولد هول.

فتح لنا البابَ كبيرُ خدمٍ دقيق التصرف، في سمته القدر المناسب تماماً من التجهم والجِدية. قال له ميلتشيت: صباح الخير. أرجو أن ترسل خادمة السيدة بروثيرو لتخبرها أننا هنا ونرغب في رؤيتها، ثم تعود أنت لتجيب على بعض الأسئلة.

هرع كبير الخدم، ثم ما لبث أن عاد ليقول إنه أرسل الرسالة. قال الكولونيل: دعنا الآن نسمع منك شيئاً عن الأمس. أكان سيدك موجوداً هنا لتناول الغداء؟

- نعم يا سيدي.

- وهل كان على طبيعته المعتادة؟

- نعم يا سيدي، وفقاً لما رأيته على الأقل.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد الغداء انصرف السيد بروثيرو إلى مكتبه فيما ذهبت السيدة زوجته لتتمدد قليلاً. وقد خرجت الآنسة ليتيس للعبة تنس في

السيارة ذات المقعدين. ثم تناول الكولونيل وزوجته الشاي في الرابعة والنصف في غرفة الجلوس، وكانت السيارة قد طُلبت لتأخذهما في الساعة الخامسة والنصف إلى القرية. وبعد أن غادرا مباشرة اتصل السيد كليمنت فأخبرته أنهما خرجا.

انحنى لي الرجل وهو يذكر اسمي، وسأله الكولونيل ميلتشيت: هممم، متى كان السيد ريدنغ هنا آخر مرة؟

- عصر يوم الثلاثاء يا سيدي.

- فهمت أن نزاعاً حصل بينهما؟

- أحسب ذلك يا سيدي، فقد أصدر لي الكولونيل أوامر بعدم السماح للسيد ريدنغ بالدخول مستقبلاً إلى البيت.

سأله الكولونيل بكل صراحة: هل حدث وسمعت -عَرَضاً- شيئاً من المشاجرة؟

- إن للكولونيل بروثيرو يا سيدي صوتاً عالياً جداً، وخاصة عندما يثيره الغضب. ولم يكن بوسعي تفادي سماع بعض الكلمات هنا وهناك.

- أكان ما سمعته كافياً لمعرفة سبب النزاع؟

- فهمت يا سيدي أن للنزاع علاقة بصورة كان السيد ريدنغ يرسمها... صورة للآنسة ليتيس.

دمدم ميلتشيت وقال: هل رأيت السيد ريدنغ عندما غادر؟

- نعم يا سيدي، أنا أخرجته.

- هل بدا غاضباً؟

-لا يا سيدي، بل بدا مسروراً بعض الشيء... إن جاز لي التعبير.

- آه! هل جاء بالأمس إلى البيت؟

- لا يا سيدي.

- أجاء أحدٌ غيره؟

- لا ، ليس بالأمس يا سيدي.

- وماذا عن أول أمس؟

- أول أمس جاء السيد دينيس كليمنت عصراً، والسيد ستون جاء لبعض الوقت، وجاءت سيدة في المساء.

دُهش الكولونيل وقال: سيدة؟.من كانت تلك السيدة؟

لم يستطع كبير الخدم تذكر اسمها. كانت سيدة لم يرها من قبل، وقد أعطت اسمها، وعندما أخبرها أن الأسرة تتناول عشاءها قالت المرأة إنها ستنتظر. وهكذا قادها إلى غرفة الجلوس الصغيرة.

كانت قد سألت عن الكولونيل بروثيرو وليس عن زوجته، وقد قام بإبلاغ الكولونيل فذهب الكولونيل إلى غرفة الجلوس بعد أن أكمل عشاءه مباشرة. وجواباً عن سؤال حول مدة بقائها هناك قال كبير الخدم إنه يظنها بقيت نحواً من نصف ساعة وإن الكولونيل نفسه

هو الذي كان في وداعها. آه! نعم، لقد تذكر الآن اسمها. فقد كانت تدعى السيدة ليسترينج.

كانت تلك مفاجأة!

قال ميلتشيت: غريب، أمر غريب فعلاً!

ولكننا لم نتابع الموضوع أكثر من ذلك، ففي تلك اللحظة جاء من يقول إن السيدة بروثيرو جاهزة لرؤيتنا.

كانت آن في السرير، وكان وجهها شاحباً وعيناها تلمعان بشدة، وعلى وجهها ارتسمت نظرةٌ حيرتني، نظرة أشبه بالتصميم العنيد. وجهت كلامها إليّ قائلة: شكراً على قدومك بمثل هذه السرعة. أرى أنك فهمت ما قصدتُه بقولي: "أحضر معك من تشاء".

سكتت قليلاً ثم قالت: من الأفضل الانتهاء من الموضوع بسرعة، أليس كذلك؟ وابتسمَت ابتسامة غريبة تثير الشفقة وقالت: أحسب أنك أنت من ينبغي التكلم معه يا كولونيل ميلتشيت... أريد أن أقول لك إنني أنا التي قتلتُ زوجي.

قال الكولونيل ميلتشيت بلطف: يا سيدتي العزيزة...

- آه! هذا صحيح تماماً. أحسب أنني قلت ذلك بشكل فجّ مفاجئ، ولكني لست ممن ينهارون ويفقدون أعصابهم تجاه أي شيء. لقد كرهته منذ زمن طويل، وبالأمس قتلته.

أسندتْ ظهرها إلى الوسادة وأغمضت عينيها وقالت: هذا

كل شيء. أحسب أنكم ستعتقلونني وتأخذونني بعيداً.سوف أنهض وأرتدي ملابسي حالما أستطيع؛ فأنا أشعر بشيء من الإعياء الآن.

- أتدركين يا سيدة بروثيرو بأن السيد لورنس ريدنغ قد اعترف أساساً بارتكابه للجريمة؟

فتحت آن عينيها وأومأت برأسها قائلة: أعرف.. يا له من فتى سخيف. ذلك أنه يحبني كثيراً. كان ذلك موقفاً بالغ الشهامة منه... وبالغ السخف أيضاً.

- أكان يعرف أنكِ أنتِ من ارتكب الجريمة؟

ـ نعم.

- كيف عرف؟

ترددت قليلاً فسألها الكولونيل: أأنت أخبرتِه؟

بقيت مترددة أيضاً، وأخيراً بدا أنها حزمت أمرها فقالت: نعم.. أنا أخبرته.

تحرك كتفاها بشكل يدل على الانزعاج، ثم قالت: ألا تذهبون الآن؟ لقد أخبرتكم، ولا أريد الحديث في الموضوع أكثر من ذلك.

- من أين حصلت على المسدس يا سيدة بروثيرو؟

- المسدس! آه، كان مسدس زوجي. أخذته من درج خزانته.

- فهمت. وهل أخذتِه معك إلى بيت الكاهن؟

- نعم. كنت أعرف أنه سيكون هناك.

- في أية ساعة كان ذلك؟

- لا بد أن ذلك كان بعد السادسة. السادسة والربع أو الثلث... نحواً من ذلك.

- أخذتِ المسدس وفي نيتك قتل زوجك؟

- لا، لقد... لقد قصدت بذلك نفسي.

- فهمت. ولكنك ذهبت إلى بيت الكاهن؟

- نعم؛ ذهبت مباشرة إلى الباب الزجاجي. لم أسمع أي أصوات، ونظرت إلى الداخل فرأيت زوجي. وانتابني شيء ما... فأطلقت النار.

- وبعدها؟

- بعدها؟ آه، بعدها خرجت.

- وأخبرتِ السيد ريدنغ بما فعلتِه؟

مرة أخرى لاحظتُ التردد في صوتها قبل أن تقول: نعم.

- هل شاهدك أحد تدخلين بيت الكاهن أو تغادرينه؟

- لا... أو في الحقيقة: نعم. الآنسة العجوز ماربل. تحدثت معها لحظات، وقد كانت في حديقتها.

تحركت متململةً على الوسادة ثم قالت: ألا يكفي هذا؟ لقد أخبرتكم. لماذا تريدون المضي في إزعاجي؟

اقترب منها الدكتور هيدوك وفحص نبضها ثم قال لميلتشيت هامساً: سأبقى معها بينما تقوم أنت بالترتيبات اللازمة. ينبغي عدم تركها؛ فقد تفعل شيئاً بنفسها.

أومأ ميلتشيت موافقاً، وغادرنا الغرفة نزولاً على الدرج. رأيت رجلاً نحيلاً شاحباً شحوب الجثث يخرج من غرفة مجاورة، وبسرعة عدت لصعود الدرج وسألته: أأنت الخادم الخاص للكولونيل بروثيرو؟

بدا الرجل مدهوشاً وقال: نعم يا سيدي.

- أتعلم إن كان سيدك السابق يحتفظ بمسدس في أي مكان؟

- لا أعرف -شخصياً- عن وجود مسدس لديه.

- ألم يكن واحد في درج خزانته؟ تذكّر يا رجل.

هزّ الخادم رأسه جازماً وقال: أنا واثق جداً من أنه لم يحتفظ بمسدس يا سيدي، ولو كان الأمر كذلك لرأيته عنده. هذا مؤكد.

هرعت نازلاً الدرج خلف الآخرين.

لقد كذبت السيدة بروثيرو بشأن المسدس. لماذا؟

* * *

الفصل التاسع

ترك الكولونيل ميلتشيت رسالة في مركز الشرطة، ثم أعلن عن نيته في زيارة الآنسة ماربل قائلاً: الأفضل أن تأتي معي أيها الكاهن. لا أريد إثارة ذعر أحد من أتباعك؛ ولذلك أرجو أن تعيرني حضورك الذي يبعث على الاطمئنان.

ابتسمت لقوله؛ إذ أن الآنسة ماربل -رغم مظهرها الهش الضعيف- قادرة على التعامل مع أي شرطي أو رئيس شرطة في العالم. سألني الكولونيل ونحن نقرع جرس الباب: كيف هي هذه المرأة؟ أيمكن الاعتماد على أقوالها أم لا؟

فكرت في ذلك ثم قلت محذّراً: أظن أن بالإمكان تماماً الاعتماد عليها، وذلك طالما أنها تتحدث عن شيء رأته فعلاً. أما فيما عدا ذلك، وعندما يصل الأمر إلى ما تظنه وتخمنه فتلك قضية أخرى تماماً. إن لها خيالاً قوياً، وهي تظن الأسوأ في الجميع دون استثناء.

قال ميلتشيت ضاحكاً: هي -إذن- النموذج التقليدي للعجوز العانس. حسناً، كان عليّ أن أعرف طبائع هذا النمط، حيث التسكع اللاهي وحفلات شرب الشاي في هذه المنطقة.

أدخلتنا خادمة ضئيلة الجسم وقادتنا إلى غرفة جلوس صغيرة. قال الكولونيل وهو ينظر حوله: غرفةٌ مزدحمة بالأثاث، ولكنه من نوعية جيدة. واضح أنها غرفة سيدة، أليس كذلك يا كليمنت؟

وافقته، وفي تلك اللحظة فُتح الباب وظهرت الآنسة ماربل، وحين قدمتُ إليها الكولونيل قال: "إننا آسفان جداً لإزعاجك يا آنسة ماربل". قال ذلك بأسلوبه العسكري الزائف الذي ظن أنه يروق للسيدات العجائز، ثم أضاف: "عليّ القيام بواجبي كما تعلمين".

قالت الآنسة ماربل: طبعاً، طبعاً... أفهم ذلك تماماً. هل لي أن آتيكم بشراب؟ إن لديّ عصيراً من صنعي، من وصفةٍ وضعتها جدتي.

- شكراً جزيلاً لك يا آنسة ماربل. هذا لطفك منك، ولكن لا أظن أنني سأشرب شيئاً؛ إن شعاري هو عدم تناول شيءٍ حتى ساعة الغداء. والآن أريد الحديث معك حول تلك القضية المؤسفة التي أزعجتنا جميعاً. من الممكن أن تكوني قادرةً -بحكم موقع بيتك- على أن تخبرينا شيئاً نريد معرفته حول مساء أمس.

- الحقيقة أنني كنت فعلاً في حديقتي الصغيرة ابتداءً من الساعة الخامسة مساء أمس. ومن ذلك الموقع هناك، لا يستطيع المرء عملياً إلاّ أن يرى ما يحدث في البيت المجاور.

- فهمتُ يا آنسة ماربل أن السيدة بروثيرو قد عبرت من هنا مساء أمس.

- نعم، لقد عبرت فعلاً. وقد ناديتها وأعربَتْ هي عن إعجابها بورود حديقتي.

- أيمكنك أن تحددي لنا متى كان ذلك بالضبط؟

- أظنه كان بعد دقيقة أو دقيقتين من الساعة السادسة والربع. نعم، هذا صحيح؛ فساعة الكنيسة كانت قد دقّت لتوها معلنةً السادسة والربع.

- جيد جداً. ما الذي حدث بعد ذلك؟

- لقد قالت السيدة بروثيرو إنها آتية لرؤية زوجها في بيت الكاهن بحيث يعودا معاً إلى بيتهما. كانت قد أتت عبر الممشى، ثم دخلت بيت الكاهن من البوابة الخلفية ثم عبر الحديقة.

- أتت عبر الممشى؟

قالت الآنسة ماربل: "نعم، سأريك كيف"، ثم قادتنا -وهي شديدة اللهفة- إلى الحديقة، وأشارت إلى الممشى الذي يسير بمحاذاة حديقتها من الخلف وشرحت قائلة: ذلك الطريق ذو الدّرَج الصغير مقابلنا يفضي إلى منزل أولد هول. كان ذلك هو الطريق الذي سيسلكانه إلى بيتهما معاً، وقد أتت السيدة بروثيرو من القرية.

- تماماً، تماماً. وتقولين إنها عبرت إلى بيت الكاهن؟

- نعم، رأيتها تنعطف عند زاوية البيت. أظن أن الكولونيل لم يكن قد وصل بعد؛ لأنها عادت على الفور تقريباً، وعبرت المرجة الخضراء إلى المرسَم... ذلك المبنى الصغير هناك الذي سمح الكاهن للسيد ريدنغ باستخدامه مرسماً.

- فهمت. وأنت... ألم تسمعي صوت طلقة يا آنسة ماربل؟

- لم أسمع صوت طلقة وقتها.

- ولكنك سمعت طلقة في وقت ما؟

- نعم، أظن أنّ طلقةً قد أُطلقت في مكان ما في الغابة، ولكن ذلك لم يحدث إلاّ بعد خمس دقائق أو عشر، وهناك في الغابة كما أشرت. هذا على الأقل ما أراه، إذ لا يمكن أن تكون... لا يمكن بالتأكيد أن تكون الطلقة...

سكتت وقد شحب لونها انفعالاً، فقال الكولونيل: نعم، نعم، سنأتي إلى كل ذلك بعد قليل. أكملي قصتك رجاء... ذهبت السيدة بروثيرو إلى المرسم؟

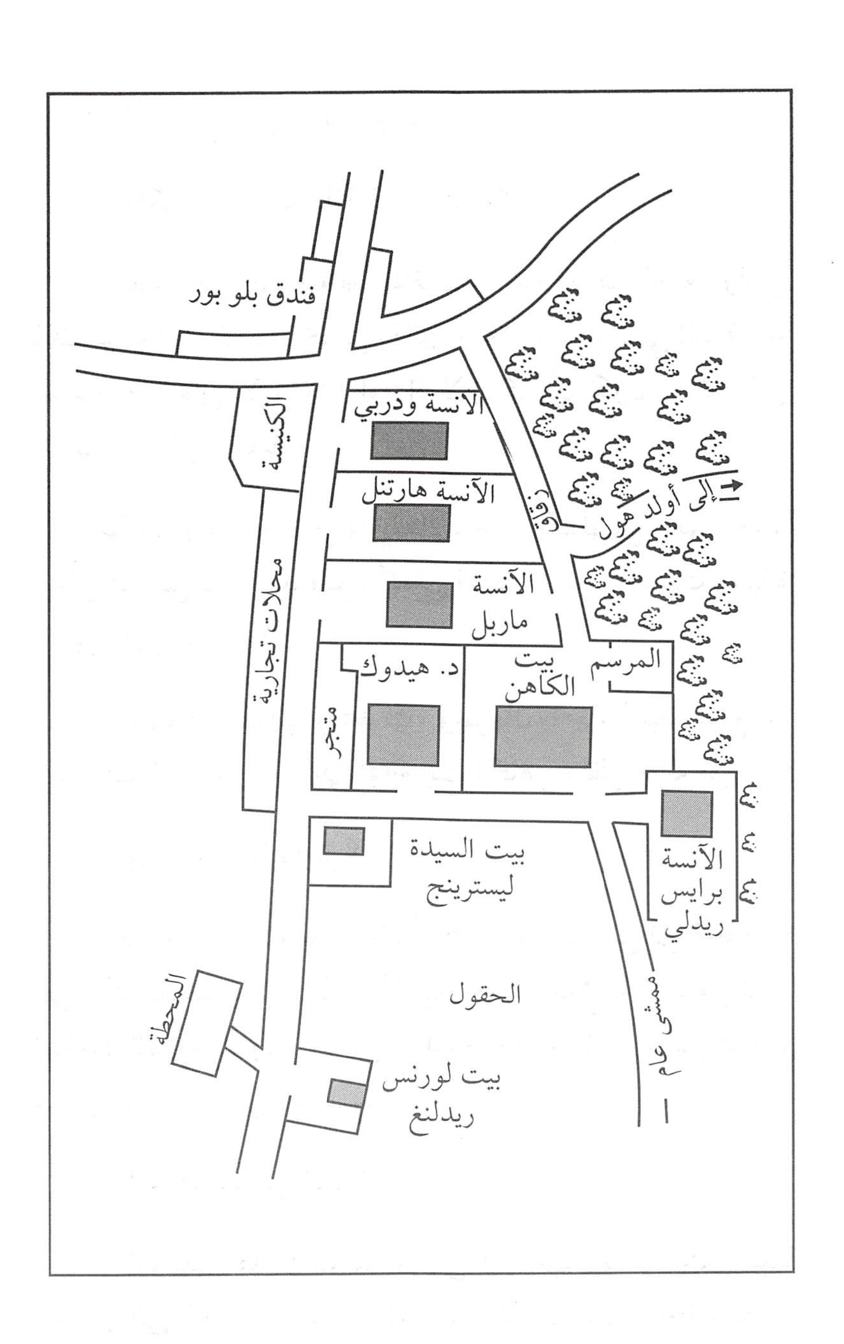
- نعم، دخلتْ إليه وانتظرتْ، وسرعان ما جاء السيد ريدنغ من القرية عبر الممشى. جاء إلى بوابة بيت الكاهن ونظر حوله ملياً...

- ورآكِ يا آنسة ماربل؟

احمرّ وجه الآنسة ماربل قليلاً وقالت: هو لم يرني في الحقيقة؛ ففي تلك اللحظة بالذات كنت أنكبّ محاوِلةً اقتلاع واحدة من تلك النباتات المؤذية القوية... وهي عملية صعبة تماماً. ثم دخل الشاب من البوابة ومشى إلى المرسم.

- ألم يقترب من البيت؟

- آه، نعم. لقد ذهب مباشرة إلى المرسم، وقد جاءت السيدة بروثيرو إلى الباب لاستقباله، ثم دخل الاثنان إلى الداخل. كانت ساعة الكنيسة قد دقت معلنةً السادسة والنصف. خرجا من خلال


فندق بلو بور
الكنيسة
الآنسة وذربي
الآنسة هارتنل
زقاق
إلى أولد هول
الآنسة
ماربل
محلات تجارية
د. هيدوك
متجر
بيت
الكاهن
المرسم
بيت السيدة
ليسترينج
الآنسة
برايس
ريدلي
الحقول
ممشى عام
المحطة
بيت لورنس
ريدلنغ

بوابة الحديقة ثم عبر الممشى، وفي تلك اللحظة بالذات جاء الدكتور ستون من الطريق المفضي إلى منزل أولد هول، فصعد ذلك الدرج الصغير وانضمّ إليهما، ومشى الجميع باتجاه القرية معاً. وفي نهاية الممشى انضمت إليهم الآنسة كرام.

- لا بد أن لك نظراً قوياً ثاقباً يا آنسة ماربل إن كنت تميزين الأشخاص من هذا البعد.

- كنت أراقب عصفوراً. أحسبه كان عصفور الصّعْو ذا العرف الذهبي. إنه طائر جميل جداً، وكنت قد أخرجت منظاري المكبر، وهذا ما جعلني أرى -بالصدفة- الآنسة كرام تنضم إليهم (إن كانت هي الآنسة كرام، وهو ما أظنه).

- آه! حسناً، ربما كان الأمر كذلك. والآن، طالما أنك بارعة في الملاحظة إلى هذا الحد، فهل صدف ولاحظتِ يا آنسة ماربل ما هو نوع التعبير الذي بدا على السيدة بروثيرو والسيد ريدنغ وهما يمران في ذلك الممشى؟

- كانا يبتسمان ويتحدثان، وبدا الاثنان في غاية السعادة لوجودهما معاً إن كنت تعرف ما أعنيه.

- هل ظهر عليهما أي انزعاج أو قلق من أي نوع؟

- آه، لا. على العكس تماماً.

قال الكولونيل: غريب جداً، أرى في هذه المشكلة أمراً بالغ الغرابة.

وما لبثت الآنسة ماربل أن أذهلتنا إذ سألت بصوت هادئ: أتقول السيدة بروثيرو الآن إنها هي التي ارتكبت الجريمة؟

قال الكولونيل: يا إلهي، كيف حزرت ذلك يا آنسة ماربل؟

- لقد ظننت أن ذلك قد يحدث، وأظن أن العزيزة ليتيس قد حسبت ذلك هي الأخرى. إنها حقاً فتاة شديدة الذكاء، وأخشى أنها ليست دوماً شديدة الورع. إذن فإن آن بروثيرو تقول إنها قتلت زوجها. حسناً، أنا لا أرى ذلك صحيحاً. كلا، بل أكاد أكون واثقة بأنه غير صحيح. ليس مع امرأة مثل آن بروثيرو... رغم أن المرء لا يستطيع الجزم تماماً بشأن أي إنسان، أليس كذلك؟ هذا على الأقل ما وجدته في هذه الحياة. متى تقول إنها أطلقت عليه النار؟

- في السادسة والثلث، بعد حديثها معك مباشرة.

هزت الآنسة ماربل رأسها ببطء وإشفاق. أما الإشفاق فكان على هذين الرجلين الراشدين اللذين بلغت بهما الحماقة أن يصدّقا مثل هذه القصة. هذا على الأقل ما شعرنا به!

- بماذا أطلقت عليه النار؟

- بمسدس.

- وأين وجدت المسدس؟

- أحضرته معها.

قالت الآنسة ماربل بحزم مفاجئ: هذا شيء لم تفعله. بوسعي أن أقسم على ذلك... لم يكن معها شيء من ذلك.

- ربما لم تريه أنت.

- كان من شأني أن أراه بالطبع.

- وإن كان في حقيبة يدها؟

- لم تكن تحمل حقيبة يد.

- ربما كان مخفياً... في جسمها.

ألقت عليه الآنسة ماربل نظرة أسف وازدراء وقالت: يا عزيزي الكولونيل ميلتشيت، أنت تعرف شابات هذه الأيام. لا يستحيين من إظهار ما ينبغي ستره من أجسامهن. إنها لم تكن ترتدي من الملابس ما يسمح لها بإخفاء أي مسدس!

قال ميلتشيت بعناد: لا بد أن تعترفي بأن كل شيء يبدو منسجماً صحيحاً. الوقت والساعة الواقعة التي تشير عقاربها إلى السادسة واثنتين وعشرين دقيقة...

التفتت الآنسة ماربل إليّ وقالت: أيعني ذلك أنك لم تخبره بعد بشأن تلك الساعة؟

- ما بها الساعة يا كليمنت؟

أخبرته. وقد أبدى الكثير من الانزعاج وقال: لماذا -بالله عليك- لم تخبر سلاك بذلك ليلة أمس؟

- لأنه لم يسمح لي بذلك.

- هراء، كان عليك أن تصرّ على إبلاغه.

- ربما كان المفتش سلاك يتصرف معك بطريقة مختلفة تماماً عن طريقة تصرفه معي، إنه لم يترك لي أي مجال للإصرار.

- إنها مسألة غريبة كلها. لو تقدم شخص ثالث وادّعى أنه هو الذي نفّذ هذه الجريمة فسأذهب إلى مصحة عقلية.

تمتمت الآنسة ماربل قائلة: لو سمحت لي بالكلام...

- نعم، تفضلي.

- لو أنك أخبرت السيد ريدنغ بما فعلته السيدة بروثيرو، ثم شرحت له بأنك لا تصدق حقاً أنها هي الفاعل. ثم إذا ذهبت إلى السيدة بروثيرو وأخبرتها بأن السيد ريدنغ بريء ولا غبار عليه... عندها، عندها يمكن لكل منهما أن يذكر لك الحقيقة. والحقيقة مفيدة دوماً، رغم أنني أظن أن المسكينين لا يعلمان الكثير.

- حسناً، هذا كله ممتاز. ولكنهما الشخصان الوحيدان اللذان يتوفر لهما دافع لقتل بروثيرو.

قالت الآنسة ماربل: ما كنت أنا لأقول ذلك أيها الكولونيل!

- وهل تستطيعين التفكير بشخص ثالث؟

قالت الآنسة ماربل: "آه! نعم، بالتأكيد"، ثم راحت تعدّ على أصابعها: واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة... نعم، وسابع محتمل أيضاً. بوسعي التفكير بسبعة أشخاص على الأقل ربما أسعدهم كثيراً تنحية الكولونيل بروثيرو عن الطريق.

نظر الكولونيل إليها ذاهلاً وقال: سبعة؟ في هذه القرية؟!

أومأت الآنسة ماربل برأسها بحماسة وقالت: تذكّر أنني لا أسمي أسماء، إذ لن يكون ذلك مناسباً. ولكنني أخشى أن في هذا العالم الكثير من الشر، وإن جندياً شريفاً ممشوق القوام مثلك يا كولونيل ميلتشيت لا يعرف عن وجود مثل هذه الأمور.

وقد حسبتُ أن رئيس الشرطة لن يلبث أن يصاب بسكتة دماغية أو بأزمة قلبية!

* * *

الفصل العاشر

لدى مغادرتنا المنزل كانت ملاحظات الكولونيل عن الآنسة ماربل أبعد ما تكون عن الإطراء. قال: تلك العجوز العجفاء! تحسب أنها تعرف كل شيء، وهي التي لم تغادر -على الأغلب- هذه القرية طوال حياتها. يا لها من متبجحة دعيّة، ماذا عساها تعرف عن الحياة؟

قلت له بلطف إن الآنسة ماربل -رغم جهلها بالحياة في معانيها العامة الواسعة- تعرف عملياً كل ما يجري في سينت ميري ميد. واعترف ميلتشيت بذلك على مضض؛ فقد كانت الآنسة ماربل شاهدة مهمة جداً... وخصوصاً فيما يتعلق بموقف السيدة بروثيرو. قال الكولونيل: لا أحسب أن فيما تقوله شكاً، أليس كذلك؟

- إن قالت الآنسة ماربل إن المرأة لم تكن تحمل مسدساً فيمكنك التسليم بصحة أقوالها، ولو كان لمثل هذا الأمر أدنى احتمال لكانت الآنسة ماربل سبّاقة لاكتشافه.

- هذا صحيح. الأفضل أن نذهب ونلقي نظرة على المرسَم.

كان ما يُعرف بالمرسم مجرد سقيفة خربة ذات نافذة مثبتة في السقف. ولم تكن للسقيفة نوافذ غير تلك، وكان الباب هو وسيلة

الدخول والخروج الوحيدة. وبعد أن اقتنع الكولونيل ميلتشيت بما رآه، أعلن عن نيته زيارة بيتي مع المفتش وقال: إنني ذاهب إلى مركز الشرطة الآن.

عند دخولي البيت من الباب الرئيسي استرعت انتباهي همهمة أصوات، ففتحت باب غرفة الجلوس، ورأيت على الأريكة قرب غريزلدا الآنسة كرام وقد جلست تتحدث بحيوية.

قالت غريزلدا: أهلاً يا لين.

وتبعتها الآنسة كرام قائلة: صباح الخير يا سيد كليمنت. أليس ذلك الخبر عن الكولونيل فظيعاً؟ يا للرجل المسكين!

قالت زوجتي: جاءت الآنسة كرام لتساعدنا في منظمة كشافة الفتيات. لقد طلبنا يوم الأحد الماضي مَنْ يساعدُنا إن كنت تذكر؟

كنت أذكر، وكنت مقتنعاً أيضاً -وكذلك غريزلدا كما فهمت من لهجتها- بأن الآنسة كرام ما كانت لتقدم على تسجيل نفسها في مثل هذا النشاط أبداً لولا ذلك الحادث المثير الذي وقع في بيتنا.

مضت الآنسة كرام قائلة: كنت أقول الآن للسيدة كليمنت إنني ذهلت تماماً لسماع النبأ. قلت: ما هذا، جريمة قتل؟ وفي هذه القرية البسيطة الهادئة الصغيرة؟! لا شك أنكم توافقونني على أنها هادئة تماماً... فليس فيها حتى دار سينما، ولا حتى للأفلام الحديثة الناطقة! وبعد ذلك عندما سمعت أنه الكولونيل بروثيرو لم أستطع ببساطة تصديق ذلك. لم يكن يبدو عليه -نوعاً ما- أنه ممن يُقتلون.

قالت غريزلدا: وهكذا أتت الآنسة كرام لتعرف حقيقة الأمر.

خشيت أن يحرج هذا الكلام الصريح الآنسة كرام، ولكنها قذفت برأسها إلى الخلف وأطلقت ضحكة مدوية أظهرت فيها كل ما لديها من أسنان، ثم قالت: هذه صراحة مفرطة. أنت بالغة الذكاء يا سيدة كليمنت، أليس كذلك؟ ولكن من الطبيعي تماماً أن يرغب المرء بمعرفة تفصيلات قضية كهذه، كما أنني واثقة من استعدادي التام للمساعدة في كشافة الفتيات كما ترغبون. الأمر مثير حقاً... كنت أعيش في ركود وتوق إلى شيء من المتعة. نعم، كنت كذلك بالفعل. رغم أن وظيفتي ليست سيئة أبداً، وذات أجر مُجزٍ، والدكتور ستون سيدٌ مهذب من جميع النواحي. ولكن الفتاة ترغب دوماً بشيء من الحياة في ساعات عملها. وباستثنائك أنت يا سيدة كليمنت مَنْ من النساء يمكن التحدث إليهن في هذه القرية... إلاّ مجموعة من العجائز الثرثارات؟

قلت: ماذا عن ليتيس بروثيرو؟

ألقت غلاديس كرام رأسها إلى الخلف وقالت: إنها أعلى مقاماً ومقدرة من أمثالي. تتخيل نفسها سليلة أرستقراطيات الريف، ولن تدنّي نفسها بالالتفات إلى فتاة تعمل لكسب عيشها. رغم أنني سمعتها فعلاً تتحدث عن عملها هي شخصياً لكسب عيشها. ولكن ما يحيرني حقاً هو مَنْذا عساه يوظفها؟ لا بد أنها ستُطرد قبل مضي أسبوع، ما لم تذهب لتعمل واحدة من عارضات الأزياء أولئك، ممن يرتدين الملابس ويتخطّرن بها. أظن أن بوسعها أن تفعل ذلك.

قالت غريزلدا: إنها تصلح عارضة أزياء ممتازة. (ليس لغريزلدا أي من صفات الكيد!). تابعت تقول: متى كانت تتحدث عن كسبها لعيشها؟

بدت الآنسة كرام متململة قليلاً، ولكن سرعان ما استعادت سيطرتها على نفسها وقالت: سيكون في ذلك إفشاء لحديثها، أليس كذلك؟ ولكنها قالت ذلك فعلاً. أظن أن أمورها ليست سعيدة في المنزل. ما كنت لأعيش في بيتٍ مع زوجة أب ولو لدقيقة واحدة.

قالت غريزلدا بجدية: آه! ولكنك ذات شخصية قوية مستقلة.

ونظرتُ أنا إلى غريزلدا بارتياب. بدت الآنسة كرام مسرورة تماماً وقالت: هذا صحيح... هكذا أنا بالضبط؛ أُقاد ولا أُجَرّ. هذا ما أخبرتنيه قارئة كفٍّ قبل مدة بسيطة. لا، لست ممن يجلسون ويتقبلون تسلّط الآخرين. وقد أوضحت للدكتور ستون -منذ البداية- بأنني لا بد أن أحصل على إجازاتي المنتظمة، فهؤلاء السادة العلماء يظنون الفتاة آلة، وهم لا يلحظون وجودها معظم الوقت، ولا يكادون يتذكرونها. إنني -بالطبع- لا أعرف الكثير عن الموضوع.

- هل تجدين العمل ممتعاً مع الدكتور ستون؟ لا بد أنها وظيفة ممتعة إن كنت مهتمة بعلم الآثار؟

- لا زلت أرى أن التنقيب عن أناس ميتين توفوا منذ مئات السنين ليس بالأمر... أعني أن فيه تطفلاً، أليس كذلك؟ كما أن الدكتور ستون غارق في هذا الأمر إلى الحد الذي ينسى معه نصف وجباته لولا وجودي أنا.

سألت غريزلدا: أهو في موقع القبر هذا الصباح؟

هزت الآنسة كرام رأسها بالنفي وقالت: إنه متوعك قليلاً هذا الصباح ولا مزاج لديه للقيام بأي عمل، وهذا يعني إجازة لغلاديس.

قلت: إنني آسف لسماع ذلك.

- آه! ليست وعكة خطيرة. اطمئن؛ لن تقع حالة وفاة ثانية. ولكن أخبرني يا سيد كليمنت: سمعتُ أنك كنت مع الشرطة هذا الصباح. ما الذي يرونه؟

قلت بتأنٍّ: ما يزال لديهم شيء من... عدم اليقين.

صاحت الآنسة كرام: آه! إذن فهم لا يرون أن الفاعل هو لورنس ريدنغ في نهاية الأمر. شاب وسيم جداً، أليس كذلك؟ كأنه نجم سينمائي، وله ابتسامة فاتنة عندما يقول لك: "صباح الخير". إنني حقاً لم أصدق أذنيّ عندما سمعت أن الشرطة اعتقلوه. ومع ذلك، كنا دوماً نسمع أن شرطة الأرياف في منتهى الحماقة.

قلت لها: لا يمكن للمرء أن يلومهم في هذه الحالة بالذات؛ فالسيد ريدنغ هو الذي تقدم وسلم نفسه.

صاحت الفتاة وقد ألجمتها المفاجأة: ماذا؟ هو يفعل ذلك من بين كل الناس! لو أنني قتلت أحداً لما ذهبت وسلمت نفسي. كنت أظن أن لدى لورنس ريدنغ عقلاً أكبر من ذلك، أما أن يستسلم بهذا الشكل! لماذا قتل بروثيرو؟ هل قال شيئاً؟ أكانت مجرد مشاجرة؟

قلت لها: ليس من المؤكد قطعياً أنه هو الذي قتله.

- ولكن.. إن كان يقول إنه قام بذلك فلا شك أنه يعرف ما يقول يا سيد كليمنت.

- إنه يعرف بالتأكيد، ولكن الشرطة غير مقتنعين بروايته.

- ولكن لماذا يقول إنه ارتكبها إن لم يكن كذلك؟

كانت تلك نقطة لا أريد شرحها للآنسة كرام، ولذلك قلت بشيء من الغموض: أظن أن الشرطة يتسلمون -في كل جرائم القتل البارزة- رسائل عديدة من أناس يدّعون أنهم ارتكبوا الجريمة.

لم يتعدّ استقبال الآنسة كرام لهذه المعلومة قولها بنبرة عجب وازدراء: لا بد أنهم مجانين! ثم أضافت بعد أن تنهدت ونهضت: حسناً، أظن أن عليّ أن أذهب. سيكون اتهام السيد ريدنغ لنفسه بارتكاب الجريمة خبراً مثيراً للدكتور ستون.

سألتْها غريزلدا: أهو مهتم بالأمر؟

مسّدت الآنسة كرام حاجبيها بشيء من الحيرة وقالت: إنه شخص غريب لا يستطيع المرء أن يجزم بشأنه... غارق تماماً في الماضي. إنه يفضّل مئة مرة النظر إلى سكين برونزية أثرية قذرة من تلك الحفريات على النظر إلى السكين التي قطّع بها كريبن زوجته، إذا افترضنا أن فرصة كهذه سنحت له.

قلت: حسناً، عليّ أن أعترف أنني أتفق معه.

أظهرت عينا الآنسة كرام عدم فهم وقليلاً من الازدراء، ثم استأذنت بالانصراف وهي تكرر عبارات الوداع.

وعندما أُغلق الباب خلفها قالت غريزلدا: .ليست حقاً من ذلك النوع السيء. إنها عادية في كل شيء بالطبع، ولكنها واحدة من أولئك الفتيات الضخمات المرحات اللاتي لا يستطيع المرء أن يكرههن. إني لأعجب من السبب الحقيقي لمجيئها إلى هنا؟

- الفضول.

- نعم، أظنه ذلك. والآن يا لين، أخبرني عن كل شيء... إنني أتحرق شوقاً للسماع.

جلستُ وأعدت على مسامعها كل مجريات الصباح بصدق، وهي تقاطعني بين الفينة والفينة بعبارة تعجب أو لفظة اهتمام، وعندما أنهيت حديثي قالت: إذن فقد كانت آن هي من يسعى لورنس خلفها منذ البداية، وليس ليتيس. لَكَم كنا أغبياء! لا بد أن ذلك هو ما كانت العجوز ماربل تلمّح إليه يوم أمس. ألا ترى ذلك؟

قلت وأنا أشيح بنظري: بلى.

دخلت ماري وقالت: يوجد هنا رجلان... يقولان إنهما جاءا من إحدى الصحف. هل تريد رؤيتهما؟

- لا، لا بالتأكيد. أحيليهما إلى المفتش سلاك.

أومأت ماري برأسها والتفتت لتنصرف فقلت لها: وعندما تتخلصين منهما عودي إلى هنا؛ فأنا أريد سؤالك عن بعض الأمور.

أومأت برأسها ثانية وانصرفت، وبعد دقائق عادت لتقول: لم يكن التخلص منهما سهلاً؛ لم أرَ مثلهما إلحاحاً في حياتي!

- توقعت أن يزعجانا. والآن يا ماري، ما أريد سؤالك عنه هو التالي: أأنت متأكدة تماماً بأنك لم تسمعي صوت طلقةٍ مساء أمس؟

- أتعني الطلقة التي قتلته؟ نعم، لم أسمعها بالطبع. ولو أنني سمعتها لذهبت لأرى ماذا حدث.

كنت أتذكّر قول الآنسة ماربل إنها سمعت طلقة «في الغابة»، ولذلك غيرت طريقة سؤالي وقلت: نعم، ولكن ألم تسمعي صوت أية طلقة أخرى... طلقة في الغابة مثلاً؟

- آه! في الغابة.

سكتت الفتاة قليلاً ثم قالت: نعم، الآن وقد بدأت أفكر بالأمر، أظنني سمعت فعلاً شيئاً كهذا. لم تكن طلقات كثيرة... طلقة واحدة فقط، وكان لها دوي غريب.

- بالضبط، في أي وقت كان ذلك؟

- وقت؟

- نعم، وقت.

- لا أظنني أستطيع الجزم، ولكن أظنها كانت بعد وقت الشاي.

- ألا تستطيعين تقريب الأمر أكثر قليلاً من ذلك؟

- نعم، لا أستطيع. إن لديّ أعمالاً يجب أن أؤديها باستمرار. لا أستطيع إدامة النظر إلى الساعات طوال الوقت... وحتى ذلك لن يكون مفيداً على أية حال؛ فالمنبه يقصّر نحو ثلاثة أرباع الساعة يومياً، هذا بالإضافة إلى تصويب وضعه باستمرار، ومتابعة شؤون المنزل الأخرى، ولذلك لا أكون واثقة تماماً من الوقت أبداً.

ربما كان من شأن ذلك أن يفسر عدم تقديم وجباتنا أبداً في مواعيد ثابتة؛ فهي تُقدّم أحياناً متأخرةً كثيراً، وأحياناً تُقدّم في وقت مبكر جداً.

- أكان ذلك قبل وقت طويل من مجيء السيد ريدنغ؟

- لا، لم يكن ذلك قبل وقت طويل... عشر دقائق أو ربع ساعة لا أكثر.

أومأتُ برأسي راضياً، فقالت ماري: أهذا كل ما تريده مني؟ لقد تركت كتف الخروف في الفرن، والفطيرة نضجت على الأرجح.

- لا بأس، يمكنك الذهاب.

غادرَت الغرفة، فالتفتُّ إلى غريزلدا وقلت: من غير المجدي أبداً محاولة حمل ماري على قول «سيدي» أو «سيدتي».

- لطالما أوصيتها، ولكنها تنسى. إنها فتاة غرة لا غير!

- أدرك ذلك تماماً، ولكن الأغرار لا يبقون أغراراً بالضرورة طوال حياتهم. أظن أن شيئاً من فن الطبخ يمكن تعليمه لماري.

- أنا لا أتفق معك. أنت تعلم جيداً أننا لا نستطيع تحمّل أجور خادم، وإذا ما أعددناها وطوّرناها فإنها ستتركنا في أقرب وقت. وهو أمر طبيعي، إذ أنها ستحصل على أجور أعلى. ولكن طالما أنها لا تحسن الطبخ، وتتمتع بتلك السلوكيات الفظيعة... فنحن في أمان، لأن أحداً غيرنا لن يفكر في أخذها.

أدركت أن وسائل زوجتي في التدبير المنزلي لم تكن عشوائية كلياً كما كنت أتخيل؛ إذ يحكمها قدر معين من المنطق. أما إن كان الأمر يستحق توظيف خادمة بمثل أجرها لا تتقن الطبخ وتتقن رمي المرء بالأطباق وبالملاحظات بنفس اللامبالاة المزعجة، فتلك مسألة فيها نظر.

مضت غريزلدا قائلة: وعلى كل حال، فعليك أن تلتمس العذر لها إن كانت أخلاقها الآن بالذات أسوأ من المعتاد، فليس بوسعك أن تتوقع منها تعاطفاً إزاء موت الكولونيل بروثيرو وقد سجن صاحبها الشاب.

- أَوَسُجنَ صاحبها؟

- نعم، بسبب سرقة الطيور. ذلك المدعو آرتشر... إن ماري تخرج معه منذ سنتين.

- لم أكن أعرف ذلك.

- يا حبيبي لين، أنت لا تعرف شيئاً أبداً.

- من الغريب أن يقول الجميع إن الطلقة جاءت من الغابة.

- لا أظن ذلك غريباً أبداً. إن المرء غالباً ما يسمع أصوات الطلقات من الغابة، ولذلك فإن من الطبيعي أن يفترض المرء -عندما يسمع طلقة- أنها جاءت من الغابة. ربما بدت الطلقة أعلى قليلاً من المعتاد فقط. ولو أن المرء كان في الغرفة المجاورة لكان أدرك طبعاً أن الطلقة في المنزل، ولكن من المطبخ حيث تعمل ماري، بنافذته المطلّة على الجانب الآخر من البيت، فلا أظن أن مثل ذلك الأمر يمكن أن يخطر على بال المرء أبداً.

فُتح الباب مرة أخرى. ودخلت ماري قائلة: لقد عاد الكولونيل ميلتشيت ومعه ذلك المفتش، ويقولان إنهما سيسعدان بانضمامك إليهما، وهما في المكتبة.

* * *

الفصل الحادي عشر

أدركت من النظرة الأولى أن الكولونيل ميلتشيت والمفتش سلاك لم يكونا متفقين في نظرتهما إلى القضية؛ فقد بدا ميلتشيت محمرّ الوجه منزعجاً، وبدا المفتش عابساً مكفهراً. قال الكولونيل: يؤسفني القول إن المفتش سلاك لا يتفق معي في اعتباري الشاب ريدنغ بريئاً.

سأل سلاك بارتياب: لماذا يتقدم للاعتراف بالجريمة إن لم يكن قد ارتكبها فعلاً؟

- تذكّر يا سلاك أن السيدة بروثيرو تصرفت بالأسلوب ذاته!

- ذلك أمر مختلف. فهي امرأة، والنساء يتصرفن بمثل تلك الطريقة السخيفة. لا أظنها ارتكبت الجريمة أبداً، ولكنها سمعت بتوجيه أصبع الاتهام له فقامت باختراع قصةٍ ما. لقد اعتدتُ على مثل هذه الألعاب. ما كنتَ لِتُصدق مقدار سخافة الأشياء التي رأيتُ النساء يلجأن إليها أحياناً. ولكن ريدنغ يختلف؛ فهو ذو عقل وذكاء، وإذا ما اعترف بارتكابه للجريمة فهذا يعني أنه ارتكبها فعلاً. وفوق ذلك فالمسدس مسدسه... لا يمكنك تجاهل ذلك! وبفضل ذلك التصرف

من السيدة بروثيرو فإننا نعرف الدافع الآن. كان الدافع نقطة ضعفنا سابقاً، ولكننا نعرفه الآن. الأمر كله غدا في غاية الوضوح.

- أكان بوسعه -فيما ترى- أن يطلق عليه النار في وقت أبكر؟ في السادسة والنصف مثلاً؟

- لم يكن بوسعه القيام بذلك.

- هل راجعت كل تحركاته؟

هز المفتش رأسه بالإيجاب وقال: كان في القرية قرب فندق بلو بور في السادسة وعشر دقائق، ومن هناك جاء عبر ذلك الممشى الذي قالت العجوز إنها رأته يأتي منه (وهي عجوز لا تغفل عن شيء) ثم جاء إلى موعده مع السيدة بروثيرو في المرسم في الحديقة. وقد غادر الاثنان المرسم معاً بعد السادسة والنصف تماماً، وذهبا عبر الممشى إلى القرية بعد أن انضم إليهما الدكتور ستون. وقد أكد الدكتور ستون ذلك... فقد رأيته. وقد وقفوا جميعاً هناك يتحدثون قرب مركز البريد تماماً لبضع دقائق، ثم ذهبت السيدة بروثيرو إلى بيت الآنسة هارتنيل لاستعارة مجلة تعنى بشؤون الحدائق. وهذا كله صحيح أيضاً، فقد شاهدتُ الآنسة هارتنيل بشأنه. وقد بقيت السيدة بروثيرو هناك تتحدث معها حتى الساعة السابعة عندما هتفت متعجّبةً من تأخر الوقت وقالت إن عليها أن تعود إلى المنزل.

- كيف كان تصرفها؟

- تقول الآنسة هارتنيل إنها كانت في غاية الارتياح والبهجة. وبدت في معنويات عالية... والآنسة هارتنيل واثقة تماماً من أن شيئاً لم يكن يقلق عقل السيدة بروثيرو.

- حسناً، استمر.

- أما ريدنغ فقد ذهب هو والدكتور ستون إلى فندق بلو بور وتناولا شراباً معاً. وغادر ريدنغ الفندق في السابعة إلاّ ثلثاً، ومضى مسرعاً عبر شارع القرية، ثم في الطريق المؤدي إلى بيت الكاهن... وقد رآه الكثير من الناس.

علّق الكولونيل قائلاً: ولكن ليس عبر الممشى الخلفي هذه المرة، أليس كذلك؟

- نعم؛ لقد جاء إلى مقدمة المنزل وسأل عن الكاهن، وسمع أن الكولونيل بروثيرو كان هناك، فدخل وأطلق عليه النار كما وصف ذلك تماماً! هذه هي حقيقة الوضع ولا حاجة بنا لمزيد من التقصي.

هزّ ميلتشيت رأسه بالنفي وقال: ولكن تبقى شهادة الطبيب. ليس بوسعك تجاوز تلك الشهادة، فهو يؤكد أن قتل بروثيرو لم يكن بعد السادسة والنصف بأية حال.

أظهر المفتش سلاك ازدراءً وهو يقول: هَه! الأطباء! لا تلقِ بالاً لما يقوله الأطباء؛ فهم يوصونك هذه الأيام بخلع كل أسنانك، ثم يعربون لك عن بالغ أسفهم إذ يتبين لاحقاً أنك كنت تعاني طوال الوقت من التهاب الزائدة الدودية!

- هذه ليست مسألة تشخيص. كان الدكتور هيدوك جازماً تماماً في هذه النقطة، فلا يمكنك يا سلاك أن تعارض الدليل الطبي.

قلتُ وقد تذكّرت فجأة: ودليلي أيضاً كائناً ما كانت قيمته. فقد لمست الجثة وكانت باردةً، ويمكنني أن أقسم على ذلك.

قال ميلتشيت: أرأيت يا سلاك؟

قال سلاك: حسناً، هذا طبيعي إن كان الأمر كذلك. ولكنها كانت قضية رائعة متكاملة، وبدا السيد ريدنغ شديد الحرص على أن يُشنَق إذا جاز التعبير.

علق الكولونيل قائلاً: ذلك بحد ذاته هو ما بدا لي غيرَ طبيعي نوعاً ما.

قال سلاك: ليس للأذواق ناظم ينظمها أو وسيلة للتنبؤ بتقلباتها. كثير من الرجال أصابهم مسٌّ في عقولهم بعد الحرب. أحسب أن ما يعنيه الموقف الآن هو أن علينا أن نبدأ من الصفر ثانية. ثم التفت إليّ وقال: لا أعرف يا سيدي لماذا حاولتَ جاهداً تضليلي بشأن الساعة... كان ذلك إعاقةً لمجرى العدالة.

قلت له: لقد حاولت إبلاغك بالأمر ثلاث مرات مختلفة، وفي كل مرة كنت تخرسني وترفض الإصغاء.

- إن ذلك لا يعدو أن يكون طريقةً لي في الكلام، ولو كنتَ عازماً على إخباري لاستطعت ذلك دون شك. لقد بدا أن أمر الساعة وأمر الرسالة منسجمان تماماً معاً، وها أنت ذا تقول الآن إن الساعة كانت غير ما هي عليه تماماً. لم أصادف أبداً قضية كهذه، فما الغرض من إبقاء الساعة مُسبّقة ربع ساعة عن وقتها الفعلي؟

قلت: يُفترض أن يُبقي ذلك على دقة المواعيد.

قال الكولونيل ميلتشيت بلباقة: لا أظننا بحاجة للخوض في

هذا الأمر أكثر من ذلك. ما نريده الآن هو القصة الحقيقية من السيدة بروثيرو والسيد ريدنغ كليهما. لقد اتصلت بالدكتور هيدوك وطلبت منه إحضار السيدة بروثيرو معه إلى هنا. سيكونان هنا في غضون ربع ساعة، وأظن أن من الأفضل أيضاً أن نحضر ريدنغ أولاً.

قال المفتش سلاك وهو يرفع سماعة الهاتف: سأتصل بالمركز.

وبعدما أجرى المكالمة أعاد السماعة وقال: حسناً، سنشرع الآن بالعمل في هذه الغرفة. ثم نظر إليّ نظرة ذاتْ مغزى فقلت: ربما كنتما تريدان مني الخروج.

فتح المفتش الباب لي مباشرة، فيما نادى الكولونيل ميلتشيت وأنا أخرج: هل لك أن تعود عندما يصل الشاب ريدنغ أيها الكاهن؟ أنت صديقه، وربما كان لك من التأثير عليه ما يقنعه بقول الحقيقة.

وجدت زوجتي والآنسة ماربل تتناجيان، وعندما دخلتُ قالت زوجتي: كنا نناقش مختلف الاحتمالات. أرجو أن تحلّي هذه القضية يا آنسة ماربل، كما فعلتِ عندما اختفت سلة الآنسة وذربي من سمك الروبيان، وكان كل ذلك لأن السلة ذكّرتك بشيء مختلف تماماً أشبه بكيس من الفحم.

قالت الآنسة ماربل: أنت تضحكين يا عزيزتي، ولكن هذه طريقة سليمة تماماً في الوصول إلى الحقيقة. إنها في الواقع ما يسميه الناس حدساً ويختلفون فيه كل هذا الاختلاف. إن الحدس أشبه بقراءة كلمة دون الاضطرار إلى تهجئتها بصوت عالٍ. لا يمكن للطفل أن يقوم بذلك لأن خبرته قليلة جداً، أما الكبير فإنه يعرف الكلمة لأنه رآها مراراً من قبل. هل أدركتَ ما أعنيه أيها الكاهن.

قلت متمهلاً: نعم، أظنني أدركته. إنك تعنين أن شيئين يذكّرك أحدهما بالآخر يرجح أن يكونا من نفس المعدن أو النوع.

- بالضبط.

- وبماذا يذكرك مقتل الكولونيل بروثيرو بالضبط؟

تنهدت الآنسة ماربل وقالت: هنا مكمن الصعوبة؛ إذ تأتي لذهن المرء الكثير من القصص المشابهة. مثلاً الميجور هارغريفز، الذي كان رجلاً من رجالات الكنيسة يحظى بكل احترام. ومع ذلك فقد كان يحتفظ طوال الوقت بحياة أخرى منفصلة... أسرة سابقة له، تخيّل! وكان له خمسة أطفال، خمسة أطفال فعلاً... كانت تلك صدمة عنيفة لامرأته وابنته.

حاولتُ جاهداً تخيّل الكولونيل بروثيرو بدور «المخطئ السرّي» ولكني فشلت.

مضت الآنسة ماربل تقول: وتوجد أيضاً قصة مصبغة الملابس تلك، وذلك الدبوس المرصع بحجر كريم، حين أهملت الآنسة هارتنيل وأرسلته مع قميصها إلى المصبغة. فالمرأة التي أخذته لم تكن تريده، كما أنها لم تكن سارقة بأي شكل، بل اكتفت بإخفائه في بيت امرأة أخرى وإبلاغ الشرطة بأنها شاهدت تلك المرأة تأخذه. إنه الكيد، مجرد الكيد... والكيد دافع مدهش جداً. كان في القضية رجل بالطبع، دوماً يوجد رجل!

فشلت هذه المرة في إيجاد أي مثَلٍ موازٍ مهما كان بعيداً. ومضت الآنسة ماربل في أمثلتها: وقصة ابنة المسكين إيلويل، تلك

الفتاة الجميلة بالغة الرقة التي حاولت خنق أخيها الصغير... وقصة أموال رحلة منشدي الكنيسة (وذلك قبل عهدك أيها الكاهن) حيث وُجد أن عازف الأورغن هو الذي أخذها، وكانت زوجته غارقة في الديون. نعم، إن هذه القضية تجعل تفكير المرء يجول في العديد من الأمور... العديد جداً. من الصعب جداً الوصول إلى الحقيقة.

قلت لها: أرجو أن تخبريني من هم السبعة المشتبه بهم.

- المشتبه بهم؟

- لقد قلتِ إن بوسعك التفكير بسبعة أشخاص من شأنهم أن... أن يفرحوا بموت الكولونيل بروثيرو.

- أوقد قلتُ ذلك حقاً؟ نعم، أتذكّر قولي ذلك.

- أكان ذلك صحيحاً؟

- آه! كان صحيحاً بالطبع. ولكن لا ينبغي لي ذكر أسماء. أنا واثقة أن بوسعك أن تخمنهم بنفسك بكل سهولة إن أردت.

- أنا في الواقع لا أستطيع ذلك. أظن أنك تفكرين بليتيس بروثيرو، طالما أنها ستحصل غالباً على أموال بوفاة أبيها. ولكن من السخف التفكير في إمكانية ارتكابها مثل هذا الأمر. وفيما عداها لا أستطيع التفكير بأحد آخر.

قالت الآنسة ماربل وهي تلتفت إلى غريزلدا: وأنت يا عزيزتي؟

ولدهشتي احمرّ وجه غريزلدا وظهر في عينيها شيء أشبه بالدموع. شدت قبضتيها الاثنتين كليهما وصاحت بسخط: آه! الناس

كريهون... كريهون. يا للأشياء التي يقولونها؛ الأشياء القاسية التي يقولونها!

نظرتُ إليها باستغراب، فهذا الانزعاج البالغ لم يكن أبداً مما يمكن أن يصدر عن غريزلدا. لاحظَتْ نظرتي إليها وحاولت الابتسام قائلة: لا تنظر إليّ كما لو كنتُ من فصيلة غريبة لا تفهمها يا لين. دعنا لا ننفعل أونبتعد عن موضوعنا. لا أعتقد أن الفاعل كان لورنس أو آن، كما أن ليتيس مستبعدة تماماً. لا بد من وجود طرفِ خيطٍ أو دليلٍ ما يساعدنا.

قالت الآنسة ماربل: فكروا بالرسالة. لعلكم تذكرون قولي هذا الصباح إن أمر الرسالة قد أثار انتباهي باعتباره مسألةً غريبة جداً؟

قلت: يبدو أنها تحدد وقت الوفاة بدقة كبيرة. ومع ذلك، أترين ذلك ممكناً؟ لقد كان من شأن السيدة بروثيرو أن تكون -في هذه الحال- قد غادرت المكتب لتوها. ما كانت لتملك من الوقت ما تصل به إلى المرسم. التفسير الوحيد الذي أجده لهذا الأمر هو أن السيد بروثيرو قد اعتمد على ساعته، وأن ساعته كانت متأخرة. يبدو لي ذلك حلاً معقولاً.

قالت غريزلدا: لديّ فكرة أخرى. افترض يا لين بأن ساعة الجدار قد تم العبث بها فعلاً... لا، هذا ينتهي بنا إلى نفس الوضع. ما أغباني!

- لم تكن الساعة قد أُبدلت عندما غادرتُ المكتب. أتذكّر أنني قارنتها مع ساعتي، ومع ذلك فليس للأمر -كما قلتِ- أي علاقة بالوضع الحالي.

سألَتْ غريزلدا: ما رأيك يا آنسة ماربل؟

أجابت الآنسة ماربل قائلة: يا عزيزتي، أعترف بأنني لم أكن أفكر بالأمر من هذه الزاوية أبداً. إن ما لفت انتباهي منذ البداية كأمر بالغ الغرابة هو موضوع تلك الرسالة.

قلت: لا أرى ذلك، فكل ما في الأمر أن الكولونيل بروثيرو كتب يقول إنه لم يعد يستطيع الانتظار.

قالت الآنسة ماربل: عند الساعة السادسة والثلث؟ لقد أخبرتْه خادمتكم بأنك غالباً لن تعود قبل السادسة والنصف في أحسن الأحوال، وبدا أنه مستعد تماماً للانتظار حتى ذلك الوقت. ومع ذلك يجلس في السادسة والثلث ليقول إنه "لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك»!

حدقتُ إلى المرأة العجوز وأنا أشعر باحترام متزايد لقواها العقلية؛ فقد أدرك ذهنها المتوقد ما فشلنا في إدراكه. كان ذلك شيئاً غريباً، غريباً جداً.

قلت: لو أن الرسالة لم تؤرَّخ فقط...

أومأت الآنسة ماربل برأسها وقالت: بالضبط، لو أنها فقط لم تؤرَّخ.

عدت بتفكيري إلى الوراء، محاولاً تذكر تلك الصفحة من ورق دفتر الملاحظات بما فيها من كتابةٍ بخطٍ ضخم كُتب على عجل، وفي أعلاها ذلك الرقم الذي كُتب بشكل مرتب دقيق: ٦,٢٠. من المؤكد أن ذلك الرقم كان مختلفاً عن بقية الرسالة.

شهقت وقلت: ماذا لو لم تكن الرسالة مؤرخة؟ لنفترض أن الكولونيل بروثيرو بدأ في نحو السادسة والنصف يفقد صبره وجلس ليكتب أنه لن يستطيع الانتظار لأكثر من ذلك، وبينما كان يجلس هناك ويكتب دخل شخص من الباب الزجاجي...

قاطعتني غريزلدا قائلة: أو من الباب العادي للمكتب.

- ولكنه كان سيسمع صوت الباب ويلتفت.

قالت الآنسة ماربل: لقد كان الكولونيل بروثيرو شبه أصم كما تذكر.

قلت: نعم، هذا صحيح؛ ما كان ليسمع شيئاً. ولكن كائناً ما كان مدخل القاتل، فإنه تسلل خلفه وأطلق عليه النار، ثم وضع رقم ٦,٢٠ في أعلى الرسالة وبدّل الساعة إلى ٦,٢٢. كانت تلك فكرة ذكية؛ فمن شأنها أن تعطيه دليل غياب ممتازاً عن مكان الجريمة، أو أن هذا ما سيفكر فيه.

قالت غريزلدا: وبذلك يكون ما نبحث عنه الآن شخصاً يملك دليل غياب لا يرقى إليه الشك عن مكان الجريمة في الساعة السادسة والثلث، ولكن لا يوجد مثل هذا الدليل القوي بالنسبة لـ... ليس ذلك بالأمر السهل. من الصعب جداً تحديد الوقت.

قلت: يمكننا حصره ضمن فترة محدودة جداً. إن الدكتور هيدوك يقول إن الجريمة ارتكبت قبل السادسة والنصف بالتأكيد. وأحسب أن بوسع المرء -بالاعتماد على ما كنا نناقشه من فرضية- أن يرفع هذا السقف إلى السادسة وخمس وثلاثين دقيقة، إذ يبدو

واضحاً أن بروثيرو ما كان ليفقد صبره قبل السادسة والنصف. أظن أن بوسعنا القول إننا نعرف الكثير الآن.

قالت الآنسة ماربل: إذن فتلك الطلقة التي سمعتها... نعم، أظن ذلك ممكناً تماماً. وأنا التي لم أفكر فيها، لم أفكر فيها أبداً. أمر مزعج تماماً! ومع ذلك يبدو لي الآن وأنا أحاول التذكر أنها كانت مختلفة بعض الشيء عن الطلقات التي يسمعها المرء. نعم، كان فيها اختلاف.

- أكانت أعلى صوتاً؟

قالت الآنسة ماربل إن الطلقة لم تكن أعلى صوتاً، بل إنها وجدت صعوبة في تحديد وجه الاختلاف، ولكنها أصرت -مع ذلك- على وجود اختلافٍ ما. وفكرتُ أنها ربما كانت تقنع نفسها بالأمر أكثر مما كانت تتذكره بالفعل، ولكنها كانت قد أسهمت لتوها في طرح منظور جديد بالغ القيمة في تناول القضية بحيث شعرتُ بعظيم الاحترام لها.

نهضتْ وهي تتمتم قائلة إن عليها أن تذهب، وإنه كان من الممتع كثيراً بالنسبة لها استعراض القضية ومناقشتها مع العزيزة غريزلدا. رافقتُها حتى الجدار الفاصل بين بيتينا والبوابة الخلفية ثم عدت لأجد غريزلدا غارقة في التفكير، فقلت لها: أما زلت تفكرين بتلك الرسالة؟

- لا.

ارتعدتْ قليلاً وقد ضمّت كتفيها بنفاد صبر وقالت: لين، لقد كنت أفكر... إلى أي مدى فظيع كان أحدهم يكره آن بروثيرو!

- يكرهها؟

- نعم. ألا ترى؟ ليس من دليل حقيقي ضد لورنس؛ كل الدلائل القائمة ضده لا تعدو أن تكون ظرفية إذا صح التعبير. فقد صدف أن خطر له القدوم إلى هذا المكان، ولو لم يأت لما خطر لأحد أن يربط بينه وبين الجريمة. ولكن وضع آن مختلف. لنفترض أن أحدهم عرف أنها كانت هنا في تمام السادسة والثلث، فالساعة والوقت المكتوب على الرسالة... كل شيء يشير إليها. لا أظن أن الدافع من ضبط الساعة على ذلك الوقت بعينه كان مجرد الحصول على دليل غياب عن مكان الجريمة؛ بل أظن أن في الأمر ما هو أبعد من ذلك... إن فيه محاولة مباشرة لإلصاق التهمة بها. ولولا شهادة الآنسة ماربل بأن السيدة بروثيرو لم تكن تحمل مسدساً، وملاحظتها بأنها لم تمكث في البيت سوى دقيقة قبل أن تذهب إلى المرسم. نعم، لولا شهادتها تلك...

ارتعدتْ ثانية وقالت: لين، إنني أشعر أن أحدهم كان يكره آن بروثيرو كرهاً شديداً. وأنا... وأنا غير مرتاحة للأمر.

* * *

الفصل الثاني عشر

استدعيتُ إلى غرفة المكتب عندما وصل لورنس ريدنغ. بدا منهكاً مضنى، بل ومرتاباً كما شعرت. حيّاه الكولونيل ميلتشيت بما كاد يكون وداً وقال: نريد توجيه بعض الأسئلة إليك، هنا في موقع الحدث.

كشر لورنس قليلاً وقال: أليست تلك فكرة فرنسية... إعادة بناء الجريمة؟

قال الكولونيل: يا فتاي العزيز، لا تعمد إلى هذه اللهجة معنا. أتعلم أن شخصاً آخر اعترف بارتكاب الجريمة التي تدعي ارتكابها؟

كان تأثير هذه الكلمات على لورنس مؤلماً وفورياً، فقد تلعثم قائلاً: ششـ... شخصاً آخر؟ مَنْ... مَنْ؟

قال الكولونيل وهو يراقبه: السيدة بروثيرو.

- مستحيل! لم تفعلها أبداً. ليس ذلك ممكناً، مستحيل.

قاطعه الكولونيل ميلتشيت قائلاً: الغريب أننا لم نصدق نحن

أيضاً قصتها، كما أننا لم نصدق قصتك. إن الدكتور هيدوك يجزم بأنه ليس من الممكن أن تكون الجريمة قد ارتكبت في الوقت الذي تقول أنت إنك ارتكبتها.

- الدكتور هيدوك يقول ذلك؟

- نعم، وهكذا ترى أنك بريء سواء أأعجبك ذلك أم لم يعجبك. والآن نريد منك مساعدتنا وإخبارنا بما حدث بالضبط.

بقي لورنس متردداً ثم قال: أتراكم تخدعونني... بشأن السيدة بروثيرو؟ ألا تشكّون فيها حقاً؟

قال ميلتشيت: أقسم لك بشرفي.

سحب لورنس نفساً عميقاً ثم قال: لقد كنت مغفلاً، مغفلاً تماماً. كيف استطعتُ للحظةٍ أن أفكر بأنها هي التي فعلتها؟!

- لماذا لا تخبرنا كل شيء عن الأمر؟

- لا كثير يقال. لقد... لقد قابلت السيدة بروثيرو عصر ذلك اليوم...

توقف فبادره ميلتشيت قائلاً: إننا نعرف كل شيء عن هذا الأمر. ربما حسبتَ أن مشاعرك تجاه السيدة بروثيرو ومشاعرها تجاهك كانت سراً عميقاً، ولكنه كان في الحقيقة أمراً معروفاً ومثار تعليقات عدة. وعلى أية حال فلا بد من ظهور كل شيء الآن.

- حسناً إذن، أراك محقاً في ذلك. كنت قد وعدت الكاهن (واسترق نظرة إلي) أن أغادر البلدة فوراً. قابلت السيدة بروثيرو في

تلك الأمسية في المرسم في الساعة السادسة والربع... أخبرتها بما اعتزمت فعله، ووافقتني هي على أنه التصرف الأفضل. ثم... ثم ودّعَ بعضنا بعضاً. خرجنا من المرسم وسرعان ما انضم إلينا الدكتور ستون. استطاعت آن التصرف بشكل طبيعي يثير الإعجاب، أما أنا فلم أستطع ذلك. ذهبتُ والدكتور ستون إلى فندق بلو بور حيث تناولت القهوة، ثم فكرت أن من الأفضل أن أذهب إلى البيت، ولكن عندما وصلت إلى هذا الطريق غيرت رأيي وقررت المجيء لرؤية الكاهن. شعرت أنني بحاجة للتحدث مع أحد في الأمر، وعند الباب أخبرتني الخادمة بأنه في الخارج وسيعود بعد قليل وأن الكولونيل بروثيرو موجود في المكتب ينتظره. حسناً، لم أرغب بالعودة ثانية من حيث أتيت... بدا لي ذلك تصرفاً يوحي وكأنني أتفادى لقاءه، ولذلك قلت إنني سأنتظر أنا أيضاً، وذهبت إلى المكتب.

سكت قليلاً فحثه الكولونيل قائلاً: حسناً؟

- كان بروثيرو جالساً إلى طاولة الكتابة، كما وجدتموه تماماً. ذهبت إليه... لمسته، فوجدته ميتاً. ثم نظرت إلى الأرض فوجدت المسدس مرمياً بجانبه. رفعته... وأدركت فوراً أنه كان مسدسي، وقد أرعبني ذلك: مسدسي أنا! وبعدها قفزت مباشرة إلى استنتاج واحد، وهو أن آن قد أخذت دون ريب مسدسي في مناسبة ما... ربما بقصد استعماله ضد نفسها إذا فقدت القدرة على التحمل، وربما كان معها اليوم. وبعد أن افترقنا في القرية لا بد أنها عادت إلى هنا و... آه! أظنني كنت مجنوناً إذ فكرت بمثل هذا الأمر، ولكن هذا ما فكرت فيه. دسست المسدس في جيبي وخرجت. وخارج بوابة البيت تماماً التقيت بالكاهن، وقال لي شيئاً لطيفاً وطبيعياً حول رؤية

بروثيرو. وفجأة انتابتني رغبة جامحة بالضحك. كان أسلوبه شديد الطبيعية والاعتيادية، فيما أنا واقف هناك في غاية التوتر. وأتذكر أنني صحت بكلامٍ سخيفٍ ما ورأيت وجهه يتغير. أظنني كنت قد شارفت على الجنون. وقد رحت أمشي وأمشي... وفي النهاية لم أعد أستطيع التحمل، فلئن كانت آن قد فعلت هذا الأمر الكريه فإنني مسؤول أخلاقياً على الأقل. وهكذا ذهبت وسلمت نفسي.

ساد الصمت عندما انتهى، ثم قال الكولونيل بلهجة عملية: أود فقط أن أسأل سؤالاً أو اثنين. أولاً: هل حركت الجثة بأي شكل؟

- لا، لم أحرك الجثة أبداً؛ فقد كان بوسع المرء أن يرى أنه ميت دون أن يحركه.

- هل انتبهت لوجود ملاحظة مكتوبة فوق دفتر الملاحظات بحيث يكاد نصفها يختفي تحت الجثة؟

- لا.

- هل عبثت بالساعة بأي شكل من الأشكال؟

- لم ألمس الساعة أبداً. أظن أنني أتذكر وجود ساعة جدارية مقلوبة على الطاولة، ولكني لم ألمسها.

- حسناً، بالنسبة لمسدسك ذاك، متى رأيتَه آخر مرة؟

فكر لورنس قليلاً ثم قال: من الصعب تحديد ذلك بدقة.

- أين تحتفظ به؟

- ضمن مجموعة من الأغراض المتنوعة في غرفة الجلوس في بيتي، على أحد رفوف خزانة الكتب.

- وقد تركتَه ملقى هناك دون اهتمام؟

- نعم، لم أفكر فيه في الواقع. كان مكانه دوماً هناك.

- بحيث يمكن لكل من يأتي إلى منزلك أن يراه، أليس كذلك؟

- بلى.

- وأنت لا تتذكر آخر مرة رأيته فيها؟

قطب لورنس حاجبيه في محاولة للتذكر ثم قال: أكاد أكون واثقاً أنه كان هناك أول أمس؛ أتذكّر أنني أزحته جانباً لآخذ غليوناً قديماً. أظن ذلك كان يوم أمس الأول... أو اليوم الذي سبقه.

- من زار بيتك مؤخراً؟

- آه! أناس بالجملة... دوماً ترى أناساً يدخلون ويخرجون.

- هل تقفل بيتك عندما تخرج؟

- لا، ولماذا عساي أقفله؟ ليس عندي ما يُسرق، كما أن أحداً لا يقفل بابه في هذه القرية.

- من الذي يرعى لك شؤون المنزل؟

- تأتي سيدة تدعى السيدة آرتشر كل صباح لهذا الغرض.

- أتظنها تتذكر متى كان المسدس في مكانه آخر مرة؟

- لا أدري، ربما تذكرتُ. ولكنني لا أحسب أن من مميزات السيدة آرتشر التنظيف الكامل لكل الزوايا.

- هذا يعني -إذن- أن أي امرئ ربما كان قد أخذ المسدس؟

- يبدو الأمر كذلك. نعم.

فُتح الباب ودخل الدكتور هيدوك مع آن بروثيرو. جفلت المرأة لرؤية لورنس، أما هو فقد قام بخطوة مترددة باتجاهها وقال: سامحيني يا آن، فقد كان فظيعاً أن أفكر فيك على ذلك النحو.

- إن، إنني...

تلعثمت بالكلام، ثم نظرت بتوسل إلى الكولونيل ميلتشيت وقالت: أصحيح ما قاله لي الدكتور هيدوك؟

- أن السيد ريدنغ بريء من أية تهمة؟ نعم. والآن ماذا بشأن قصتك أنت يا سيدة بروثيرو؟ إيه، ماذا بشأنها؟

ابتسمت وقد بدا على وجهها شيء من الشعور بالعار وقالت: أحسب أنكم ترون ذلك تصرفاً فظيعاً مني، أليس كذلك؟

- لنقل إنه تصرف أحمق تماماً، ولكن ذلك كله انتهى. ما أريده الآن يا سيدة بروثيرو هو الحقيقة... الحقيقة الكاملة.

أومأت برأسها عابسة وقالت: سأخبرك. أحسبك تعلم عن... عن كل شيء.

أجبتُ بالإيجاب، فقالت: كان مقرراً أن أقابل لورنس في ذلك المساء في المرسَم، عند الساعة السادسة والربع. كنت قد جئت أنا

وزوجي بالسيارة إلى القرية، وكنت بحاجة لبعض التسوق. وعندما افترقنا أشار زوجي عرضاً إلى أنه ذاهب لرؤية الكاهن. ولم أستطع إرسال خبر بذلك إلى لورنس، وشعرت باضطراب كبير. فقد... فقد كان فظيعاً أن أقابله في حديقة بيت الكاهن بينما يكون زوجي في البيت ذاته.

احمرت وجنتاها وهي تقول ذلك؛ إذ لم تكن تلك لحظة مريحة بالنسبة لها. ثم أكملت تقول: فكرت بأن زوجي ربما لا يمكث طويلاً هناك، ولكي أعرف ذلك جئت عبر الممشىٰ الخلفي ودخلت الحديقة. كنت آمل أن لا يراني أحد، ولكن الآنسة العجوز ماربل لا بد أن تكون في حديقتها بالطبع! أوقفتني وتبادلنا بضع كلمات، وشرحت لها أنني ذاهبة لمناداة زوجي. شعرت أن عليّ أن أقول شيئاً. لا أدري إن كانت قد صدقتني أم لا. لقد بدت... غريبة بعض الشيء. وعندما تركتها ذهبت مباشرة إلى بيت الكاهن وانعطفت عند زاوية المنزل لأذهب إلى الباب الزجاجي للمكتب. تسللت إلى الباب الزجاجي بكل هدوء وأنا أتوقع سماع أصوات المتكلمين في المكتب، ولكن لم أسمع -لدهشتي- أي أصوات. نظرت إلى داخل المكتب فوجدته فارغاً فأسرعت عبر مرجة العشب إلى المرسم حيث ما لبث لورنس أن انضم إليّ مباشرة تقريباً.

- أتقولين إن المكتب كان فارغاً يا سيدة بروثيرو؟

- نعم، فزوجي لم يكن هناك.

- غريب جداً.

قال المفتش: أتعنين يا سيدتي أنك لم تريه؟

- نعم، إنني لم أره.

همس المفتش سلاك في أذن الكولونيل الذي أومأ برأسه موافقاً فقال المفتش: هل لك يا سيدة بروثيرو أن ترينا بالضبط ما فعلتِه؟

- بالطبع.

نهضتْ، وفتح لها المفتش سلاك الباب الزجاجي فعبرته إلى المصطبة في الخارج ثم مضت حول البيت إلى الجهة اليسرى.

طلب مني المفتش سلاك بلهجة آمرة أن أذهب وأجلس إلى طاولة الكتابة. ولسببٍ ما لم يعجبني كثيراً القيام بذلك؛ إذ سبّب لي شعوراً بعدم الارتياح. ولكنني أذعنت طبعاً لطلبه. وسرعان ما سمعت صوت خطوات في الخارج، توقفت قليلاً ثم تراجعت. أشار المفتش سلاك إليّ قائلاً إن بوسعي العودة إلى الجانب الآخر من الغرفة. عادت السيدة بروثيرو فدخلت من الباب الزجاجي، فسألها الكولونيل ميلتشيت: أهكذا كان الأمر بالضبط؟

- بالضبط كما أظن.

تدخل المفتش قائلاً: أتستطيعين -إذن- أن تخبريني يا سيدة بروثيرو أين كان الكاهن بالضبط في الغرفة عندما نظرت الآن؟

- الكاهن؟ لا، أخشى أن لا أستطيع تحديد مكانه؛ فأنا لم أره.

أومأ المفتش برأسه وقال: وهكذا لم تري زوجك؛ فقد كان خلف الزاوية يجلس إلى طاولة الكتابة.

شهقت: آه! توقفت وقد اتسعت عيناها واستدارتا رعباً ثم

قالت: أكان ذلك هو المكان الذي... الذي...

- نعم يا سيدة بروثيرو. حدث ذلك بينما كان يكتب هناك.

ارتعدت وشهقت مرة أخرى، ومضى هو في أسئلته: أكنت تعرفين يا سيدة بروثيرو أن لدى السيد ريدنغ مسدساً؟

- نعم، أخبَرَني مرة بذلك.

- هل سبق لك أن احتفظت قط بذلك المسدس؟

- لا.

- أكنت تعرفين أين يحتفظ به؟

- لست متأكدة من ذلك. أظن... نعم، أظنني رأيته على أحد الرفوف في بيته. ألست تضعه هناك يا لورنس؟

- متى زرت بيت السيد ريدنغ آخر مرة يا سيدة بروثيرو؟

- منذ نحو ثلاثة أسابيع؛ تناولنا الشاي أنا وزوجي عنده.

- ولم تزوري البيت منذ ذلك الوقت؟

- نعم، لم أذهب أبداً هناك؛ فذلك يثير الكثير من الأقاويل في القرية كما تعلم.

قال الكولونيل ميلتشيت ببرود: بالتأكيد. هل كنتِ معتادة على رؤية السيد ريدنغ، إن سمحتِ لي بالسؤال؟

- لقد اعتاد المجيء إلى بيتنا. كان يرسم ليتيس، وكنا...

أومأ الكولونيل برأسه، وقالت هي بصوت بدا فجأة منهاراً: ألا يكفي هذا؟ فظيع جداً أن أضطر لإخباركم بكل هذه الأشياء. كما... كما لم يكن في علاقتنا شيء. لم يكن فيها شيء فعلاً؛ كنا مجرد أصدقاء، ولم يسعنا إلاّ الاهتمام بعضنا ببعض.

نظرتْ متوسلة إلى الدكتور هيدوك فتقدم ذلك الرجل رقيق القلب وقال: أظن حقاً يا ميلتشيت أن ما شهدته السيدة بروثيرو يكفي. لقد تعرضت لصدمة كبرى... بأكثر من طريقة.

قال رئيس الشرطة: لم يعد لدينا المزيد من الأسئلة يا سيدة بروثيرو. أشكرك على إجابتي بكل تلك الصراحة.

- إذن، إذن... هل أستطيع الذهاب؟

سألني هيدوك: هل زوجتك في الداخل؟ أظن السيدة بروثيرو ترغب برؤيتها.

- نعم، غريزلدا في الداخل. ستجدينها في غرفة الجلوس.

غادرَت الغرفة برفقة الدكتور هيدوك والسيد ريدنغ، وقد زمّ الكولونيل ميلتشيت شفتيه وأخذ يعبث بسكين لفتح الرسائل، أما سلاك فكان ينظر إلى الرسالة التي تركها القتيل (وعندها ذكرتُ نظرية الآنسة ماربل). نظر سلاك إلى الرسالة بإمعان ثم هتف: يا إلهي، أظن أن العجوز على حق. انظر هنا يا سيدي، أترى؟ هذه الأرقام كتبت بحبر مختلف... الوقت هنا كتب بقلم حبر بالتأكيد.

انفعلنا جميعاً، وقال الكولونيل: أظنك أخذت البصمات عن الرسالة دون شك.

- ماذا تظن يا كولونيل؟ لم تكن عليها أية بصمات، أما على المسدس فالبصمات للسيد ريدنغ. ربما كانت عليه بعض البصمات الأخرى قبل أن يشرع بحماقته ويأخذ المسدس ويضعه في جيبه، أما الآن فليس من شيء واضح يمكن إثباته.

قال الكولونيل متأملاً: في البداية بدت القضية واضحةً تماماً ضد السيدة بروثيرو. كانت لدينا شهادة تلك العجوز ماربل بأن السيدة بروثيرو لم تكن تحمل معها مسدساً، ولكن هؤلاء العجائز غالباً ما يُخطئن.

سكتُّ، ولكني لم أكن أتفق معه. كنت واثقاً تماماً بأن آن بروثيرو لم تكن تحمل مسدساً إن كانت الآنسة ماربل تقول ذلك؛ فليست الآنسة ماربل من تلك العجائز اللائي يرتكبن أخطاء. إن لديها موهبة لا تخيب أبداً في التحليل الصائب.

- ما يحيرني أن أحداً لم يسمع الطلقة. لو أنها أُطلقت وقتها فلا بد أن أحداً قد سمعها... حتى وإن ظن أنها أتت من مكان آخر. من الأفضل يا سلاك أن تتكلم مع الخادمة.

تحرك المفتش سلاك بتيقظ نحو الباب، فقلت له: الأفضل أن لا تسألها إن كانت قد سمعت طلقة في المنزل، لأنها ستنكر سماع ذلك. سمّها طلقة في الغابة، فتلك هي الطلقة الوحيدة التي يمكن أن تعترف الفتاة بسماعها.

قال المفتش قبل خروجه: إنني أعرف كيف أتدبر أمرهن.

قال الكولونيل متأملاً: الآنسة ماربل تقول إنها سمعت

صوت طلقة فيما بعد. يجب أن نرى إن كان بوسعها تحديد الوقت بشكل دقيق، ربما كانت تلك بالطبع طلقة طائشة لا علاقة لها بموضوعنا.

وافقته قائلاً: ذلك ممكن بالطبع.

ذرع الكولونيل الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قال فجأة: أتدري يا كليمنت، لديّ شعور بأننا سنكتشف أن هذه القضية أصعب وأدقّ بكثير مما نظن جميعاً. تباً لها، إن وراءها شيئاً، شيئاً لا نعرفه. إننا ما نزال في البداية. تذكّر كلماتي هذه: إننا ما نزال في البداية. كل هذه الأشياء: الساعة والرسالة والمسدس، لا معنى لها بشكلها المجرد!

هززت رأسي حيرة، فلم يكن لتلك الأشياء معنى بالتأكيد. أضاف الكولونيل: ولكنني سأصل إلى قرار هذه القضية. لن أستدعي شرطة سكوتلانديارد... إن سلاك رجل ذكي، إنه كلب صيد جيد لا يهدأ، وسيجد طريقه إلى الحقيقة. لقد قام بعدة إنجازات سابقاً، وستكون هذه القضية أشهر إنجازاته. من شأن البعض أن يسارعوا لاستدعاء سكوتلانديارد، أما أنا فلن أفعل ذلك. سنصل إلى قرار هذه القضية هنا في داونشير.

- آمل ذلك بالتأكيد.

حاولت جعل صوتي حماسياً، ولكنني كنت قد كرهت المفتش سلاك أساساً إلى درجة جعلت إمكانية نجاحه لا تروق لي. ورأيت أن سلاك سيكون -في حال نجاحه- بغيضاً أكثر منه في حال إخفاقه.

سألني الكولونيل فجأة: مَنْ يقيم في البيت المجاور لكم؟

- أتعني ذلك الواقع عند نهاية الطريق؟ السيدة برايس ريدلي.

- سنذهب إليها بعد أن يفرغ سلاك من خادمتك فربما كانت قد سمعت شيئاً. أرجو أن لا تكون صماء أو ما شابه ذلك؟

- بل أظن أن سمعها حاد تماماً، بدليل حجم الفضائح التي أثارتها بسبب «ما تناهى صدفة إلى مسامعها».

- هذه هي نوعية النساء التي نريدها. آه! ها هو سلاك.

كان سلاك يبدو كمن خرج من معركة، قال لدى دخوله: يا إلهي! إن لديك يا سيدي خادمة فظيعة.

أجبته: إن ماري فتاة ذات شخصية قوية بالفعل.

- إنها لا تحب الشرطة. لقد حذرتها... حاولت جاهداً أن أبث في قلبها الخوف من القانون ولكن دون جدوى... واجهتني بكل قوة.

قلت وقد شعرت بتعاطف أكبر مع ماري: إنها شجاعة.

- ولكنني أجبرتها على كشف دخيلتها. لقد سمعتْ طلقة واحدة.. واحدة فقط. وكان ذلك بعد وقت طويل من مجيء الكولونيل بروثيرو. لم أستطع حملها على تحديد وقتٍ بعينه، ولكننا حددنا ذلك أخيراً بواسطة السمكة. فقد تأخرت السمكة، وقامت هي بتأنيب الصبي عندما أحضرها، وقال الصبي إن الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف، وكان سماعها للطلقة بعد ذلك مباشرة. هذا ليس تحديداً دقيقاً بالطبع، ولكنه يعطينا فكرة عن الوقت.

همهم الكولونيل علامة الفهم فأضاف المفتش وفي صوته نبرة أسف: لا أحسب السيدة بروثيرو متورطة في هذا الأمر؛ فهي ما كانت أولاً لتمتلك الوقت الكافي، ثم إن النساء لا يملن عموماً للعبث بالأسلحة النارية. الزرنيخ أقرب لطبيعتهن. كلا، لا أظنها الفاعلة. أمر مؤسف!

تنهد أسفاً، وقال ميلتشيت إنه ذاهب إلى بيت السيدة برايس ريدلي فوافقه المفتش، وسألته أنا: أيمكن أن آتي معكما؟ لقد أخذت أنشدُّ لهذا الأمر.

حصلت على الموافقة وانطلقنا. ولدى خروجنا من البوابة واجهتنا صيحة تحية عالية من ابن أخي دينيس الذي صعد الطريق مسرعاً قادماً من القرية لينضم إلينا. قال للمفتش: اسمعني أيها المفتش، ماذا عن آثار القدم التي أخبرتك عنها؟

أجاب المفتش باقتضاب: أقدام البستاني.

- ألا تظن أنه ربما كان شخصاً ارتدى حذاء البستاني؟

أجاب المفتش بأسلوب مثبط: نعم، لا أظن!

ولكن تثبيط دينيس كان يتطلب أكثر من ذلك بكثير. مدّ يده بعودَيْ ثقاب محترقين وقال: لقد وجدت هذين عند بوابة البيت.

أخذهما سلاك ووضعهما في جيبه قائلاً: أشكرك.

بدا الآن أن الأمور وصلت إلى طريق مسدود، وبغتة سأل

دينيس بظرافةٍ سيئة التوقيت: لا أظنك تعتقل العم لين، أليس كذلك؟

سأله سلاك: ولماذا أعتقله؟

قال دينيس: توجد الكثير من الدلائل ضده. اسأل ماري... في اليوم السابق للجريمة فقط كان يتمنى خلاص العالم من الكولونيل بروثيرو، أليس ذلك صحيحاً يا عم لين؟

بدأتُ قائلاً: "الواقع..." فيما التفتَ إليّ المفتش سلاك بنظرة ارتياب شعرت معها بأن جسمي غدا حاراً كله... إن دينيس مزعج جداً بالفعل؛ كان عليه أن يدرك أن الشرطة نادراً ما يعرفون المزاح.

قلت بغضب: لا تكن سخيفاً يا دينيس!

فتح الصبي البريء عينيه بدهشة وقال: أقول إنها كانت مجرد مزحة. لقد قال العم لين إن من شأن امرئ يقتل الكولونيل بروثيرو أن يكون قد أدى خدمة كبرى للعالم.

قال المفتش: آه! ذلك يفسر شيئاً قالته الخادمة.

الخدم أيضاً نادراً ما يعرفون المزاح. شتمت دينيس في داخلي بكل حنق لإثارته هذا الموضوع؛ فهذا إلى جانب مسألة الساعة سيجعلان المفتش يرتاب بي طول حياته.

قال الكولونيل ميلتشيت: هيا يا كليمنت.

سأل دينيس: إلى أين تذهبون؟ أأستطيع الذهاب معكم أيضاً؟

صحتُ به: كلا، لا تستطيع.

تركناه ينظر خلفنا مجروح المشاعر، وذهبنا إلى الباب الأمامي الجميل لبيت السيدة برايس ريدلي. قرع المفتش جرس الباب ثم قرع الباب بالمطرقة الخاصة بذلك وهو يفعل ذلك كله بأسلوب رسمي. استجابت خادمة جميلة لقرع الباب فسألها الكولونيل ميلتشيت: هل السيدة برايس ريدلي في الداخل؟

- كلا يا سيدي. لقد ذهبت لتوها إلى مركز الشرطة.

كان هذا تطوراً غير متوقع على الإطلاق. وبينما نحن نعود أدراجنا أمسكني ميلتشيت من ذراعي وتمتم قائلاً: إن كانت ستعترف بارتكاب الجريمة أيضاً فسوف أفقد عقلي فعلاً.

* * *

الفصل الثالث عشر

لم أتوقع أبداً أن يكون في جعبة السيدة ريدلي أي شيء ذو قيمة، ولكنني تساءلت عما عساه أخذها إلى مركز الشرطة. أكان لديها حقاً دليل ذو أهمية تقدّمه، أو حتى دليل تظن هي أنه ذو أهمية؟ سرعان ما سنعرف ذلك على أية حال.

وجدنا السيدة ريدلي تتكلم بسرعة فائقة إلى شرطي بدا عليه شيء من الارتباك والحيرة. وعرفت -من الطريقة التي كانت حافة قبعتها ترتجف بها- أنها تشعر بسخط شديد. كانت السيدة ريدلي ترتدي ذلك النوع من القبعات التي تصنع في بلدة مَتش بينهام المجاورة لنا، وهي قبعات غريبة مزيّنة بأقواس ضخمة من الأشرطة، وقد كانت غريزلدا تهدد دوماً بشراء واحدة من تلك القبعات.

أوقفت السيدة ريدلي كلامها الدافق عند دخولنا، وسأل الكولونيل ميلتشيت وقد نزع قبعته: السيدة برايس ريدلي؟

قلت: دعيني أعرّفك على الكولونيل ميلتشيت يا سيدة برايس ريدلي. إنه رئيس الشرطة عندنا.

نظرت السيدة برايس ريدلي إليّ ببرود، ولكنها أبدت ما يشبه

ابتسامة تهذيب للكولونيل الذي بادرها قائلاً: لقد كنا في زيارة لبيتك قبل قليل يا سيدة ريدلي، وسمعنا أنك جئت إلى هنا.

تحلحل فوراً تشنج السيدة ريدلي كله وقالت: آه! إنني سعيدة لأن الحدث نال بعض الاهتمام. إنني أسمي ذلك مشيناً... مشيناً جداً!

ما من شك في أن القتل عمل مشين، ولكنها ليست الكلمة التي كنت سأستخدمها -شخصياً- لوصف القتل. وبدا لي أن الكلمة أدهشت ميلتشيت أيضاً فقال: ألديك ما يلقي الضوء على القضية؟

- هذا عمل الشرطة... إنه عمل الشرطة. لماذا ندفع الضرائب والرسوم، هذا ما أريد معرفته؟

يتساءل المرء كم مرة يُطرح هذا السؤال في العام الواحد!

قال الكولونيل: إننا نقوم بكل ما نستطيع يا سيدة ريدلي.

صاحت السيدة قائلة: ولكن هذا الرجل هنا لم يسمع بالأمر مجرد سماع حتى أخبرتُه به!

نظرنا جميعاً إلى الشرطي فقال: لقد تم اتصال بالسيدة هاتفياً. أعني أن أحدهم أزعجها بالهاتف... مسألة لغة بذيئة كما فهمت.

انفرجت أسارير الكولونيل وقال: آه! فهمت. كنا نتكلم في موضوعين مختلفين. لقد أتيْتِ هنا لتقديم شكوى، أليس كذلك؟

إن ميلتشيت رجل حكيم؛ فهو يعلم أن الأمر إذا ما تعلق بامرأة غاضبة في أواسط عمرها، فلا يوجد إلاّ سبيل واحد للتصرف، وهو

الإصغاء لها. وعندما تفرغ من قول كل ما تريد قوله تكون فرصة في أن تصغي هي لك.

انطلقت السيدة برايس ريدلي في الكلام: ينبغي أن تُمنع مثل هذه الحوادث المشينة... ينبغي أن لا تحدث. لا يمكن أن تتم مخابرة المرء في بيته وإهانته... نعم، إهانته. إنني لم أعتد على حدوث مثل هذه الأمور. لقد حدث انحلال في النسيج الأخلاقي منذ أن انتهت الحرب. لا أحد يهتم بما يتلفظ به، أما الملابس التي يلبسونها...

سارع ميلتشيت إلى القول: بالتأكيد، بالتأكيد. ماذا حدث بالضبط؟

أخذت السيدة ريدلي نفساً ثم انطلقت ثانية: لقد اتصلوا بي...

- متى؟

- بعد ظهر أمس... بل مساء أمس بالأحرى، نحو الساعة السادسة والنصف. ذهبت للردّ على الهاتف لا تراودني أية ريبة، وعلى الفور هوجمت بشكل شرير وهُدِّدت...

- ما الذي قيل عملياً؟

احمرّ وجه السيدة برايس ريدلي قليلاً وقالت: هذا ما لن أقوله.

تمتم الشرطي بصوت عميق: لغة بذيئة!

سأل الكولونيل ميلتشيت: هل استُخدمت لغة سيئة؟

- هذا يعتمد على ما تعنيه باللغة السيئة.

سألتُها: هل استطعتِ فهمها؟

- بالطبع استطعت فهمها.

- إذن فهي ليست لغة سيئة.

نظرَت السيدة برايس ريدلي إليّ بارتياب فشرحت ملاحظتي قائلاً: إن سيدة عالية التهذيب لا تكون ملمة عادة باللغة السيئة.

قالت السيدة برايس ريدلي: لم تكن من ذلك النوع من اللغة. عليّ أن أعترف أنني خُدعت تماماً في البداية. ظننتها رسالة حقيقية يراد إيصالها، ثم بدأ الـ... المتكلم يسيء.

- يسيء؟

- يسيء كثيراً... لقد ذعرت تماماً.

- واستخدم لغة تهديد، أليس كذلك؟

- بلى، وأنا غير معتادة على من يهددني.

- بماذا هددوك؟ بأذى جسدي؟

- ليس تماماً.

- إن عليك يا سيدة برايس ريدلي أن تكوني أكثر وضوحاً. بأية طريقة تم تهديدك؟

بدا أن السيدة برايس ريدلي في غاية التردد قبل الإجابة على هذا السؤال. قالت: لا أذكر تماماً. كان الأمر كله مزعجاً جداً، ولكن في النهاية تماماً... عندما كنت قد انزعجت بالغ الانزعاج قام ذلك الـ... ذلك الخسيس بالضحك.

- إذن فقد كان الصوت صوت رجل، أليس كذلك؟

- كان صوتاً منحطاً لا جنس له؛ لا يمكنني وصفه إلاّ بأنه صوت شاذ مزيف. مرة أجش، ومرة رفيع حاد. كان حقاً صوتاً غريباً جداً!

قال الكولونيل مهدئاً: ربما كان ذلك مزحاً من أحد.

- إن كان كذلك فهو أكثر التصرفات شراً وأذى؛ كان يمكن أن أُصاب بنوبة قلبية.

- سوف نحقق بالموضوع. ما رأيك أيها المفتش؟ أرجو أن تتابع مصدر المكالمة الهاتفية. ألا تستطيعين إخباري بمزيد من التحديد ما الذي قيل بالضبط يا سيدة برايس ريدلي؟

نشب في صدر السيدة برايس ريدلي الضخم صراع بين الرغبة في التحفظ في كلامها وبين الرغبة في الانتقام، وقد فازت الرغبة في الانتقام فبدأت تقول: هذا لن يخرج طبعاً أبعد من هنا.

- بالطبع لن يخرج.

- لقد بدأ هذا المخلوق بالقول... لا أكاد أستطيع حمل نفسي على تكرار كلامه.

قال ميلتشيت مشجعاً: نعم، نعم؟

- قال لي: "أنت عجوز شريرة تعيش على الفضائح"! أنا عجوز شريرة تعيش على الفضائح يا كولونيل؟! ثم قال: "ولكنك تماديت هذه المرة، وسكوتلانديارد تتعقبك بتهمة الذم والقدح".

قال ميلتشيت وهو يعض على شاربه لإخفاء ابتسامته: من الطبيعي أن يزعجك ذلك كثيراً.

- ومضى المتحدث يقول: "وإن لم تمسكي لسانك في المستقبل فسيكون ذلك وبالاً عليك". لا أستطيع أن أصف لك الطريقة المخيفة التي قيلت بها هذه الجملة. وقد شهقت قائلة: "من أنت؟"، وأجابني الصوت: "المنتقم". وصدرت مني صرخة. كانت نبرته فظيعة، وبعدها ضحك الشخص... ضحك! ضحك بشكل واضح، وانتهى بذلك الأمر وأغلق السماعة. طلبت من موظفي البدالة أن يعطوني الرقم الذي اتصل منه، ولكنهم قالوا إنهم لا يعرفونه. أنت تعرف طبيعة هؤلاء الموظفين؛ في غاية الوقاحة وعدم الاهتمام.

قلت: صحيح.

مضت السيدة برايس ريدلي قائلة: شعرت أنني سيغمى علي. كنت في غاية الانزعاج والعصبية بحيث أنني جفلت جفلة فظيعة عندما سمعت طلقة في الغابة... إلى هذا الحد وصل الأمر معي.

قال المفتش سلاك وقد تيقظ: طلقة في الغابة؟

- في حالة الانفعال التي كنت أمر فيها بدت لي وكأنها طلقة مدفع. صحت مع نفسي: "آه!" وألقيت بنفسي على الأريكة منهكة، وقد اضطرت كلارا إلى إعطائي كأساً من الليمون.

قال ميلتشيت: أمر يثير الصدمة، يثير الصدمة حقاً. لا بد أنه كان أمراً متعِباً جداً لك. أتقولين إن الطلقة كانت عالية الصوت جداً؟ كما لو أنها كانت قريبة منك؟

- كان ذلك من أثر حالتي العصبية فقط.

- طبعاً، طبعاً. وفي أية ساعة كان ذلك كله؟ فذلك يساعدنا في تتبع المكالمة كما تعلمين.

- في نحو السادسة والنصف.

- ألا تستطيعين تحديد الوقت بشكل أكثر دقة؟

- حسناً، كان المنبه الصغير الذي أضعه على رف الموقد قد دقّ لتوه معلناً الساعة السادسة والنصف، وقلت في نفسي: "لا بد أن هذه الساعة تسبّق" (فهي تسبّق عادة)، ولذلك قارنتها مع الساعة التي أضعها في يدي، ولكن ساعة يدي لم تكن تشير إلاّ إلى السادسة وعشر دقائق. وضعتها على أذني فوجدت أنها متوقفة. ولذلك فكرت قائلة لنفسي: "حسناً، إن كانت تلك الساعة تسبّق فلن ألبث أن أسمع ساعة الكنيسة خلال دقيقة أو اثنتين". وبعدها طبعاً رن جرس الهاتف، ونسيت كل ما يتعلق بالأمر.

سكتت وهي تلهث، فقال الكولونيل: حسناً، هذا تحديد لا بأس به، سنتابع لك الأمر يا سيدة برايس ريدلي.

قلت أنا: لا تفكري بالأمر إلاّ كمزحة سخيفة، ولا تقلقي يا سيدة ريدلي.

نظرت إليّ ببرود، وبدا واضحاً أن حادث الجنيه الذي تبرعت به ما زال يعتمل في نفسها. قالت موجهة حديثها إلى ميلتشيت: أمور غريبة جداً أخذت تحدث مؤخراً في هذه القرية. أمور غريبة جداً بالفعل! وكان الكولونيل بروثيرو ينوي التدقيق في تلك الأمور، فما

الذي حدث له، المسكين؟ أتراني أكون أنا التالية؟

وعند هذه النقطة اعتذرت للمغادرة وهي تهز رأسها بنوع من الكآبة المنذرة بالسوء. همس ميلتشيت قائلاً مع نفسه: "يا لهذا الحظ"! ثم تجهم وجهه ونظر متسائلاً إلى المفتش سلاك.

أومأ المفتش برأسه ببطء وقال: هذا يكاد يحل المسألة يا سيدي؛ أصبح لدينا ثلاثة ممن سمعوا الطلقة. علينا أن نعرف الآن من أطلقها. لقد أخّرتْنا مسألة ريدنغ تلك، ولكن لدينا عدة نقاط انطلاق لم ندقق فيها عندما ظننا أن ريدنغ مذنب. أما الآن فقد تغير الأمر كله، وأول ما نفعله الآن هو التحقق من أمر تلك المكالمة.

- مكالمة السيدة برايس ريدلي؟

- كلا، رغم أنني أرى ضرورة تسجيل ملاحظة بشأن مكالمة السيدة وإلاّ لوجدنا المرأة تأتي لإزعاجنا ثانية هنا. ولكن المكالمة التي قصدتها هي تلك المزيفة التي أبعدت الكاهن عن الطريق.

قال ميلتشيت: نعم، تلك مسألة مهمة.

- والأمر التالي هي تحديد ما كان يفعله كل شخص في ذلك المساء بين الساعة السادسة والسابعة. وأعني بذلك كل شخص في منزل أولد هول، وكذلك كل شخص في القرية أيضاً.

تنهدت وقلت: يا للطاقة الرائعة التي تمتلكها أيها المفتش!

- إنني أؤمن بالعمل الجاد... وسنبدأ بتسجيل تحركاتك أنت يا سيد كليمنت.

- بكل سرور. لقد تلقيت المكالمة الهاتفية في نحو الخامسة والنصف.

- أكان المتكلم رجلاً أم امرأة؟

- بل امرأة. بدا الصوت صوت امرأة على الأقل، وقد افترضت آلياً أن السيدة أبوت هي التي تتكلم.

- ولكنك لم تميز الصوت باعتباره صوت السيدة أبوت؟

- نعم، لا يمكنني القول إنني ميزته؛ لأنني لم ألق بالاً للصوت بشكل خاص ولم أفكر به.

- ثم انطلقت مباشرة؟ ذهبت مشياً؟ أليست لديك دراجة؟

- نعم، لا دراجة عندي.

- حسناً، كم استغرق منك الوصول؟

- المسافة نحو ميلين بغضّ النظر عن الطريق التي تسلكها.

- الطريق عبر غابة أولد هول هي الأقصر، أليس كذلك؟

- عملياً بلى، ولكنها ليست بالطريق الجيدة. لقد ذهبت عبر الممشى الترابي بين الحقول.

- الطريق الذي ينتهي أمام بوابة بيتك تماماً؟

- نعم.

- والسيدة كليمنت؟

- زوجتي كانت في لندن، وقد عادت في قطار الساعة السابعة إلاّ عشر دقائق.

- حسناً، والخادمة قابلتُها. هذا ينهي مهمتنا في بيت الكاهن. سأغادر إلى منزل أولد هول الآن، وبعدها أريد مقابلة السيدة ليسترينج، فمن الغريب أن تذهب لرؤية بروثيرو في الليلة التي سبقت مقتله... في هذه القضية الكثير من الغرائب!

وافقته على ذلك.

نظرت إلى ساعتي فأدركت أن ساعة الغداء قد حانت تقريباً. دعوت ميلتشيت ليشاركنا ما يتيسر من طعام، ولكنه اعتذر قائلاً إن عليه أن يذهب إلى فندق بلو بور، والفندق يقدم وجبات ممتازة من اللحم والخضار. ورأيت أن اختياره كان حكيماً؛ فالأغلب أن تكون ماري -بعد مقابلتها مع الشرطة- أكثر مزاجية من المعتاد.



الفصل الرابع عشر

في طريق عودتي إلى البيت صادفتني الآنسة هارتنيل وأخّرتني عشر دقائق على الأقل وهي تحتج بكل قوة وبصوتها الخشن العميق على قِصَر نظر الطبقات الدنيا وقلة عرفانها بالجميل. وبدا أن لب المشكلة يكمن في أن الفقراء لا يريدون الآنسة هارتنيل في بيوتهم. وقد كانت عواطفي معهم كلياً، ولكنني لا أستطيع التعبير -بحكم مكانتي الاجتماعية- عن أهوائي بالقوة التي يعبر بها الفقراء.

طيبت خاطرها ما وسعني ذلك ثم نجوت بنفسي. وأدركني هيدوك بسيارته عند منعطف طريق بيتي فنادى قائلاً: لقد أوصلت السيدة بروثيرو لتوّي إلى بيتها.

ثم انتظرني عند بوابة بيته وبادرني قائلاً: ادخل دقيقة.

وافقته ودخلت. وهناك قال وهو يرمي قبعته على أحد الكراسي ويفتح باب عيادته: هذه قضية غريبة جداً!

ألقى بنفسه على كرسي قديم وثير وحدق إلى الفراغ عبر الغرفة. بدا قلقاً حائراً.

أخبرته بأننا نجحنا في تحديد وقت الطلقة، وأصغى بشكل يكاد

يكون شروداً، ثم قال: هذا يعني تبرئة آن بروثيرو. حسناً، يسعدني أن لا يكون الفاعل أياً من هذين الاثنين؛ إنني أحبهما كليهما.

صدّقته، ومع ذلك خطر لي أن أتساءل عن السبب الذي يجعل براءتهما من التواطؤ على القتل تسبب له كل هذا التجهم إن كان يحبهما كما يقول. لقد بدا صباح هذا اليوم وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله، وها هو الآن يبدو شديد الانزعاج والقلق.

ومع ذلك كنت مقتنعاً بأنه كان يعني ما يقوله. كان يحب فعلاً آن بروثيرو ولورنس ريدنغ. ولكن لماذا إذن هذا الاستغراق المكتئب؟ عدّل من جلسته بشيء من الجهد وقال: أردت أن أخبرك عن هاوز. لقد نسيت أمره نتيجة ما مررنا به من ظروف.

- أهو مريض حقاً؟

- ليس به شيء خطير. أنت تعلم طبعاً أنه كان يعاني من التهاب الدماغ النعاسي، أو مرض النعاس كما يعرف عامياً، أليس كذلك؟

قلت وقد دهشت كثيراً: نعم، لا أعرف شيئاً من ذلك... إنه لم يخبرني بشيء من ذلك أبداً. متى أصيب به؟

- منذ نحو سنة، وقد شفي منه... شفي كأفضل ما يكون الشفاء. إنه مرض غريب... ذو تأثير معنوي غريب جداً. يمكن أن تتغير بعده شخصية المرء كلها.

سكت للحظات ثم قال: إننا نستذكر الآن بشيء من الرعب ما كنا نفعله من حرق الساحرات. وستأتي علينا -كما أظن- أيام نرتعد فيها إذ نتذكر إعدامنا للمجرمين.

- أنت لا تؤمن -إذن- بعقوبة الإعدام؟

- ليس الأمر كذلك.

سكت ثم قال ببطء: أتدري، إنني أفضّل ممارسة مهنتي على ممارسة مهنتك.

- لماذا؟

- لأن مهنتك تتعامل إلى حدٍّ بعيد مع ما نسميه: «الصواب والخطأ»... وأنا لست واثقاً تماماً من وجود شيء كهذا. افترض أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مسألة إفرازات غددية. زيادة إفراز في غدة معينة، ونقص إفراز في غدة أخرى... وينتج عن ذلك القاتل أو السارق أو المجرم المزمن. إنني أعتقد يا كليمنت أنه سيأتي وقت ننظر فيه برعب إلى القرون الطويلة التي أمضيناها ونحن نعاقب الناس على أمراض لا حيلة لهم فيها. إنك لا تشنق رجلاً لإصابته بالسل!

- ذلك أنه لا يشكل خطراً على المجتمع.

- بل يشكل خطراً في وجهٍ من الوجوه؛ إنه يُعدي الآخرين. أو خذ مثلاً رجلاً يرى نفسه إمبراطور الصين، إنك لا تطلق صفة الشر على تصرفاته. إنني أفهم وجهة نظرك بشأن المجتمع وضرورة حمايته. يمكنك أن تحجز هؤلاء الناس حيث لا يستطيعون إيذاء أحد، بل حتى أن تتخلص منهم بشكل سلمي، نعم يمكن أن أوافقك حتى على ذلك، ولكن لا تسمِّ ذلك عقاباً، لا تجلب العار عليهم وعلى عائلاتهم البريئة.

نظرت إليه بفضول وقلت: لم أسمعك أبداً تتحدث هكذا من قبل!

- أنا لا أستعرض نظرياتي عادة على الملأ، أما اليوم فإنني أطرق موضوعي المفضل. أنت ذكي يا كليمنت، ولا أظنك ستعترف بعدم وجود ما يُسمى فنياً «الخطيئة»، ولكن لك من سعة الأفق ما يجعلك تفكر -على الأقل- في مثل هذا الاحتمال.

- إن ذلك يضرب في الصميم كل الأفكار المستقرة.

- نعم، إننا أناس ضيّقو الأفق، شديدو التزمّت، أحرَصُ ما نكون على إطلاق الأحكام في قضايا لا نعرف عنها شيئاً. أنا أعتقد -بصدقٍ- أن الجريمة موضوع ينبغي أن يعالجه الأطباء، لا الشرطة، وربما لا نجد في المستقبل شيئاً من أساليب معالجتنا الراهنة.

- أكنتم ستشفون المجتمع من الجريمة؟

- نعم، كنا سنشفيه، وهي فكرة رائعة. هل سبق لك أن درست إحصائيات الجرائم؟ لا... قليلون هم من درسوها، وأنا من هؤلاء القليل. لو درستَها لأدهشك مقدار جرائم المراهقين، وهنا نعود إلى مسألة الغدد. خذ مثلاً الشاب نيل، قاتل منطقة أوكسفوردشير؛ قتل خمس فتيات صغيرات قبل أن يشك به أحد. وكان شاباً لطيفاً، لم تبدر منه أية مشكلات. خذ ليلي روز، الفتاة الصغيرة من كورن وول، قتلت عمها لأنه قلّل عليها الحلويات. ضربته بمطرقة وهو نائم، ثم ذهبت إلى بيتها، وبعد أسبوعين قتلت أختها الكبرى من أجل قضية تافهة. لم يشنق أي منهما بالطبع، بل أُرسلا إلى بيتٍ للأحداث. ربما تحسّنا لاحقاً وربما لم يتحسّنا. وأنا أشك في إمكانية تحسن الفتاة، فالأمر الوحيد الذي

كانت تهتم له هو رؤية قتل الخنازير. أتعلم السنّ التي تسجل فيها أعلى النسب في حالات الانتحار؟ بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر، ولا يتطلب الانتقال من قتل النفس إلى قتل الآخرين قطع خطوة كبرى! ولكن الأمر ليس نقصاً خُلُقياً.. إنه نقص جسمي فيزيائي.

- إن ما تقوله فظيع!

- أبداً، كل ما في الأمر أنه جديد عليك. لا بد من مواجهة الحقائق الجديدة، وتعديل أفكار المرء. ولكن ذلك... يجعل الحياة صعبة أحياناً.

جلس هناك متجهماً وعليه سيماء غريبة من السأم والإرهاق. قلت له: هيدوك، إذا اشتبهتَ، أو إذا عرفت أن شخصاً ما قاتلٌ فهل ستسلمه للعدالة أم ستميل إلى التستر عليه؟

لم أكن مستعداً أبداً للتأثير الذي أحدثه سؤالي. التفت إليّ غاضباً مرتاباً وقال: ما الذي يجعلك تقول ذلك يا كليمنت؟ ما الذي في ذهنك؟ أخرجه يا رجل.

قلت وقد فوجئت قليلاً: لا شيء خاصاً. كل ما في الأمر أن جريمة القتل تشغل بالنا في هذه الفترة، وقد تساءلتُ كيف سيكون شعورك إن صدف واكتشفتَ الحقيقة، هذا كل ما في الأمر.

تلاشى غضبه، وحدّق ثانية أمامه كمن يحاول قراءة حلٍ لمعضلة تحيره رغم أنها لا توجد إلاّ في ذهنه، ثم قال: إذا ما ارتبت... إذا ما عرفت... فسوف أقوم بواجبي يا كليمنت. هذا ما آمله على الأقل.

- السؤال هو: ما الذي ستعتبره واجبك؟

نظر إليّ بعينين لا يُدرَكُ غورهما وقال: أحسب أن ذلك السؤال يا كليمنت يواجه كل امرئ في مرحلةٍ ما من حياته، وعلى كل واحد أن يحدد طريقه بنفسه.

- أنت لا تدري؟

- نعم، لا أدري.

شعرت أن أفضل شيء هو تغيير الموضوع فقلت: إن ابن أخي يستمتع بالقضية أيما استمتاع، ويقضي كل وقته في البحث عن آثار أقدامٍ ورمادِ لفائف تبغ.

ابتسم هيدوك وقال: كم عمره؟

- في السادسة عشرة فقط. لا يأخذ المرء المآسي بصورة جدية في مثل هذا العمر؛ إذ لا يرى فيها إلاّ شيرلوك هولمز وأرسين لوبين.

قال هيدوك متأملاً: إنه يبدو فتى رائعاً، ما الذي ستفعل له؟

- أخشى أن لا أستطيع دفع تكاليف تعليمه الجامعي. إنه يريد الالتحاق بالأسطول التجاري؛ فقد فشل في الالتحاق بسلاح البحرية.

- إنها حياة صعبة، ولكن كان يمكن لحياته أن تكون أسوأ. نعم، كان يمكن أن تكون أسوأ.

قلت وقد لمحت ساعتي: علي أن أذهب. لقد تأخرت نحواً من نصف ساعة عن موعد الغداء.

كان أفراد الأسرة قد جلسوا لتوهم على المائدة عندما وصلت، وقد طلبوا تقريراً كاملاً عن مجريات الصباح، وهو ما قمت بتقديمه وأنا أشعر بأن تلك المجريات كانت تشكل تباطؤاً في الأحداث وتراجعاً للإثارة. ومع ذلك فقد استمتع دينيس كثيراً بقصة المكالمة الهاتفية التي تلقتها السيدة برايس ريدلي، وانتابته نوبات من الضحك وأنا أبالغ في وصف الصدمة العصبية التي تلقتها والتي احتاجت معها لشرب الليمون. ثم هتف قائلاً: تستحق القطة العجوز كل ذلك؛ إن لها أسوأ لسان في القرية. ليتني فكرت في مخابرتها وترويعها. ما رأيك يا عم لين بإعطائها جرعة ثانية؟

سارعت إلى التوسل إليه كيلا يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ فليس ما هو أخطر من الجهود التي تبذلها الأجيال الأصغر سناً -بكل نية حسنة- بهدف مساعدتك وإظهار التعاطف معك.

تغير مزاج دينيس فجأة، فتجهم وجهه واتخذ سمت ذوي الخبرة الواسعة وقال: لقد قضيتُ معظم الصباح مع ليتيس، وهي -حقاً- قلقة جداً. إنها لا تريد إظهار ذلك، ولكنها قلقة جداً في الواقع.

قالت غريزلدا وهي تلقي برأسها إلى الوراء: هذا ما آمله لها.

غريزلدا لا تحب ليتيس كثيراً. قلت لها: لا أظنك تنصفينها أبداً.

سكتت غريزلدا وسكتُّ أنا، فيما استمر دينيس قائلاً: إنها لا تتحدث مع كثير من الناس، ولكنها تتحدث معي أنا. وهي قلقة جداً من الأمر كله، وترى أنه لا بد من فعل شيء تجاه هذا الأمر.

قلت: ستجد أن المفتش سلاك يشاطرها هذا الرأي. إنه ذاهب إلى منزل أولد هول عصر اليوم، ولا شك أنه سيجعل حياة الجميع جحيماً لا يطاق في معرض سعيه للوصول إلى الحقيقة.

سألَتْ زوجتي فجأة: وما هي الحقيقة برأيك يا لين؟

- من الصعب الجزم يا عزيزتي؛ لا أستطيع الزعم بأنني أعرف.

- أقلتَ إن المفتش سلاك سيقوم بتتبع تلك المكالمة الهاتفية... أعني المكالمة التي حملتك على الذهاب إلى عائلة أبوت؟

- نعم.

- ولكن، أيستطيع ذلك؟ أليس ذلك من أصعب الأمور؟

- لا أظن ذلك صعباً؛ فالبدالة تحتفظ بسجل للمكالمات.

- آه!

ثم عادت زوجتي لتغرق في التفكير، فيما قال ابن أخي: لماذا غضبت مني كثيراً يا عم لين صباح اليوم عندما مازحتك بشأن تمنّيك أن يُقتَل الكولونيل بروثيرو؟

- لأن لكل شيء وقتاً. إن المفتش سلاك لا يعرف المزاح؛ لقد أخذ كلماتك على محمل الجد تماماً، وربما اعتقلني بسببها.

- ألا يدرك متى يكون المرء مازحاً في كلامه؟

- نعم، لا يدرك. لقد وصل إلى موقعه الحالي بالجد وبإيلاء الواجب كل انتباهه فلم يبقَ له وقت للتسليات الصغيرة في الحياة.

- أتحبه يا عم لين؟

- لا ، لا أحبه. لقد كرهته بشدة منذ أن رأيته، ولكني لا أشك في أنه رجل ناجح في مجال عمله.

- أتظن أنه سيعثر على من أطلق النار على بروثيرو؟

- إن لم يعثر عليه فلن يكون ذلك من قلة المحاولة.

ظهرت ماري وقالت: السيد هاوز يريد رؤيتك، إنه في غرفة الجلوس. وها هي رسالة تنتظر جواباً، ولا بأس أن يكون شفهياً.

فتحت الرسالة وقرأتها:

عزيزي السيد كليمنت... سأكون في غاية الامتنان لك إن استطعت المجيء لرؤيتي عصر اليوم في أبكر وقت ممكن. إنني في مأزق عظيم وأحتاج إلى مشورتك.

المخلصة: إيستيل ليسترينج

قلت لماري: "قولي لحامل الرسالة إنني سأذهب في غضون نصف ساعة"، ثم ذهبتُ إلى غرفة الجلوس لرؤية هاوز.

* * *

الفصل الخامس عشر

أقلقني كثيراً مظهر هاوز. كانت يداه ترتجفان وظل وجهه يتلوى بعصبية. كان عليه -في رأيي- أن يلزم سريره، وقد أخبرته بذلك فأصرّ على أنه في أحسن حال وقال: أؤكد لك يا سيدي أنني لم أشعر يوماً بأنني أفضل مني الآن، ولا في حياتي كلها.

كان واضحاً تماماً أن ذلك يبعد عن الحقيقة إلى الحد الذي لم أعرف معه كيف أجيبه. إنني أُكنّ إعجاباً للرجل الذي لا يستسلم للمرض، ولكن هاوز كان يتجاوز في ذلك كل مدى. قال أخيراً: لقد جئت لأعبر لك عن مقدار أسفي لحدوث مثل هذا الأمر في بيتك الذي يشكل جزءاً من وقف الكنيسة.

- نعم، إنه ليس بالأمر السار.

- إنه فظيع، فظيع تماماً. يبدو أنهم لم يعتقلوا السيد ريدنغ في نهاية الأمر، أليس كذلك؟

- بلى، كان ذلك خطأً. لقد أدلى بإفادة تتسم بالحماقة.

- وهل الشرطة مقتنعون تماماً الآن بأنه بريء؟

- نعم، تماماً.

- هل لي أن أسأل لماذا؟ ألأنهم... أعني: هل يشكّون بغيره؟

ما كنت لأعتقد أبداً أن من شأن هاوز أن يهتم بقضية قتلٍ إلى هذه الدرجة. ربما كان ذلك لأن الجريمة وقعت في حرم الكنيسة. بدت عليه لهفة أشبه بلهفة الصحفيين. قلت: لا أظن أن المفتش سلاك يأتمنني على دخيلة نفسه. ولكنه -حسبما أعرف- لا يشك بأحد تحديداً. إنه مشغول حالياً بإجراء تحرياته.

- نعم، نعم، بالطبع. ولكن من عساه يقدم على فعل مثل هذا الأمر؟

هززت رأسي حيرة فقال: أعرف أن الكولونيل بروثيرو لم يكن رجلاً محبوباً، ولكن ليس إلى درجة أن يقتل! فالمرء يحتاج إلى دافع قوي حتى يَقتُل.

- هذا ما أظنه.

- منذا عساه يمتلك مثل هذا الدافع؟

- لا أدري.

- كلما فكرت في الأمر ازددت قناعة بأنه من ذلك النوع الذي يكسب الأعداء؛ إنه معروف بقسوته الشديدة في المحكمة.

- نعم، أظنه كذلك.

- ألا تذكر يا سيدي؟ لقد كان يخبرك صباح أمس كيف أنه تلقى تهديداً من ذلك الرجل آرتشر.

- الآن تذكرت ذلك، نعم. كنتَ قريباً منا تماماً وقتها.

- نعم، لقد سمعتُ ما كان يقوله. يكاد يستحيل على المرء أن لا يسمع كلام بروثيرو بصوته القوي العالي، أليس كذلك؟ وأذكر أنني تأثرت بكلماتك أنت، بأنه عندما يحين أوان حسابه فلن يجد جزاء له الرحمة بل هو لن يجد إلاّ العدالة.

سألته متجهماً: "هل قلتُ ذلك؟"، فقد كان ما أذكره من كلماتي مختلفاً قليلاً عن هذا.

- لقد قلتَها بأسلوب مؤثر جداً يا سيدي. لقد هزتني كلماتك، فالعدالة مسألة فظيعة. ثم جاء مصرع المسكين بعد ذلك بوقت قصير. يبدو الأمر وكأن لديك قوة تنبؤ.

قلت باقتضاب: ليس عندي شيء من ذلك.

- هل أخبرت الشرطة عن هذا الرجل آرتشر يا سيدي؟

- إنني لا أعرف شيئاً عنه.

- أعني هل كررت لهم ما قاله الكولونيل بروثيرو... حول تهديد آرتشر له؟

قلت ببطء: لا؛ لم أفعل.

- ولكنك ستخبرهم؟

بقيت ساكتاً، فأنا أكره الإصرار على ملاحقة رجل تقف ضده أساساً قوى الحفاظ على الأمن والنظام. ومع ذلك فإنني لا أريد

الدفاع عن آرتشر، فهو سارق طيور مدمن... واحد من أولئك الرجال المرحين المتحالفين مع الفشل ممن يراهم المرء دائماً. ومهما كانت أقواله في حمأة غضبه لدى إصدار الأحكام ضده، فإنني لا أملك معلومات مؤكدة تفيد أن مشاعره تبقى على حالها بعد خروجه من السجن. ولذلك قلت أخيراً: لقد سمعتَ المحادثة، فإن كنت ترى أن من واجبك أن تذهب بها إلى الشرطة فعليك القيام بذلك.

- ولكنها ستكون أفضل لو أتت منك يا سيدي.

- ربما، ولكنني -بصراحة- لا أرغب بهذا؛ فربما كنت أساعد بذلك في وضع الحبل حول رقبة رجل بريء.

- ولكن لو كان هو الذي قتل الكولونيل...

- آه، إنها مجرد «لو»! ليس من دليل على أنه فعل ذلك.

- وتهديداته.

- لم تكن التهديدات -بالمعنى الحرفي للكلمة- تهديداته هو بل تهديدات بروثيرو. كان الكولونيل بروثيرو يهدد بأنه سيُري آرتشر ما هو معنى الانتقام إذا ما أمسك به ثانية.

- إنني لا أفهم موقفك يا سيدي.

قلت سَئِماً: حقاً؟ إنك شاب صغير، متحمس لقضية الحق. ولكنك ستجد -عندما تصل إلى عمري- أنك تميل إلى إعطاء الناس فائدة أخذِهم على محمل حسن النية.

قال: "الأمر ليس... أعني..."، ثم توقف، ونظرت إليه بدهشة

فقال: أليست لديك أية فكرة... أعني عن هوية القاتل؟

- يا إلهي! أبداً.

أصر هاوز قائلاً: أو عن... الدافع؟

- لا. ألديك أنت؟

- أنا؟ كلا في الواقع. كنت أتساءل فقط. إن كان الكولونيل قد... قد أفضى لك بالأمر بأية طريقة... أو ذكر شيئاً...

قلت ببرود: إن ما أفضى به -كائناً ما كان- سمعه كل من كان في شارع القرية صباح أمس.

- نعم، نعم بالطبع. وأنت، ألا ترى... بشأن آرتشر؟

- سرعان ما سيعرف الشرطة كل شيء بخصوص آرتشر. لو كنت سمعته شخصياً يهدد بروثيرو لاختلف الأمر، ولكن تأكد أنه لو هدد بروثيرو فعلاً فإن نصف أهل القرية قد سمعوه، وسرعان ما يصل الأمر إلى مسامع الشرطة دون شك. أما أنت فعليك طبعاً أن تفعل ما تشاء في هذا الأمر.

ولكن بدا أن هاوز متردد على نحو غريب في فعل أي شيء. كان مجمل سلوك الرجل عصبياً وغريباً، وتذكرت ما قاله هيدوك عن مرضه، وافترضت أن تفسير سلوكه يكمن في هذه النقطة.

استأذن للانصراف متردداً، وكأن لديه المزيد مما يريد قوله ولا يعرف كيف يقوله. وقبل أن يغادر رتّبت معه أن يتولى القيام عني ببعض

الأنشطة؛ فقد كانت لدي مشاريعي الخاصة لعصر هذا اليوم.

وبعد أن صرفت هاوز ومشكلاته عن ذهني انطلقت إلى السيدة ليسترينج. وعلى الطاولة في الصالة كانت صحيفة الغارديان موضوعة غير مفتوحة. وفيما كنت أمشي تذكرت أن السيدة ليسترينج كانت قد قابلت الكولونيل بروثيرو في الليلة التي سبقت مقتله، وربما كان شيء ما قد تسرب في تلك المقابلة مما يمكن أن يلقي الضوء على مشكلة قتله.

فُضِّلتُ مباشرة إلى غرفة الجلوس الصغيرة، ونهضَت السيدة ليسترينج لاستقبالي. دهشتُ مجدداً لذلك الجو الرائع الذي تستطيع هذه المرأة إشاعته. كانت ترتدي ثوباً من قماش أسود قاتم، وكان ثمة ما يوحي بالموت على نحو غريب في وجهها. عيناها فقط كانتا تشتعلان حياة، وكانت بهما اليوم نظرة ترقب واحتراس. وفيما عدا ذلك لم تُظهر أية إشارة حيوية. قالت وهي تصافحني: أشكرك كثيراً على قدومك يا سيد كليمنت. لقد أردت التحدث معك في المرة الماضية، ثم قررت أن لا أتحدث، وكنت مخطئة في ذلك.

- كما قلتُ لكِ وقتها، يسعدني القيام بكل ما أستطيعه لمساعدتك.

- نعم، لقد قلتَ ذلك، وقد قلتَه كما لو كنت تعنيه. قليلون جداً في هذا العالم رغبوا مخلصين في مساعدتي يا سيد كليمنت.

- لا أكاد أصدق ذلك يا سيدة ليسترينج.

- إنه صحيح. معظم الناس... أو لنقل بالأحرى: معظم الرجال لا يلتفتون إلاّ لمصالحهم الخاصة.

كانت في صوتها مرارة. سكتُّ ولم أُجب فمضت قائلة: اجلس من فضلك.

جلستُ فيما اتخذت هي كرسياً قبالتي. ترددَتْ لحظة ثم بدأت تتكلم بكل بطء وتأنٍ وهي تبدو كمن يزن كل كلمة قبل النطق بها: إنني في موقف غريب جداً يا سيد كليمنت، وأريد أن أطلب نصيحتك. أي أنني أريد أن تنصحني فيما يتوجب عليّ فعله تالياً؛ فما مضى قد مضى ولا يمكن تغييره. أتفهمني؟

وقبل أن أستطيع الإجابة فتحت الباب الخادمة التي أدخلتني وقالت ووجهها ممتلئ رعباً: آه! رجاء يا سيدتي، يوجد هنا مفتش شرطة، ويقول إنه يريد التحدث إليك، رجاء.

ساد صمت قصير. لم يتغير وجه السيدة ليسترينج، وحدهما عيناها أطبقتا ثم فتحتا ببطء شديد. بدا أنها ازدردت لعابها مرة أو مرتين، ثم قالت بنفس ذلك الصوت الواضح الهادئ: أدخليه يا هيلدا.

كنت على وشك النهوض، ولكنها أشارت لي بالجلوس ثانية بيدٍ آمرة وقالت: إن كنت لا تمانع... سأكون ممتنة كثيراً لو بقيت.

جلست ثانية وأنا أتمتم قائلاً: بالتأكيد، إن كنتِ ترغبين بذلك.

وسرعان ما دخل سلاك بخطوته النظامية الرشيقة وقال: طاب مساؤك يا سيدتي.

- طاب مساؤك أيها المفتش.

في تلك اللحظة وقعت عينه عليّ فعبس. ما من شك في أن سلاك

لا يحبني. قالت مضيفتنا: أرجو أن لا تعارض في بقاء الكاهن؟

أحسب أنه لم يكن بمقدور سلاك أن يقول إن لديه اعتراضاً. قال متذمراً: كـ...كلا، رغم أنه قد يكون من الأفضل...

لم تلقِ السيدة ليسترينج لإشارته بالاً، وسألته: بماذا أستطيع مساعدتك أيها المفتش؟

- الأمر كالتالي: إنني توليتُ قضية مقتل الكولونيل بروثيرو، وأقوم ببعض التحريات.

أومأت السيدة ليسترينج برأسها فمضى قائلاً: وكإجراء شكلي فقط فإنني أسأل الجميع أين كان كل منهم مساء أمس بين الساعة السادسة والسابعة. كإجراء شكلي فقط، إن كنتِ تفهمينني.

- أتريد أن تعرف أين كنتُ مساء أمس بين السادسة والسابعة؟

- إن سمحتِ يا سيدتي.

قطبت جبينها لحظة ثم قالت: كنت هنا، في هذا البيت.

رأيت عيني المفتش تلتمعان وهو يقول: آه! وهل تستطيع خادمتك -التي لا أظن أن لديك غيرها- أن تؤكد قولك هذا؟

- لا، فقد كان مساء أمس عطلتها الدورية.

- فهمت.

قالت السيدة ليسترينج بمرح: ولذلك فليس أمامك -مع الأسف- إلاّ الاعتماد على كلمتي وحدها.

- أنت تعلنين جدياً -إذن- أنك كنت في البيت طوال مساء أمس؟

- لقد قلتَ بين السادسة والسابعة أيها المفتش. خرجتُ للنزهة سيراً على الأقدام في وقت سابق من عصر أمس، وقد عدت في وقتٍ ما، قبل الخامسة بقليل.

- وإذا ما أعلنت سيدة -ولنقل الآنسة هارتنيل مثلاً- أنها جاءت هنا في نحو السادسة وقرعت الجرس ولم تلقَ جواباً بحيث اضطرت للعودة، أتقولين عندها إنها مخطئة؟

هزت السيدة ليسترينج رأسها بالنفي وقالت: آه، لا.

- ولكن...

- إن كانت خادمتكَ موجودة فبوسعك إرسالها لتقول إنكَ لست في البيت، ولكن إن كان المرء بمفرده وصدف أنه لا يريد رؤية زوار فإن كل ما يستطيع فعله عندها هو تركهم يقرعون الجرس.

بدا المفتش سلاك متحيراً قليلاً، فقالت السيدة ليسترينج: إن النساء الكهلات يثرن فيّ السأم الشديد، والآنسة هارتنيل مملة بشكل خاص. أظنها قرعت الجرس خمس مرات على الأقل قبل أن تذهب.

ثم ابتسمت بعذوبة للمفتش سلاك الذي بدل منحى أسئلته: إذا قُدِّر لأحد أن يقول إنه رآك خارجة في مثل ذلك الوقت...

- آه! ولكن أحداً لم يقل ذلك، أليس كذلك؟

كانت سريعة في تلقّف نقطة ضعفه، فأضافت تقول: لم

يشاهدني أحد في الخارج؛ لأني كنت في الداخل كما قلت لك.

- صحيح تماماً يا سيدتي.

قدّم المفتش كرسيه قليلاً وقال: فهمتُ يا سيدتي أنك قمت بزيارة للكولونيل بروثيرو في منزله في الليلة التي سبقت مقتله؟

قالت السيدة ليسترينج بهدوء: هذا صحيح.

- هل يمكنك أن تعطيني لمحة عن مضمون تلك الزيارة؟

- كانت تتعلق بقضية خاصة أيها المفتش.

- أخشى أن من واجبي سؤالك عن طبيعة تلك القضية الخاصة.

- لن أخبرك شيئاً من هذا القبيل. سأكتفي بأن أؤكد لك أن شيئاً مما قيل في تلك المقابلة لا يمكن أن تكون له علاقة بالجريمة.

- لا أظنكِ أفضل من يحكم على ذلك.

- على كل حال ستضطر للاعتماد على ما أقوله أنا في هذا الشأن أيها المفتش.

- إنني -في الواقع- مضطر للاعتماد على ما تقولينه في الأمور كلها كما يبدو.

وافقتْه قائلةً وهي ما تزال على نفس الهدوء المبتسم: يبدو الأمر كذلك بالفعل.

احمرّ وجه المفتش سلاك كثيراً وقال: "هذه قضية جدية يا سيدة

ليسترينج. إنني أريد الحقيقة..."، ثم ضرب بقبضته على الطاولة وأضاف: وأنا أنوي الحصول عليها.

لم تقل السيدة ليسترينج شيئاً على الإطلاق، فقال المفتش: ألا ترين يا سيدة أنك تضعين نفسك في موضع الشك الكبير؟

مرة أخرى لم تقل السيدة ليسترينج شيئاً، فقال المفتش: سيتعين عليك أن تدلي بشهادتك في التحقيق.

-نعم.

لم تزد على هذه الكلمة شيئاً، وقالتها دون تشديد أو اهتمام. غيّر المفتش أسلوبه وقال: أكنت على معرفة بالكولونيل بروثيرو؟

- نعم، كنت على معرفة به.

- معرفة وثيقة؟

سكتت قليلاً قبل أن تجيب: لم أكن قد رأيته منذ عدة سنوات.

- وهل كنت على معرفة بالسيدة بروثيرو؟

- لا.

- اعذريني، ولكن زيارتك له كانت في وقت غير طبيعي أبداً ولا يصلح لزيارة الناس.

- ليس من وجهة نظري.

- ماذا تعنين بذلك؟

- أردت أن أرى الكولونيل بروثيرو بمفرده. لم أرغب برؤية زوجته أو ابنته؛ واعتبرت ذلك أفضل طريقة لتحقيق هدفي.

- ولماذا لم ترغبي برؤية السيدة أو الآنسة بروثيرو؟

- هذا أمر يخصني أنا أيها المفتش.

- أنت -إذن- ترفضين قول المزيد؟

- تماماً.

نهض المفتش سلاك قائلاً: ستضعين نفسك في موقف سيء يا سيدتي إن لم تحذري. هذا كله يبدو سيئاً... يبدو سيئاً جداً.

ضحكت. وكان بودّي أن أقول للمفتش سلاك إن هذه ليست من النساء اللاتي يمكن تخويفهن بسهولة.

قال وهو ينسحب بما بقي له من كرامة: حسناً، لا تقولي إنني لم أحذرك، هذا كل ما في الأمر. طاب مساؤك يا سيدتي، وتذكري أننا سنصل إلى الحقيقة.

ثم غادر، فنهضت السيدة ليسترينج ومدت يدها إليّ قائلة: سأودعك... نعم، هذا أفضل. لقد فات وقت النصيحة الآن. لقد اخترت دوري.

ثم كررت بصوت فيه شيء من الوحدة والكآبة: لقد اخترت دوري.

* * *

الفصل السادس عشر

كدت أصطدم -وأنا خارج- بالدكتور هيدوك على عتبة البيت. كان قد التفت لينظر بحدة إلى سْلاك الذي كان يعبر البوابة لتوه، ثم سألني: أكان يحقق معها؟

- نعم.

- أرجو أن يكون قد تصرف بتهذيب؟

التهذيب برأيي فنٌّ لم يتعلمه سلاك أبداً، ولكنني افترضت أنه كان مهذباً وفقاً لمعاييره هو، كما أنني لم أرد على أية حال أن أزيد في إزعاج هيدوك؛ فقد كان يبدو قلقاً منزعجاً أساساً، ولذلك قلت إنه كان مهذباً تماماً.

أومأ هيدوك برأسه ودخل المنزل فيما مضيت أنا عبر شارع القرية حيث ما لبثت أن لحقت بالمفتش. ويخيل لي أنه كان يمشي متمهلاً عن قصد؛ إذ بالغاً ما بلغ كرهه لي، لم يكن المفتش بالرجل الذي يدع الكراهية تقف في طريق اكتسابه لمعلومة مفيدة.

سألني مباشرة ودون مواربة: هل تعرف شيئاً عن المرأة؟

قلت له إنني لا أعرف شيئاً أبداً، فسألني: ألم تقل شيئاً عن سبب قدومها للعيش هنا؟

- لم تفعل.

- ومع ذلك ذهبتَ ورأيتها؟

أجبته متفادياً الإشارة إلى أنني استُدعيت لرؤيتها: إن زيارة أعضاء أبرشيتي تشكل أحد واجباتي.

- هممم، أظنها كذلك.

سكتَ لحظات ثم مضى يقول وكأنه لا يستطيع مقاومة إغراء الحديث عن فشله الأخير: يبدو لي الأمر مريباً.

- أترى ذلك؟

- إن سألتني لقلت لك إنه موضوع «ابتزاز». يبدو ذلك غريباً عندما يفكر المرء بكل ما كان يُفترض بالكولونيل بروثيرو أن يكونه، ولكن هذه هي الدنيا، لا يستطيع المرء أن يحزر الناس. لن يكون أول راعي كنيسة ذي حياة سرية أخرى.

طافت بذهني ذكريات باهتة لملاحظات أبدتها الآنسة ماربل عن نفس الموضوع. قلت له: أتظن حقاً أن ذلك محتمل؟

- إنه تفسير يناسب الحقائق يا سيدي. لماذا تأتي سيدة أنيقة جميلة إلى مثل هذه المنطقة البائسة الصغيرة؟ لماذا تذهب وتراه في ذلك الوقت الغريب المستهجن؟ لماذا تجنبت رؤية السيدة والآنسة بروثيرو؟ نعم، الأمر كله ينسجم بعضه مع بعض. شيء رهيب بالنسبة

لها أن تعترف، فالابتزاز جرم يعاقب عليه القانون. ولكننا سنحصل منها على الحقيقة، فربما كان لها علاقة وثيقة بالقضية. إن كان للكولونيل بروثيرو سر دفين في حياته يشعر إزاءه بالذنب... شيء مشين مثلاً، فبوسعك أن ترى بنفسك أيّ مجال ينفتح بذلك.

أحسب أن مجالاً قد انفتح فعلاً.

- كنت أحاول حمل كبير الخدم على الكلام. ربما كان قد سمع شيئاً من الحديث الذي دار بين الكولونيل بروثيرو والسيدة ليسترينج. الخدم يسمعون أحياناً، ولكنه أقسم أنه لا يعرف شيئاً أبداً عن موضوع الحديث. وبالمناسبة فقد طُرد من عمله بسبب ذلك؛ فقد هاجمه الكولونيل غاضباً من إدخاله لها، وقد رد كبير الخدم بأن قدّم إشعاراً بترك العمل. قال إن المكان لم يعجبه أساساً وإنه كان يفكر بالمغادرة منذ وقت طويل.

- غريب.

- وهذا ما يعطينا شخصاً آخر يحمل ضغينة للكولونيل.

- لا أظنك تشتبه به جدياً... ما هو اسمه بالمناسبة؟

- اسمه ريفز، وأنا لا أقول إنني أشك به فعلاً. ما أقوله هو أن المرء لا يستطيع الجزم؛ إنني لا أرتاح لخُلُقه المتملق المداهن ذاك.

تساءلت ما الذي يمكن لريفز أن يقوله عن خُلُق المفتش سلاك.

قال: إنني ذاهب لاستجواب السائق الآن.

قلت له: ربما استطعتَ -إذن- أن تأخذني معك في سيارتك. أريد أن أرى السيدة بروثيرو قليلاً؟

- لماذا؟

- بشأن ترتيبات الجنازة.

- آه!

بدا المفتش وكأنه فوجئ، ثم قال: جلسة التحقيق غداً، السبت.

- نعم، ربما تم ترتيب أمر الجنازة لتكون يوم الثلاثاء.

بدا المفتش سلاك وكأنه خجِلٌ قليلاً من جفائه معي، وقد حاول أن يتلطف بدعوتي للحضور في مقابلته مع السائق المدعو مانِنغ.

كان مانِنغ فتى لطيفاً لم يتجاوز الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره. وكان كمن يرى في المفتش مصيبة تؤرقه. قال سلاك: حسناً يا فتاي، أريد معلومة صغيرة منك.

تمتم الشاب متلعثماً: "نعم يا سيدي، بالتأكيد". ولو كان هو نفسه الذي ارتكب الجريمة لما بدا أكثر ذعراً مما هو الآن.

- لقد أخذت سيدك إلى القرية أمس؟

- نعم يا سيدي.

- في أي وقت؟

- في الخامسة والنصف.

- والسيدة بروثيرو ذهبت أيضاً؟

- نعم يا سيدي.

- وهل ذهبتَ مباشرة إلى القرية؟

- نعم يا سيدي.

- ولم تتوقف في أي مكان على الطريق؟

- نعم يا سيدي.

- وماذا فعلتَ عندما وصلت هناك؟

- أخبرني الكولونيل بأنه لن يحتاج السيارة ثانية وأنه سيعود إلى البيت مشياً. كان لدى السيدة بروثيرو أشياء تريد شراءها، وقد وضعَت الأكياس في السيارة، ثم قالت إن ذلك يكفي فرجعتُ إلى البيت.

- تاركاً إياها في القرية؟

- نعم يا سيدي.

- في أي وقت كان ذلك؟

- في السادسة والربع يا سيدي، في السادسة والربع تماماً.

- أين تركتها؟

- قرب الكنيسة يا سيدي.

- هل أشار الكولونيل أية إشارة إلى أين كان يعتزم الذهاب؟

- قال شيئاً عن اضطراره لرؤية الطبيب البيطري... بشأن أحد الخيول كما أظن.

- فهمت، وهل قدت السيارة مباشرة إلى المنزل هنا؟

- نعم يا سيدي.

- لمنزل أولد هول مدخلان؛ جنوبي وشمالي، وأظن أن الذهاب إلى القرية يقتضي استخدام المدخل الجنوبي، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، دائماً.

- وقد عدتَ من نفس الطريق؟

- نعم يا سيدي.

- همم، أظن أن هذا كل ما لدي. آه! ها هي الآنسة بروثيرو.

جاءت ليتيس نحونا وقالت: أريد سيارة الفيات ياماننغ، هل لك أن تشغّلها لي؟

- حسناً يا آنستي.

ذهب باتجاه سيارة ذات مقعدين ورفع غطاء محركها.

قال المفتش سلاك: لحظة يا آنسة بروثيرو... من الضروري أن أسجل تحركات الجميع مساء أمس، دون أن يعني ذلك أية إساءة.

نظرت ليتيس إليه وقالت: لا أعرف وقت أي شيء أقوم به.

- علمت أنك خرجت مباشرة بعد الغداء أمس؟

أومأت بالإيجاب فقال: إلى أين ذهبت، من فضلك.

- ذهبتُ للعب التنس.

- مع من؟

- مع عائلة هارتلي نابيير.

- في قرية مَتش بينهام؟

- نعم.

- ومتى عدت؟

- لا أدري، قلت لك إنني لا أعرف هذه الأشياء.

قلت: لقد عدتِ في نحو السابعة والنصف.

قالت: هذا صحيح، عدت في وسط المعمعة، حيث كانت آن تتعرض لنوبات وغريزلدا تعتني بها.

قال المفتش: شكراً لك يا آنسة، هذا كل ما أردت معرفته.

قالت الفتاة: ما أغرب ذلك، يبدو الأمر خالياً من أية إثارة!

ثم تحركت باتجاه السيارة.

لمس المفتش جبينه كمن يفعل ذلك خلسة وقال: مهزوزة قليلاً؟

- أبداً، ولكنها تحب أن يُعتقد فيها ذلك.

- حسناً، سأذهب لاستجواب الخادمات الآن.

لا يمكن للمرء حقاً أن يحب سلاك، ولكنه يمكن أن يعجب بطاقته ونشاطه. افترقنا وسألت ريفز إن كان بوسعي رؤية السيدة بروثيرو فقال: إنها مستلقية الآن يا سيدي.

- إذن فمن الأفضل أن لا أزعجها.

- ولكن ربما كان بوسعك الانتظار يا سيدي. أظن أن السيدة بروثيرو تتوق لرؤيتك... كانت تقول شيئاً من ذلك أثناء الغداء.

قادني إلى غرفة الجلوس وأضاء الأنوار؛ إذ كانت المصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة. قلت: إن هذا الأمر كله محزن جداً.

- نعم يا سيدي.

كان صوته بارداً يوحي بالاحترام. نظرتُ إليه... ترى ما هي المشاعر التي تعتمل تحت هذا المظهر السلبي المحايد؟ أكان يعرف أشياء وكان بوسعه إخبارنا بها؟ ما من شيء أكثر بعداً عن الإنسانية من قناع الخادم الجيد.

- أتحتاج شيئاً بعد يا سيدي؟

تساءلت إن كان خلف تلك العبارة الدقيقة شيء من الحرص على الذهاب، ولكنني أجبته قائلاً: لا شيء بعد.

لم يطُل انتظاري كثيراً قبل أن تأتي آن بروثيرو. ناقشنا وأقررنا بعض الترتيبات، ثم هتفَتْ: ما ألطف الدكتور هيدوك!

- إن هيدوك أفضل رجل أعرفه.

- لقد كان شديد اللطف معي. ولكنه يبدو حزيناً جداً، أليس كذلك؟

لم يكن قد خطر لي أبداً من قبل أن أفكر بهيدوك كرجل حزين. قلّبت الفكرة في رأسي ثم قلت أخيراً: لا أظنني لاحظت ذلك أبداً.

- وأنا أيضاً لم ألاحظه، حتى اليوم.

- إن متاعب المرء تجعل نظرته حادة أحياناً.

قالت: "هذا صحيح جداً"، وسكتت قليلاً ثم قالت: يا سيد كليمنت، شيء واحد لا أستطيع فهمه على الإطلاق: إن كان زوجي قد قُتل مباشرة بعد أن تركتُه فكيف لم أسمع الطلقة؟

- إن لديهم سبباً للاعتقاد بأن الطلقة أُطلقت في وقت لاحق.

- ولكن ماذا عن الساعة ٦,٢٠ على الرسالة؟

- ربما أضافتها يد أخرى... يد القاتل.

شحبت وجنتاها فقلت: ألم يثر انتباهك أنها لم تكن بخط يده؟

- ما أفظع ذلك!

- ولا يبدو شيء من تلك الرسالة شبيهاً بخط يده.

كان في تلك الملاحظة شيء من الصحة. فقد كانت الرسالة مكتوبة بخط ضخم كُتب على عجل بحيث لا يكاد يُفهم، ولم يكن خطاً دقيقاً محكماً كخط بروثيرو المعتاد. سألتني آن: أأنت متأكد من أنهم ما عادوا يشكون في لورنس؟

- أظن أن ساحته قد بُرِّئت بالتأكيد.

- ولكن يا سيد كليمنت، من عسى القاتل يكون؟ صحيح أن زوجي لم يكن محبوباً ولكني لا أظن أن له أعداء حقيقيين. ليس... ليس هذا النوع من الأعداء.

هززت رأسي وقلت: إنه لغز.

فكرت متعجباً بالمشتَبهين السبعة الذين ذكرتهم الآنسة ماربل. من عساهم يكونون؟

بعد أن استأذنت بالانصراف شرعت في تنفيذ خطة معينة خاصة بي. عدت من أولد هول سالكاً الممشى الخاص، وحين وصلت إلى الدرج الصغير المخصص للعبور فوق السياج عدت أدراجي، ثم اخترت مكاناً تخيلت أن به آثاراً تدلّ على أن أحداً قد جاس في العشب، فانعطفت عن الممشى وشققت طريقي بصعوبة بين الأغصان. كانت الغاية كثيفة، وتحت الأشجار أعشاب وشجيرات كثيرة، ولذلك لم يكن تقدمي سريعاً. وفجأة أحسست أن شخصاً يتحرك بين الأغصان غير بعيد عني، وفيما وقفت متردداً ظهر لورنس ريدنغ وهو يحمل حجراً ضخماً.

وأحسب أن الدهشة ارتسمت على وجهي، لأنه انفجر ضاحكاً فجأة وقال: آه، كلا. ليس هذا أحد أدلة الجريمة، إنه عرض سلام.

- عرض سلام؟

- أيمكن أن نسميه أساساً لمفاوضات مثلاً؟ أريد حجة لزيارة جارتك، الآنسة ماربل، وقد قيل لي إنها لا تحب شيئاً حبها لصخرة صغيرة جميلة تضعها في الحديقة الصخرية اليابانية التي تنظّمها في حديقتها.

- صحيح تماماً، ولكن ما الذي تريده من العجوز؟

- أريد التالي: إن كان من شيء يُرى في أحداث الأمس فإن الآنسة ماربل هي المؤهلة لرؤية ذلك الشيء. وأنا لا أعني بالضرورة شيئاً ذا علاقة بالجريمة... أو تحسب هي أن له علاقة بالجريمة. ما أعنيه هو حدث غريب أو حدث خارج عن المألوف، حدث بسيط صغير يمكن أن يعطينا مؤشراً ما على الحقيقة؛ شيء ربما لا ترى فيه الآنسة ماربل ما يستحق أن يُذكر للشرطة.

- أحسب ذلك ممكناً.

- إنه يستحق المحاولة على أية حال. أنا أريد أن أصل إلى قرارة هذا الأمر، إكراماً لآن إن لم يكن لشيء آخر. كما أنني لا أثق كثيراً بقدرة سلاك... إنه رجل متحمس، ولكن الحماسة لا يمكن حقاً أن تغني عن العقل.

- أراك واحداً من تلك الشخصيات القصصية التي تظهر في القصص البوليسية، شخصية رجل التحري الهاوي. ولكني لا أظن أن مثل هذه الشخصية يمكن أن تقف بمحاذاة المحترفين في واقع الحياة.

نظر إليّ نظرة حادة ثم ضحك فجأة وقال: ما الذي تفعله في الغابة أنت؟

احمرّ وجهي فقال لورنس: بوسعي أن أقسم أنك تفعل ما أفعله أنا تماماً. إن لدينا نفس الفكرة، أليس كذلك؟ كيف جاء القاتل إلى المكتب؟ الطريق الأول عبر الطريق الترابي ثم عبر البوابة، والطريق الثاني من خلال الباب الأمامي، والطريق الثالث... هل يوجد ثالث؟

كانت فكرتي أن أرى إن كان في أي مكان قرب جدار حديقتكم آثار لإفساد العشب أو تكسير أغصان الشجيرات.

اعترفت له قائلاً: كانت تلك بالضبط فكرتي.

- ولكني لم أشرع بالمهمة فعلاً بعد، فقد خطر لي أن أرى الآنسة ماربل أولاً لأتأكد من أن أحداً لم يعبر الطريق الترابي مساء أمس ونحن في المرسم.

هززت رأسي مشككاً وقلت: لقد كانت جازمة تماماً بأن أحداً لم يمر من هناك.

- نعم، لم يمر أحد ممن يمكن للآنسة ماربل أن تسميهم «أحداً». تبدو تلك فكرة مجنونة، ولكنك تفهم ما أعنيه؛ إذ ربما مرّ من هناك شخص كساعي البريد أو بائع الحليب أو صبي الجزار... شخص يكون حضوره طبيعياً إلى درجة لا يشعر معها المرء بضرورة ذكره.

- أظنك كنت تقرأ قصص غيلبرت تشيسترتن البوليسية.

لم ينكر لورنس ذلك ولكنه قال: ولكن ألا تظن أن هذه الفكرة قد تحمل شيئاً في طياتها؟

- حسناً، ربما كان بها شيء.

مضينا بعد ذلك إلى بيت الآنسة ماربل دون مزيد من اللغط. كانت الآنسة ماربل تعمل في الحديقة، وقد نادتنا عندما صعدنا الدرج الصغير فوق السياج، فتمتم لورنس قائلاً: إنها ترى الجميع فعلاً.

استقبلتنا بكل لطف، وسُرّت كثيراً بالحجر الضخم الذي أحضره لورنس وقدّمه لها بكل جدية، إذ قالت له: هذا لطف بالغ منك يا سيد ريدنغ... لطف بالغ حقاً.

شرع لورنس بإلقاء أسئلته وقد شجّعه سماعه لذلك، فيما أصغت الآنسة ماربل باهتمام ثم قالت: نعم، أفهم ما تعنيه وأتفق معك تماماً، فهذا أمر لا يهتم أحد بذكره. ولكني أؤكد لك أن شيئاً من ذلك لم يحصل، إطلاقاً.

- أأنت واثقة يا آنسة ماربل؟

- واثقة تماماً.

سألتها أنا: هل رأيت أحداً يذهب عبر الممشى إلى الغابة أو يأتي منها عصر ذلك اليوم؟

- آه، نعم، كثير من الناس. فقد ذهب الدكتور ستون والآنسة كرام من تلك الطريق؛ فهي الأقرب إلى ذلك القبر بالنسبة إليهم. كان ذلك بعد الساعة الثانية بقليل، وقد عاد الدكتور ستون من ذلك الطريق كما تعلم يا سيد ريدنغ... باعتباره انضمّ إليكما أنت والسيدة بروثيرو.

قلت: "بالمناسبة، تلك الطلقة... التي سمعتِها يا آنسة ماربل. لا بد أن السيد ريدنغ والسيدة بروثيرو سمعاها أيضاً". ثم نظرت متسائلاً إلى لورنس، فقال وهو يعبس: نعم، أظنني سمعت صوت بعض الطلقات. ألم تكن طلقة أو اثنتين؟

قالت الآنسة ماربل: أنا لم أسمع إلاّ واحدة.

قال لورنس: إنه انطباع باهت جداً في ذهني. تباً، ليتني أستطيع التذكر. لو أنني كنت أعرف فقط. المشكلة أنني كنت...

ثم توقف محرجاً. وسعلتُ بشيء من اللباقة، فقامت الآنسة ماربل بتغيير الموضوع قائلة: لقد كان المفتش سلاك يحاول حملي على أن أحدد إن كنت قد سمعت الطلقة بعد أن غادر السيد ريدنغ والسيدة بروثيرو المرسم أم قبل ذلك، وقد اضطررت للاعتراف بأنني لا أستطيع الجزم بالتحديد، ولكن لدي انطباعاً يقوى كلما فكرت فيه، وهو أن الطلقة كانت بعد خروج الاثنين.

تنهد لورنس وقال: هذا ما يجعل الدكتور ستون خارج الموضوع على أية حال، دون أن يعني ذلك وجود أدنى سبب للارتياب بأنه هو الذي أطلق النار على بروثيرو المسكين.

قالت الآنسة ماربل: آه! ولكنني أجد دوماً من التعقل الارتياب قليلاً بالجميع. ما أقوله هو أنك حقاً لا تدري، أليس كذلك؟

كان ذلك هو المعهود من الآنسة ماربل. سألت لورنس إن كان يتفق معها بشأن الطلقة فقال: لا أستطيع الجزم حقاً فقد كان الصوت عادياً تماماً. إنني أميل إلى الظن بأن الطلقة أُطلقت ونحن في المرسم؛ إذ أن ذلك يخفف من سماع الصوت، ويقلل من احتمال الانتباه إليه.

رأيت في نفسي أسباباً غير هذه لعدم الانتباه.

قال لورنس: يجب أن أسأل آن، فربما تذكرت. بالمناسبة، يبدو لي أن حقيقة غريبة تحتاج إلى تفسير. السيدة ليسترينج، لغز قرية

سينت ميري ميد، قامت بزيارة لبروثيرو بعد العشاء ليلة الأربعاء، ويبدو أن أحداً لا يدري ما هو سبب الزيارة؛ إذ لم يقل بروثيرو شيئاً لا لزوجته ولا لابنته.

قالت الآنسة ماربل: ربما كان الكاهن يعرف.

حسناً، كيف قُدِّر لهذه المرأة أن تعرف أنني كنت في زيارة السيدة ليسترينج عصر اليوم؟ غريبة جداً الطريقة التي تُعرف بها الأمور دوماً. هززت رأسي وقلت إنني لا أستطيع إلقاء أي ضوء على هذه المسألة، فسألت الآنسة ماربل: ما رأي المفتش سلاك؟

- بذل كل ما في وسعه لتخويف الخادم... ولكن الخادم لم يكن في الظاهر فضولياً بحيث يسترق السمع خلف الباب. وهكذا بقي الأمر على حاله... لا أحد يدري.

قالت الآنسة ماربل: ومع ذلك فإنني أظن أن أحداً ما قد سمع شيئاً، ما رأيك؟ أعني أنك تجد دوماً من يسمع أشياء. وفي هذه النقطة أحسب أن بوسع السيد ريدنغ أن يعثر على شيء ما.

- ولكن السيدة بروثيرو لا تعرف شيئاً.

قالت الآنسة ماربل: لم أقصد السيدة بروثيرو، بل قصدت الخادمات. إنهن يكرهن كثيراً إبلاغ الشرطة بما يعرفن، أما بالنسبة لشاب وسيم لطيف (وأرجو أن تعذرني في ذلك يا سيد ريدنغ) بالنسبة لشاب تم الاشتباه به دون وجه حق... آه! إنني واثقة أنهن سيخبرنه في الحال.

قال لورنس بحماسة: سأذهب وأقوم بمحاولة مساء اليوم،

شكراً على هذه اللفتة يا آنسة ماربل. سأذهب بعد... بعد القيام بعملية بسيطة نريد أنا والكاهن القيام بها.

خطر لي أن من الأفضل أن نمضي لعملنا، فودعت الآنسة ماربل ثم دخلنا الغابة من جديد.

ذهبنا أولاً في الممشى صعوداً حتى وصلنا إلى نقطة بدا مؤكداً فيها أن أحدهم ترك الممشى عندها ودخل يميناً إلى الغابة. وقد شرح لورنس بأنه قد سبق وتابع هذا الأثر تحديداً ووجد أنه لا يقود إلى شيء، ولكنه أضاف أن لا ضير من المحاولة ثانية، إذ ربما كان مخطئاً. ولكن الأمر كان كما قال، فما هي إلاّ عشرة أمتار أو أكثر قليلاً حتى اختفى أي أثر لانثناء الأغصان أو دوس العشب. وكانت هذه المنطقة هي التي تركها لورنس وعاد إلى الممشى ليجدني هناك في وقت سابق من عصر اليوم.

عدنا إلى الممشى ثانية ومشينا فيه مسافة أبعد، ومرة أخرى وصلنا مكاناً بدت فيه الأغصان وكأن أحداً جاس خلالها. كانت الآثار خفيفة جداً ولكن لا مراء فيها كما بدا لي. كان اقتفاؤنا للأثر هذه المرة واعداً أكثر، فقد اتّبع الأثرُ خطاً ملتوياً والتفّ حتى اقترب من بيتي، وسرعان ما وصلنا إلى حيث تنمو الأغصان بكثافة إلى أعلى الحائط، والحائط عالٍ غُرست في أعلاه شظايا من الزجاج، ولو أن أحداً وضع عليه سُلّماً لتوجب العثور على آثار ذلك.

كنا نشق طريقنا ببطء بمحاذاة الحائط عندما تناهى إلى أسماعنا صوت انكسار غصن صغير. اندفعتُ للأمام شاقاً طريقي عبر مجموعة من الشجيرات الكثيفة، وسرعان ما وجدت أمامي المفتش سلاك

وجهاً لوجه. قال المفتش: هذا أنت إذن، والسيد ريدنغ أيضاً. ماذا تفعلان هنا أيها السيدان؟

شرحنا له وقد هبطت معنوياتنا بعض الشيء فقال: حسناً، أنا شخصياً خطرت لي نفس الفكرة، فنحن لسنا بالمغفلين كما يُظن عادة. أنا هنا منذ ساعة تقريباً. أتودون أن تعرفوا شيئاً؟

قلت بإذعان: نعم.

- كائناً من كان قاتل الكولونيل بروثيرو فإنه لم يأت من هذا الطريق! لا أثر في هذا الجانب من الحائط ولا في الجانب الآخر. القاتل دخل من الباب الأمامي، ولا يمكن أن يكون قد اتبع طريقاً آخر.

صحتُ: مستحيل!

- لماذا مستحيل؟ إن بابك مفتوح دائماً، وما على المرء إلاّ أن يدخل، فلا يمكن لأحد أن يرى مِن المطبخ مَنْ يدخل مِن الباب الأمامي. والداخل متيقن من أنك غائب، ويعلم أن زوجتك في لندن وأن دينيس مشغول بلعبة تنس. الأمر أبسط من البساطة، كما أن القاتل ليس بحاجة لأن يذهب أو يأتي عبر القرية، فمقابل بوابة بيتك تماماً طريق ترابي عام، ومن ذلك الطريق يمكن للمرء أن ينعطف ليدخل في هذه الغابة نفسها ثم يخرج من أي مكان يريده. الأمر كله في غاية الأمان ما لم تخرج السيدة ريدلي من بوابة بيتها الأمامية في تلك اللحظة بالذات. نعم، لقد سلك القاتل تلك الطريق، خذاها مني.

بدا الأمر فعلاً وكأن المفتش مصيب فيما يقوله.

* * *

الفصل السابع عشر

جاء المفتش سلاك لرؤيتي في صباح اليوم التالي، ورأيت أنه بدأ يصبح ودوداً تجاهي، فربما نسي مع الوقت حادث الساعة. قال محيياً: مرحباً يا سيدي. لقد تتبعتُ تلك المكالمة الهاتفية التي جاءتك.

قلت بلهفة: حقاً؟

- أمرها غريب بعض الشيء. لقد أُجريَتْ من غرفة البواب عند البوابة الشمالية لمنزل أولد هول. تلك الغرفة فارغة الآن، فالبواب القديم أحيل على التقاعد ولم يوظَّف بواب جديد بعد. كان المكان خالياً ومناسباً... وكانت النافذة الخلفية مفتوحة! ولم نعثر على آثار بصمات على جهاز الهاتف نفسه فقد تم مسحها بعناية، وهو أمر ذو دلالة.

- ماذا تعني؟

- أعني أن ذلك يبرهن أن المكالمة أُجريت معك عمداً بقصد إبعادك عن البيت؛ ولذلك فإن الجريمة قد تم التخطيط لها بعناية

مسبقاً، ولو كان الأمر مجرد مزحة بريئة أو مقلب لما تم مسح البصمات بكل ذلك الحرص.

- نعم، أفهم ذلك.

- ويبرهن ذلك أيضاً على أن القاتل كان يعرف تماماً منزل أولد هول وما حوله. لم تكن السيدة بروثيرو هي من أجرى تلك المكالمة؛ فقد تحققتُ من كل دقيقة قضتها في عصر ذلك اليوم. العديد من الخدم مستعدون للقسم بأنها كانت في البيت حتى الساعة الخامسة والنصف، ثم جاء السائق بالسيارة فأخذها وزوجَها إلى القرية حيث ذهب الكولونيل لرؤية الطبيب البيطري بشأن أحد الخيول. أما السيدة بروثيرو فقد طلبت بعض الطلبيات من البقال وبائع السمك، ومن هناك ذهبت مباشرة عبر الممشى الخلفي حيث رأتها الآنسة ماربل. كل أصحاب الدكاكين متفقون على أنها لم تكن تحمل حقيبة معها، وبذلك كانت العجوز على صواب.

- هي دائماً على صواب!

- وليتيس كانت في متش بينهام في الخامسة والنصف.

- صحيح، فقد كان ابن أخي هناك أيضاً.

- ذلك يجعلها خارج الموضوع. الخادمة تبدو على ما يرام... منزعجة وهستيرية التصرفات قليلاً، ولكن ماذا بوسع المرء أن يتوقع غير ذلك؟ لقد أبقيتُ كبير الخدم تحت انتباهي بالطبع، بسبب تقديمه إشعار إنهاء عمله وغير ذلك، ولكني لا أظنه يعرف شيئاً عن الأمر.

- يبدو أن تحرياتك انتهت إلى نتيجة سلبية أيها المفتش.

- هذا صحيح وغير صحيح يا سيدي؛ فقد ظهر أمر غريب جداً... وعلى غير توقع إذا صحّ التعبير.

- وما هو؟

- أتذكُرُ تلك الضجة التي أثارتها جارتك السيدة برايس ريدلي صباح أمس؟ بشأن تلك المكالمة التي تلقتها؟

- نعم.

- تتبعنا تلك المكالمة لمجرد تهدئتها، فمن أين تظنها أُجريت؟

توقعت قائلاً: من مكتب بريد؟

- لا يا سيد كليمنت... لقد أُجريت المكالمة من بيت السيد لورنس ريدنغ.

هتفتُ بدهشة: ماذا؟!

- نعم، أمر غريب، أليس كذلك؟ ولكن لا علاقة للسيد ريدنغ بالمكالمة؛ ففي ذلك الوقت (أي السادسة والنصف) كان في طريقه إلى فندق بلو بور مع الدكتور ستون على مرأى من سكان القرية جميعاً. ولكن هذا ما جرى، وهو أمر له مدلولاته، أليس كذلك؟ لقد دخل أحدهم إلى ذلك البيت الفارغ واستخدم الهاتف، فمن هو؟ نحن أمام مكالمتين غريبتين في يوم واحد، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد باحتمال وجود علاقة بين المكالمتين، ولن أسمي نفسي مفتش شرطة إن لم يكن مَن أجرى المكالمتين شخصاً واحداً.

- ولكن بأي هدف؟

- هذا ما ينبغي لنا أن نكشفه. لا يظهر أي هدف في المكالمة الثانية، ولكن لا بد من وجود هدفٍ خفيّ ما. هل تدرك المغزى من ذلك كله؟ بيت السيد ريدنغ يُستخدم لإجراء المكالمة، ومسدسه يُستخدم للقتل، وكل ذلك يجعله محل الشبهات.

اعترضت قائلاً: كان الأقرب إلى ذلك الهدف أن تُجرى المكالمة الأولى من بيته.

- آه، كنت أفكر في حل لذلك. ما الذي يفعله السيد ريدنغ دائماً في فترة العصر؟ إنه يذهب إلى أولد هول ليرسم ليتيس، وهو يذهب راكباً دراجته النارية ويمر من خلال البوابة الشمالية. أترى الآن المغزى من إجراء المكالمة من هناك؟ إن القاتل لم يكن يعرف بأمر الشجار وبأن السيد ريدنغ لم يعد يذهب إلى أولد هول.

فكرت دقيقة لأستوعب النقاط التي ذكرها المفتش. بدت تلك النقاط منطقية لا مفر منها، وسألته: أكانت على هاتف السيد ريدنغ أية بصمات أصابع؟

قال المفتش بأسى: لم نجد بصمات... تلك العجوز المزعجة التي تنظف البيت كانت قد جاءت ونظفت كل شيء صباح أمس.

تفكّرَ بشيء من الاكتئاب لبضع دقائق ثم قال: إنها عجوز غبيّة على أية حال؛ فهي لا تستطيع أن تتذكر متى رأت المسدس آخر مرة، وبدأت تقول إنه ربما كان موجوداً هناك صباح يوم الجريمة وربما لم يكن! إنها لا تستطيع الجزم... كلهن سواء!

ثم مضى قائلاً: كإجراء شكلي ذهبت وقابلت الدكتور ستون،

وعليّ القول إنه كان سعيداً بالتجاوب في هذا الأمر. قال إنه ذهب مع الآنسة كرام إلى ذلك القبر المكتشَف في نحو الثانية والنصف من بعد ظهر أمس وبقيا هناك طوال فترة العصر، ثم عاد الدكتور ستون بمفرده وعادت هي لاحقاً. قال إنه لم يسمع أي صوت لطلقة، ولكنه اعترف بأنه شارد الذهن. ولكن أقواله كلها تؤيد ما نعتقده نحن.

- إلاّ أنك لم تمسك بالمجرم.

- هممم، لقد كان ما سمعتَه في الهاتف صوت امرأة، وكان ما سمعتْه السيدة برايس ريدلي في الهاتف صوت امرأة في أغلب الاحتمالات. ليت تلك الطلقة لم تأت مباشرة بعد انتهاء المكالمة.. حسناً، سأعرف أين أبحث.

- أين؟

- آه! هذا هو بالضبط ما يُستحسن أن لا أقوله يا سيدي.

دعوت المفتش سلاك لشرب القهوة، وقد نجحت الفكرة -كما ظننت- فما كدنا نجلس لشربها حتى بدأ يغدو ودياً، ثم ما لبث أن قال: لا أظن أن في الحديث بأساً معك أنت، فسوف تُبقي الحديث لنفسك، أليس كذلك؟ لن تدعه يدور بين الناس.

طمأنته في ذلك الصدد فقال: إنني أشعر -وأنا أرى كيف وقع الأمر كله في بيتك- أن لك حقاً في المعرفة.

- هذا تماماً ما أشعر به أنا.

- حسناً إذن، ماذا عن المرأة التي زارت بروثيرو ليلة مقتله؟

صحت بصوت عال من دهشتي: السيدة ليسترينج؟

رماني المفتش بنظرة تأنيب وقال: لا تصرخ هكذا. إن السيدة ليسترينج هي المرأة التي أضعها نصب عيني. أنت تذكر ما أخبرتك به... عن الابتزاز.

- لا يكاد ذلك يكون مبرراً للقتل. ألن يكون ذلك بمثابة قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً؟ هذا إذا افترضنا نظريتك صحيحة، وهو ما لا أُقره لحظة واحدة.

رمش المفتش بعينيه تجاهي وقال: آه! إنها من النوع الذي يميل الرجال إلى مساندتها. اسمعني يا سيدي، لنفترض أنها قد نجحت في الماضي في ابتزاز الرجل، وبعد مرور عدة سنوات سمعت به فجاءت إلى هنا وحاولت ممارسة ذلك من جديد. ولكن الأمور تغيرت بعد كل هذه الفترة، فقد اتخذ القانون موقفاً مختلفاً تماماً، حيث منح في أيامنا هذه كل التسهيلات لمن يريدون رفع قضايا ابتزاز... فالأسماء مثلاً لا يُسمح بذكرها في الصحافة. لنفترض أن الكولونيل بروثيرو وقف في وجهها وقال إنه سيلاحقها قضائياً. ستكون عندها في ورطة صعبة. إنهم يصدرون أحكاماً مشددة جداً على الابتزاز. وهكذا انقلب السحر على الساحر، وبذلك لا يعود أمامها -لتنقذ نفسها- إلاّ أن تزيحه عن الطريق بأسرع ما يمكن.

كنت ساكتاً. اضطررت للاعتراف بأن القضية التي رتبها المفتش كانت قابلة للتصديق. أمر واحد جعلها غير مقبولة لعقلي... ذلك هو شخصية السيدة ليسترينج.

قلت: إنني لا أتفق معك أيها المفتش؛ فهي لا تبدو لي كذلك.

إنها... حسناً، سأستعمل كلمة قديمة الطراز، إنها سيدة حقاً.

رماني بنظرة مشفقة ثم قال بشيء من التسامح: آه! حسناً يا سيدي، إنك رجل دين، ولا تعرف إلاّ قليلاً مما يجري. هَهْ، سيدة! ستدهش لو عرفت بعضاً مما أعرفه.

- أنا لا أتحدث عن المنزلة الاجتماعية المجردة. ويخيل لي على أية حال أن السيدة ليسترينج «عزيزة قوم ذلّت» كما يقال. إن ما أعنيه هو مسألة... تهذيب شخصي.

- إننا ننظر إلى الأمر من زاويتين مختلفتين يا سيدي. صحيح أنني رجل... ولكني أيضاً ضابط شرطة، وليس بوسعهنّ خداعي بتهذيبهن الشخصي. إن تلك المرأة من النوع الذي يمكنه طعن امرئ بسكين دون أن يرف لها جفن.

الغريب أن إمكانية إقدام السيدة ليسترينج على القتل بدت لي أسهل تصديقاً من احتمال إقدامها على الابتزاز. ومضى المفتش قائلاً: ولكنها لا يمكن بالطبع أن تكون قد اتصلت هاتفياً بجارتك وأطلقت النار في الوقت نفسه تماماً على الكولونيل بروثيرو.

لم تكد تلك الكلمات تخرج من فمه حتى ضرب بيده على فخذه بشدة وقال: وجدتها، كان ذلك هو الهدف من المكالمة الهاتفية. كانت بمثابة دليل غياب عن مكان الجريمة؛ فقد عرفتْ أننا سنربط بين المكالمتين. سوف أحقق في ذلك... ربما كانت قد رشت أحد صبيان القرية ليقوم بالاتصال نيابة عنها، وما كان لذلك الصبي أن يربط أبداً بين المكالمة وجريمة القتل.

ثم انطلق المفتش خارجاً. وأطلّت غريزلدا من الباب وقالت:

الآنسة ماربل تريد رؤيتك؛ لقد أرسلت ملاحظة مكتوبة ليس فيها أي انسجام وقد كُتبت بأحرف طويلة رفيعة وتحتها خطوط للتأكيد. لم أستطع قراءة الكثير منها... أسرع بالذهاب إليها وانظر ما هي المسألة. ستأتيني العجائز في غضون دقائق، وإلاّ لكنت جئت معك.

أسرعتُ بالخروج وأنا حائر الذهن كثيراً فيما يخص سبب هذا الاستدعاء. وجدت الآنسة ماربل في حالة من العصبية والارتباك. كانت محمرة الوجه تخونها الكلمات، وبادرتني شارحة: ابن أخي، ريموند ويست، الكاتب. إنه آت لزيارتي اليوم... أمر مربك جداً. أنا مضطرة لأن أشرف بنفسي على كل شيء. لا يمكنك ائتمان خادمة حتى على ترتيب سرير بشكل جيد، كما ينبغي طبعاً تحضير وجبة فيها لحم هذا المساء. إن الرجال شديدو الحرص على وجود اللحم في طعامهم، أليس كذلك؟

- إن كان بوسعي أن أساعد...

- آه! كم هو لطيف منك، ولكنني لم أقصد ذلك، ما يزال لدي وقت طويل في الواقع. يسعدني أنه يحضر معه غليونه الخاص وتبغه، ولكني حزينة أيضاً لأن تخليص الستائر من رائحة الدخان التي تعلق بها يحتاج وقتاً طويلاً. إنني أقوم طبعاً بفتح النوافذ وهز الستائر جيداً كل صباح، فريموند يتأخر كثيراً في نومه... وأظن أن هذا حال الكتّاب غالباً. إنه يكتب قصصاً رائعة، رغم أن الناس ليسوا بذلك السوء كما يصورهم، ألا ترى ذلك؟

سألتها وأنا ما أزال عاجزاً عن فهم سبب استدعائي: أتودين أن ندعوه لتناول العشاء عندنا؟

- آه! كلا، شكراً لك. إنه لطف بالغ منك.

قلت وقد شارفت على اليأس: كان لديك... كان لديك شيء أردتِ رؤيتي بشأنه كما أظن.

قالت: "آه! طبعاً، غاب ذلك عن ذهني في غمرة الانفعال". ثم أغلقت الباب وعادت إليّ تمشي على رؤوس أصابعها وقالت: إنه أمر غريب نوعاً ما، حصل ليلة أمس. حسبت أنك ربما أحببت سماعه، مع أنه لا يبدو حالياً أمراً ذا معنى. لقد أصابني الأرق ليلة أمس، وأنا أفكر بكل هذا الأمر المحزن الذي حدث، ثم نهضت ونظرت من نافذتي، فماذا تظن أنني رأيت؟

نظرت إليها متسائلاً فقالت بتركيز شديد: غلاديس كرام. رأيتها كما أراك الآن، تذهب إلى الغابة ومعها حقيبة.

- حقيبة؟

- أليس ذلك غريباً؟ ماذا عساها تفعل بحقيبة في الغابة في الساعة الثانية عشرة ليلاً؟ لا أظن أن للأمر علاقة بالجريمة، ولكنه أمر غريب جداً... ونحن نشعر في الوقت الراهن أن علينا أن ننتبه إلى الأشياء الغريبة.

- أمر مدهش جداً. أتراها كانت ذاهبة لتنام في ذلك القبر؟

- لم تفعل ذلك على كل حال؛ لأنها عادت بعد وقت قصير.

* * *

الفصل الثامن عشر

عُقدت جلسة التحقيق في الساعة الثانية من عصر ذلك اليوم (السبت) في فندق بلو بور، ومن نافلة القول أن أذكر أن انفعال الأهالي كان عظيماً؛ إذ لم تحدث جريمة قتل في سينت ميري ميد منذ أكثر من خمسة عشر عاماً على الأقل، كما أن مقتل رجل كالكولونيل بروثيرو في مكتب بيت الكاهن كان وليمة كبرى من الإثارة ما كان جمهور القرية ليحظى بمثلها إلاّ نادراً.

تناهت إلى مسامعي تعليقات متنوعة ربما لم يكن يراد لي أن أسمعها: "ها هو الكاهن، يبدو شاحباً، أليس كذلك؟ أتساءل إن كان له يد في هذه الجريمة، فقد ارتُكبت الجريمة في بيته!". "كيف تقولين ذلك يا ماري آدامز؟ ألم يكن في زيارة لهنري أبوت وقتها؟"، "آه! ولكن يُقال إن كلاماً قد جرى بينهما. ها هي ماري هيل. إنها تختال، باعتبارها تعمل هناك. اسمعي، ها قد جاء المحقق".

كان المحقق هو الدكتور روبرتس من بلدة مَتش بينهام المجاورة، وقد تنحنح وعدّل وضع نظارته وبدا رجلاً ذا أهمية قبل أن يبدأ التحقيق. إن إعادة سرد كل ما تم الإدلاء به من شهادات

سيكون أمراً مملاً. قدم لورنس ريدنغ شهادته حول عثوره على الجثة، وتعرّف على المسدس مقرّاً أنه له. وقال إنه يظن -بأفضل ما تسعفه ذاكرته- أنه رأى المسدس يوم الثلاثاء، أي قبل يومين، وكان موضوعاً على رفٍّ في بيته، ولم يكن باب البيت يُقفل عادة.

أدلت السيدة بروثيرو بشهادة قالت فيها إنها رأت زوجها لآخر مرة في نحو الساعة السادسة إلاّ ربعاً عندما افترقا في شارع القرية، وقد وافقت على أن تمر عليه في بيت الكاهن لاحقاً. ذهبت إلى بيت الكاهن في نحو السادسة والربع من خلال الممشى الخلفي وبوابة الحديقة. لم تسمع أصواتاً في المكتب فتخيلت أن الغرفة فارغة، ولكن ربما كان زوجها جالساً إلى طاولة الكتابة، وفي هذه الحالة لم يكن من شأنها أن تراه. وقالت إنه كان -كما رأته- في حالته الطبيعية صحةً ومعنويات، وهي لا تعرف بوجود عدو يمكن أن يحمل له ضغينة.

ثم أدليتُ بشهادتي بعد ذلك، وشرحت مسألة موعدي مع بروثيرو واستدعائي إلى بيت عائلة أبوت، وشرحت كيف وجدت الجثة وكيف استدعيت الدكتور هيدوك. سألني المحقق: "كم من الناس كانوا على علم بأن الكولونيل بروثيرو سيأتي لرؤيتك في تلك الأمسية يا سيد كليمنت؟"، فقلت: "يخيل إليّ أن الكثيرين كانوا يعلمون بذلك. زوجتي كانت تعلم، وابن أخي، وقد لمّح الكولونيل بروثيرو لتلك الحقيقة صباح ذلك اليوم عندما قابلته في القرية. وأظن أن الكثير من الناس ربما سمعوه، إذ كان يتحدث دوماً بصوت عالٍ لأن سمعه ثقيل". وسألني المحقق: "أكان الأمر -إذن- أقرب إلى المعلومات العامة؟ وربما عرف به الجميع؟"، فأجبت بالإيجاب.

جاء دور الدكتور هيدوك بعد ذلك، وكان شاهداً مهماً. وصف بدقة وبأسلوب فني متخصص مظهر الجثة والإصابة التي تعرضت لها بالضبط. كان رأيه أن النار قد أُطلقت على القتيل ما بين ٦,٢٠ و٦,٣٠ تقريباً، ولم تتجاوز بالتأكيد الساعة ٦,٣٥، وكان ذلك أقصى حد لوقت ارتكاب الجريمة، وقد أكد الدكتور هيدوك جازماً على تلك النقطة. كانت مسألة الانتحار مستبعدة كلياً؛ إذ لم يكن ممكناً لأحد أن يُلحق بنفسه مثل تلك الإصابة.

كانت شهادة المفتش سلاك مقتضبة متحفظة. تحدّث عن استدعائه والظروف التي عثر بها على الجثة. وقد تم إبراز الرسالة التي لم تكتمل، والإشارة إلى التوقيت المكتوب في أعلاها، كما تم ذكر ساعة الحائط. وقد ساد -بشكل غير مباشر- افتراض أن وقت الوفاة كان ٦,٢٢. لم يكن الشرطة يفضون بشيء، وقد أخبرتني آن بروثيرو لاحقاً أنهم أوصوها بأن تعطي لزيارتها وقتاً أبكر قليلاً من الساعة ٦,٢٠.

كانت خادمتنا ماري هي الشاهدة التالية، وقد أثبتت أنها شاهدة شرسة. قالت إنها لم تسمع شيئاً، ولا تريد أن تسمع شيئاً؛ فليس كل من يأتي لزيارة الكاهن تُطلق عليه النار، أبداً... كما أنها مشغولة بواجباتها الخاصة. قالت إن الكولونيل بروثيرو وصل في تمام السادسة والربع، ونفت أن تكون نظرت إلى ساعتها عند ذاك، بل إنها سمعت دقة ساعة الكنيسة وهي تصحبه إلى المكتب. قالت إنها لم تسمع أية طلقة، ولو كانت طلقة لسمعتها. ثم استدركت قائلة إنها تعرف طبعاً أن طلقة قد أُطلقت دون شك، طالما أن الرجل وُجد مرمياً بالرصاص... ولكن هذا ما جرى، فهي لم تسمع الطلقة.

لم يلح المحقق كثيراً على هذه النقطة، وقد أدركتُ أنه يعمل بالاتفاق مع الكولونيل ميلتشيت.

كانت السيدة ليسترينج قد تلقت استدعاء للإدلاء بشهادتها، ولكن تم إبراز شهادة طبية بإمضاء الدكتور هيدوك تقول إنها مريضة إلى حد يمنعها من الحضور.

لم تبقَ إلاّ شاهدة وحيدة أخرى، وهي عجوز ترتعش أطرافها، وهي التي كانت تنظف بيت لورنس ريدنغ. تم عرض المسدس على السيدة آرتشر، وقد تعرفت إليه باعتباره المسدس الذي رأته في غرفة جلوس السيد ريدنغ. قالت: "كان يحتفظ به مرمياً هناك على رف خزانة الكتب". وجواباً عن سؤال آخر قالت إنها واثقة تماماً أن المسدس كان هناك وقت الغداء يوم الخميس، في الساعة الواحدة إلاّ ربعاً عندما غادَرَتْ.

تذكرتُ ما قاله لي المفتش ودهشت قليلاً، فكائناً ما كان غموضها وعدم تيقّنِها عندما حقق معها سلاك فهي تبدو الآن جازمة تماماً فيما تقول.

لخص المحقق الموقف بطريقة سلبية، ولكن بكثير من الحزم. وتم إصدار الحكم بشكل شبه فوري: «**جريمة قتل ارتكبها شخص أو أشخاص غير معروفين**».

انتبهت -وأنا أغادر قاعة التحقيق- لوجود جيش صغير من الشباب ذوي الوجوه اللامعة اليقظة الذين يشبه بعضهم بعضاً شبهاً مصطنعاً. كنت أعرف العديد منهم بالشكل من قبل، باعتبارهم

ترددوا كثيراً على الكنيسة في الأيام القليلة الماضية. وبغية الخلاص منهم عدت بسرعة إلى الفندق، وحالفني الحظ إذ رأيت أمامي عالم الآثار، الدكتور ستون. أمسكت به دون تردد وقلت بالمختصر المفيد: الصحفيون... إن كنت تستطيع إنقاذي من براثنهم!

- بالتأكيد يا سيد كليمنت، تعال معي إلى غرفتي فوق.

قادني على الدرج الضيق ثم إلى غرفة جلوسه حيث كانت الآنسة كرام جالسة «تعزف» على مفاتيح الآلة الطابعة بخفة المتمرسين. حيّتني بابتسامة ترحيب عريضة واغتنمت الفرصة لتتوقف عن العمل. قالت: أمر فظيع، أليس كذلك؟ أعني أن لا يعرفوا مَن فعلها. لقد خاب أملي بهذا التحقيق.. كان بلا طعم، هذا ما وجدته. ليس فيه ما يمكن اعتباره مثيراً من بدايته حتى نهايته.

- فقد كنتِ هناك -إذن- يا آنسة كرام؟

- كنت هناك بالتأكيد. أيعقل أنك لم ترني؟ إنني أشعر بشيء من الإهانة لذلك. نعم، أشعر بذلك. لا بد أن تكون للرجل عينان في رأسه حتى لو كان رجل دين.

سألت الدكتور ستون في محاولة مني للتخلص من هذه السخرية الهازئة، فالشابات كالآنسة كرام يُشعرنني دوماً بالحرج الشديد: أكنتَ حاضراً أنت أيضاً؟

- لا. إنني لا أهتم كثيراً بمثل هذه الأمور؛ فأنا امرؤ مستغرق تماماً في هوايته الخاصة.

- لا بد أنها هواية ممتعة جداً.

سألني قائلاً: ربما كنت تعرف شيئاً عنها؟

اضطررت للاعتراف بأن ما أعرفه عنها لا يكاد يذكر، ولكن الدكتور ستون لم يكن ممن يثبط مثل هذا الاعتراف بالجهل همّهم؛ فقد كانت نتيجة اعترافي بجهلي كما لو أنني قلت إن التنقيب عن القبور هو متعتي الوحيدة! اندفع في شرحٍ لا نهاية له عن القبور الطويلة والقبور المستديرة والعصر الحجري والبرونزي والصناديق التي تضم متعلقات الموتى والشواهد الحجرية، وداهمني ذلك كله كشلاّل دافق، ولم أجد ما أستطيع فعله باستثناء هز رأسي والظهور بمظهر الفاهم الذكي... وهذه الصفة الأخيرة لا أقولها إلاّ من باب التفاؤل المفرط! مضى الدكتور ستون يتكلم بصوته العميق. كان رجلاً ضئيل الجسم أصلع مكور الرأس، أحمر الوجه مستديره، وهو يبش في وجهك من خلال نظارة سميكة جداً. و لم أر أبداً رجلاً تبلغ به الحماسة مثل هذه الدرجة مقابل مثل هذا التشجيع الذي لا يكاد يذكر؛ فقد استعرض بالتفصيل كل الآراء التي دعمت أو عارضت نظريته الخاصة الأثيرة... وهي -بالمناسبة- نظريةٌ فشلتُ تماماً في فهمها!

شرح بالتفصيل خلافه مع الكولونيل بروثيرو، وقال بحماسة: إنه دعيٌّ نزق. نعم، نعم، أعرف أنه ميت الآن، وأن على المرء أن لا يتكلم بسوء عن الموتى، ولكن الموت لا يغير الحقائق. إن عبارة الدعيّ النزق تصفه بدقة، فلمجرد أنه قرأ بعض الكتب تراه ينصّب نفسه حجة ومرجعاً أمام رجل قضى حياته في دراسة الموضوع. لقد كرست حياتي كلها يا سيد كليمنت لهذا العمل. حياتي كلها.

كان يتلعثم لفرط انفعاله. أعادته غلاديس كرام إلى الواقع

بجملة مقتضبة، إذ قالت: سيفوتك القطار إذا لم تنتبه.

توقف الرجل الضئيل في وسط كلامه وسحب ساعة من جيبه وقال: يا إلهي، إلاّ ربعاً؟ مستحيل!

قالت له الآنسة كرام: ما أن تشرع في الحديث حتى تنسى الوقت تماماً. ما الذي كنت ستفعله لو لم أكن موجودة للاهتمام بك؟ هذا ما أريد حقاً معرفته.

قال وهو يربت على كتفها بودّ: هذا صحيح تماماً يا عزيزتي، صحيح تماماً. إنها فتاة رائعة يا سيد كليمنت؛ لا تنسى شيئاً. إنني أعتبر نفسي محظوظاً جداً بالعثور عليها.

قالت الفتاة: آه! استمر في ذلك يا دكتور ستون، إنك تفسدني بإطرائك فعلاً.

لم يسعني إلاّ الشعور بأنني أوشك أن أكون في موقع أدعم فيه المدرسة الفكرية الثانية، تلك المدرسة التي تتنبأ بأن مستقبل الدكتور ستون والآنسة كرام سينتهي بالزواج الشرعي. وقد رأيت أن الآنسة كرام شابة ذكية على طريقتها الخاصة.

قالت له: من الأفضل أن تغادر الآن.

- نعم، نعم؛ عليّ أن أغادر.

دخل إلى الغرفة المجاورة ثم عاد حاملاً حقيبة. سألتُه بشيء من الدهشة: أأنت مسافر؟

- سأذهب على عجل إلى المدينة ليومين. عليّ أن أرى والدتي

العجوز غداً، ثم أنهي مسألةً مع محاميّ يوم الاثنين، وسأعود يوم الثلاثاء. بالمناسبة، أحسب أن وفاة الكولونيل بروثيرو لن تغير في ترتيباتنا شيئاً... أعني فيما يخص القبر. أتظن أن السيدة بروثيرو يمكن أن تعترض على استمرارنا بالعمل؟

- لا أظن ذلك.

وفيما كان يتكلم كنت أتساءل مع نفسي عمّن سيكون المسؤول في منزل أولد هول، إذ ربما كان بروثيرو قد أوكل تلك المسؤولية لابنته ليتيس. شعرت أن من المثير أن يعرف المرء محتويات وصية بروثيرو.

قالت الآنسة كرام بشيء من المتعة التي يشوبها التجهم: إن الموت يسبب الكثير من المتاعب للعائلة. لا يكاد المرء يصدق مقدار السوء الذي يخلفه الموت أحياناً.

قال الدكتور ستون: "حسناً، عليّ أن أذهب"، ثم قام ببعض المحاولات الفاشلة للسيطرة على الحقيبة وعلى بساط ثخين يريد حمله، وعلى شمسية تصعب السيطرة عليها.

تقدمتُ لمساعدته فاعترض قائلاً: لا تتعب نفسك، لا تتعب نفسك. بوسعي تدبر الأمر تماماً. لا شك أنني سأجد أحداً في الطابق السفلي.

ولكن لم يكن في الطابق السفلي أي حمّال أو سوى ذلك من الناس، وشككت بأن مستخدمي الفندق قد دُعوا إلى وليمةٍ ما. كان الوقت يتقدم، ولذلك انطلقنا معاً إلى المحطة والدكتور ستون يحمل حقيبته فيما أحمل أنا البساط والشمسية.

ونحن نسرع باتجاه المحطة قذف الدكتور ستون ببعض الملاحظات القصيرة وهو يلهث: هذا فعلاً لطف كبير منك... لم أُرد إزعاجك... آمل أن لا يفوتنا القطار... غلاديس فتاة طيبة... رائعة حقاً... ذات طبيعة عذبة جداً... ليست سعيدة جداً في بيتها... قلبها كقلب طفل تماماً... أؤكد لك أنني... رغم فارق السن... أجد الكثير من الأمور المشتركة بيننا...

ما أن انعطفنا باتجاه المحطة حتى رأينا بيت لورنس ريدنغ. كان البيت في موقع منعزل لا بيوت حوله، ولاحظت وجود شابين أنيقي المظهر يقفان على عتبة البيت، فيما وقف اثنان آخران ينظران إلى داخل المنزل من خلال النوافذ. لا شك أن هذا اليوم كان زاخراً بالعمل بالنسبة لرجال الصحافة.

قلت لأرى ما يقوله رفيقي: إن ريدنغ شاب لطيف.

كان اللهاث قد بلغ منه مبلغاً وجد معه صعوبة في قول شيء، ولكنه نفخ كلمة لم أفهمها للوهلة الأولى. وعندما طلبت منه إعادة كلمته قال: خطير.

- خطير؟

- خطير جداً. بالنسبة للفتيات البريئات... ليس ما هو أخطر منه... ينخدعن بالشباب من أمثاله... ممن تراهم يدورون دوماً خلف النساء... أمر سيء.

ومن ذلك استنتجت أن غلاديس الجميلة لم تفتها ملاحظة الشاب الوحيد في القرية.

هتف الدكتور ستون: يا إلهي، القطار!

كنا قد اقتربنا كثيراً من المحطة، فهرعنا راكضَين. كان القطار الذي ينطلق من القرية واقفاً في المحطة، فيما كان القطار القادم من لندن يدخل المحطة لتوه.

عند بوابة مكتب الحجز اصطدمنا بشاب غريب المظهر نوعاً ما، وسرعان ما ميّزت فيه ابن أخ الآنسة ماربل الذي وصل لتوه. رأيت فيه شاباً لا يحب الاصطدام بأحد، وبدا وكأنه يشعر بالفخر باتزانه ومظهر الحياد الذي يبدو عليه، وما من شك في أن أي اصطدام فظٍ يلحق ضرراً بالغاً بأي مظهر اتزانٍ مصطنع من هذا القبيل. ترنح متراجعاً، واعتذرت له على عجل، ثم دخلنا. صعد الدكتور ستون إلى القطار، وناولته حاجياته في الوقت الذي اهتز فيه القطار وبدأ ينطلق.

لوحت له مودعاً ثم قفلت راجعاً. كان ريموند وست قد غادر المحطة، وكذلك كان صيدلي قريتنا يغادرها لتوه باتجاه القرية. مشيت إلى جانبه فقال: لقد كاد القطار يفوتكما. كيف مضى التحقيق؟

أخبرته بالحكم الذي صدر، فقال: آه! هذا -إذن- ما حدث. لقد حسبت أن الحكم سيكون كذلك. أين ذهب الدكتور ستون؟

كررت ما قاله الدكتور ستون حول سفره، فقال: من حظه أن القطار لم يفته. مع أن المرء لا يستطيع الجزم أبداً في هذا الخط.. يا له من عار يا سيد كليمنت! إنني أسميه أمراً مشيناً. لقد تأخر القطار الذي جئت به عشر دقائق. ويحدث هذا يوم السبت، حيث لا يوجد أي ازدحام في الخطوط. وفي يوم الأربعاء... لا، الخميس، نعم؛

كان يوم الخميس، أذكر أنه كان يوم الجريمة، لأنني أردت أن أكتب شكوى شديدة اللهجة للشركة ولكن الجريمة أنستني الموضوع. نعم، في يوم الخميس الماضي كنت ذاهباً لحضور اجتماع جمعية الصيادلة، فكم تأخر قطار السادسة وخمسين دقيقة برأيك؟ نصف ساعة كاملة. نصف ساعة بالضبط! ما رأيك بذلك؟ لا بأس في تأخير عشر دقائق، ولكن إن كان القطار لا يصل المحطة حتى السابعة والثلث فإنك لا تستطيع الوصول إلى بيتك قبل السابعة والنصف. لماذا يسمونه إذن قطار السادسة وخمسين دقيقة؟

قلت له: هذا صحيح.

ثم انفصلت عنه رغبة في الخلاص من هذا الحديث من طرف واحد معتذراً بأن لديّ ما أقوله للورنس ريدنغ الذي رأيته يقترب منا من الجانب الآخر من الطريق.

* * *

الفصل التاسع عشر

قال لورنس: يسعدني جداً أنني قابلتك. تفضل معي إلى البيت.

التفتنا عند البوابة الصدئة ومشينا صعوداً على الممشى. أخرج من جيبه مفتاحاً وأدخله في القفل فقلت له: أرى أنك أصبحت تقفل الباب الآن؟

ضحك بمرارة وقال: نعم. مثل أولئك الذين أقفلوا الإسطبل بعد أن سُرقت المهرة، أليس كذلك؟ هذا يشبه ذاك.

فتح الباب ودخل قائلاً: أتعلم يا سيد كليمنت؟ في هذا الأمر شيء لا أرتاح له. إنه يبدو... يبدو أمراً أشبه بمسألة داخلية. لقد عرف أحدهم بأمر مسدسي. وهذا يعني أن القاتل -كائناً من كان- قد دخل عملياً إلى هذا البيت، وربما تناول معي الشاي.

اعترضت قائلاً: ليس بالضرورة، فربما كانت قرية سينت ميري ميد بأسرها تعرف أين تضع فرشاة أسنانك وما نوع معجون الأسنان الذي تستعمله.

- ولكن لماذا يثير ذلك اهتمامهم؟

- لا أدري، ولكنه الحقيقة. لو بدلت معجون حلاقتك لكان ذلك موضوع حديث في القرية!

- لا بد أنهم يعانون من نقص رهيب في الأخبار.

- نعم، بالطبع. فلا يحدث هنا شيء مثير أبداً.

- حسناً، ها قد حدث الآن... وبانتقام.

وافقته على ذلك فسأل: ولكن مَن يخبرهم بكل هذه الأمور؟ عن معجون الحلاقة مثلاً؟

- ربما أخبرتهم السيدة آرتشر العجوز.

- تلك العجوز العجفاء؟ إنها بنصف عقل كما يبدو لي.

شرحت له قائلاً: ذلك هو التمويه الذي يتبعه الفقراء. إنهم يحتمون خلف قناع الغباء، ولعلك تجد أن تلك العجوز أكمل ما تكون عقلاً. بالمناسبة، إنها تبدو الآن واثقة تماماً من أن المسدس كان في مكانه المعتاد ظهر الثلاثاء، فما الذي جعلها فجأة جازمة لهذا الحد؟

- ليست لدي أية فكرة عن ذلك.

- أتظن أنها مصيبة في قولها؟

- هذا أيضاً لا أعرفه؛ فأنا لا أقوم بجردٍ لمقتنياتي كل يوم.

نظرت حولي في غرفة الجلوس الصغيرة. كانت كل الرفوف والطاولات تزخر بأشياء مختلفة عديدة. كان لورنس يعيش وسط فوضى «فنية» كان من شأنها أن تفقدني صوابي لو كنت مكانه.

قال وقد لاحظ نظرتي: يكون من الصعب أحياناً العثور على الأشياء، ومن جانب آخر فإن كل شيء في متناول اليد... وليس مخفياً في زاوية ما.

- ما من شيء مخفيّ بالتأكيد، وربما كان من الأفضل لو كان المسدس كذلك.

- أتعلم أنني توقعت من المحقق أن يقول شيئاً كهذا؟ المحققون أغبياء جداً. لقد توقعت توجيه تقريع شديد لي.

- بالمناسبة، هل كان المسدس محشواً؟

هز لورنس رأسه بالنفي وقال: لست مهملاً إلى هذه الدرجة. كانَ فارغاً، ولكن كانت بجانبه علبة طلقات.

- يبدو أن حجراته الست قد ملئت بالطلقات، وأن طلقة واحدة قد أُطلقت.

أومأ لورنس برأسه موافقاً وقال: ومن هو صاحب اليد التي أطلقتها؟ لن يكون الأمر على ما يرام حتى يتم اكتشاف القاتل الحقيقي، وبغير ذلك سأبقى موضع شبهة في هذه الجريمة حتى موتي.

- لا تقل ذلك يا بني.

- بل سأقوله.

سكتَ عابساً مع نفسه، ثم نهض أخيراً وقال: ولكن دعني أخبرك كيف سارت الأمور معي ليلة أمس. أنت تعلم أن الآنسة ماربل تعرف بعض الأمور.

- أظن أنها لا تحظى بشعبية واسعة بسبب ذلك.

مضى لورنس في روايته لقصته. فقد ذهب إلى منزل أولد هول بناء على نصيحة الآنسة ماربل، وهناك استطاع بمساعدة آن إجراء مقابلة مع الخادمة. كانت آن قد قالت لها ببساطة: "يريد السيد لورنس ريدنغ أن يسألك بضعة أسئلة"، ثم تركتهما وغادرت الغرفة.وقد شعر لورنس بشيء من الارتباك. أما الخادمة روز، الفتاة الجميلة ابنة الخامسة والعشرين، فقد حدقت إليه بنظرة دهشة وجدها مربكة نوعاً ما، ثم قال: الأمر... الأمر يخص وفاة الكولونيل بروثيرو.

سألته: نعم يا سيدي؟

- إنني حريص جداً على الوصول إلى الحقيقة.

- نعم يا سيدي.

- أشعر أنه ربما كانت... أن أحداً ربما... أنه ربما وقع حادث معين...

عند هذه النقطة شعر لورنس أنه لا يعطي صورة مشرفة عن نفسه، فشتم الآنسة ماربل واقتراحاتها. ثم قال للفتاة: كنت أتساءل إن كان بوسعك مساعدتي؟

- نعم يا سيدي.

كان موقف روز ما يزال الموقف التقليدي للخادمة المثالية: مؤدبة، حريصة على المساعدة، محافظة تماماً على عدم الفضول. قال لها: دعينا من كل شيء. ولكن، ألم تناقشوا الأمر معاً في قاعة الخدم؟

ارتبكت روز قليلاً من طريقة الهجوم هذه وقالت: في قاعة الخدم يا سيدي؟

- أو في غرفة مربية المنزل، أو المطبخ، أو أي مكان تتحدثون فيه؟ لا بد من وجود مكان ما.

أظهرت روز ميلاً خفيفاً جداً للضحك، فوجد لورنس في ذلك تشجيعاً له وقال: اسمعيني يا روز، أنت فتاة في غاية اللطف والروعة، وأنا واثق أنك ستفهمين ما أشعر به. أنا لا أريد أن أنتهي مشنوقاً. إنني لم أقتل سيدك، ولكن كثيراً من الناس يرون أنني قتلته. ألا يمكنك مساعدتي بأية طريقة؟

بوسعي أن أتصور في هذه النقطة كيف بدا لورنس وقتها أشدّ ما يكون وسامة وإثارة للعطف، برأسه الجميل وعينيه الزرقاوين. استسلمت روز قائلة: آه يا سيدي! إنني على ثقة... إن استطاع أيٌّ منا مساعدتك بأية طريقة. لا أحد منا يرى أنك فعلت ذلك... أبداً.

- أعرف يا فتاتي العزيزة، ولكن هذا لن يساعدني مع الشرطة.

مالت روز برأسها وقالت: الشرطة! بوسعي أن أخبرك يا سيدي أننا لم نُعجب كثيراً بذلك المفتش المدعو سلاك. يا للشرطة!

- ومع ذلك فالشرطة أقوياء جداً. والآن يا روز، لقد قلتِ إنك ستفعلين ما بوسعك لمساعدتي. لا أملك إلاّ أن أشعر بأنه يوجد الكثير مما لم نعرفه بعد. فمثلاً تلك السيدة التي جاءت لزيارة الكولونيل بروثيرو ليلة مقتله.

- السيدة ليسترينج؟

- نعم، السيدة ليسترينج. لا يسعني إلاّ الشعور بأن في زيارتها تلك شيئاً غريباً.

- نعم، بالفعل يا سيدي، هذا ما قلناه جميعاً.

- حقاً؟

- لقدومها بتلك الطريقة، وسؤالها عن الكولونيل. وقد سبق ذلك بالطبع الكثير من الأحاديث... إذ لا أحد يعرف شيئاً عنها هنا. والسيدة سيمونز، وهي مدبرة المنزل هنا، ترى أن هذه السيدة سيئة جداً. ولكن بعد سماع ما قالته غلاديس فإنني لا أدري ماذا أقول.

- ماذا قالت غلاديس؟

- لم تقل شيئاً يا سيدي! كان ذلك مجرد... كنا نتحدث فقط.

نظر لورنس إليها، وراوده شعور أنها أبقت على شيء لم تذكره فقال: إنني أتساءل كثيراً عن موضوع مقابلتها تلك للكولونيل.

- نعم يا سيدي.

- وأظنك تعرفين يا روز؟

- أنا؟ آه، لا يا سيدي! أنا حقاً لا أعرف. وكيف لي ذلك؟

- اسمعيني يا روز، لقد قلتِ إنك ستساعدينني. إن كنت قد سمعت بالصدفة شيئاً... أيّ شيء... حتى لو لم يبدُ مهماً، فسأكون في منتهى الامتنان لك. إذ ربما سمع أحدهم بالصدفة... بمحض الصدفة شيئاً ما.

- ولكني لم أسمع شيئاً يا سيدي، لم أسمع حقاً.

قال لورنس بذكاء حاد: إذن فقد سمع أحد غيرك شيئاً.

- آه يا سيدي!

- أخبريني رجاء يا روز.

- لا أدري ما الذي ستقوله غلاديس.

- لا شك أنها تريد منك إبلاغي. من هي غلاديس بالمناسبة؟

- إنها خادمة المطبخ يا سيدي. وكانت قد خرجت قليلاً لمجرد الحديث مع صديق لها، وكانت تعبر أمام النافذة... وكان سيدي هناك مع تلك السيدة. كان يتكلم طبعاً بصوت عال جداً، وهو دائماً يتكلم بصوت عال. وكان طبيعياً... أعني مع ما كانت تشعر به من فضول...

- هذا طبيعي جداً، أعني أن المرء يجد نفسه مضطراً للإصغاء.

- ولكنها لم تخبر أحداً بالطبع... باستثنائي أنا. وكلانا وجدنا الأمر غريباً جداً. ولكن غلاديس لم تستطع قول شيء، إذ لو عُرف أنها كانت خارجة لرؤية... لرؤية صديق، لسبّبَ ذلك الكثير من المشكلات مع السيدة برات، أي الطباخة. ولكني واثقة أنها مستعدة لإخبارك بكل شيء يا سيدي.

- حسناً، هل أذهب إلى المطبخ وأتحدث معها؟

أرعب روز هذا الاقتراح فقالت: آه، كلا يا سيدي، لن ينفع ذلك أبداً! كما أن غلاديس فتاة شديدة الارتباك على كل حال.

وأخيراً تمت تسوية الأمر بعد نقاش مطول حول النقاط الصعبة، وتم الترتيب للقاء سري بين الشجيرات في الحديقة.

وهناك قابل لورنس في نهاية الأمر تلك الفتاة المرتبكة العصبية التي شبهها بأنها أقرب إلى أرنب مرتعد منها إلى إنسانة طبيعية. وقد تطلبت تهدئتها عشر دقائق، وهي تشرح أنها لا تستطيع... وأنها لا تظن... وأنها لا ينبغي لها، وأنها لم تحسب أن روز ستفشي أمرها، وأنها لم تقصد إيذاء أحد، وأنها ستتضرر كثيراً إن قُدِّر للسيدة برات أن تسمع بالموضوع.

ومارس لورنس كل ما في وسعه من تهدئة وإقناع... وفي النهاية وافقت غلاديس على الكلام: "إن كنت واثقاً أن الأمر لن يعدونا نحن يا سيدي"، كما قالت.

- بالطبع لن يعدونا.

- ولن يُنسَب ذلك إليّ في أية محكمة؟

- أبداً.

- ولن تخبر سيدتي؟

- ولا بأي شكل.

- أأنت واثق أن الأمر سيكون على ما يرام؟

- طبعاً، وستكونين سعيدة يوماً ما لأنك أنقذتِني من حبل المشنقة.

صدرت عن غلاديس صرخة خفيفة وقالت: آه! إنني لا أحب ذلك بالطبع يا سيدي. حسناً، إن ما سمعته قليل جداً... وكان ذلك كله بمحض الصدفة إن جاز لي القول...

- أفهم ذلك تماماً.

- ولكن سيدي كان غاضباً جداً. كان يقول لها: "بعد كل هذه السنوات تجرئين على القدوم إلى هنا...". ثم قال: "إنه أمر يثير الغضب...". لم أستطع سماع ما قالته السيدة، ولكنه قال بعد قليل: "إنني أرفض نهائياً... نهائياً...". لا أستطيع تذكّر كل شيء... بدا وكأنهما منخرطان في مساجلة حامية، هي تريد منه القيام بشيء وهو يرفض. كانت إحدى العبارات التي قالها: "إنه لمن العار أن تأتي إلى هنا". كما قال أيضاً: "إنك لن تريها... أمنعكِ من ذلك...". وهذا ما جعلني أصغي بكل انتباه. بدا وكأن السيدة تريد إخبار زوجة الكولونيل بروثيرو بشيء ما وهو خائف من ذلك. وفكرتُ قائلة لنفسي: "ماذا؟ أيعقل ذلك من سيدي؟ سيدي دون غيره؟ وهو الذي لا يتمتع بأية وسامة في نهاية الأمر، أيعقل ذلك؟". وقلت لصديقي بعدها: "الرجال كلهم سواء". وهو لم يتفق معي، بل ناقش وجادل، ولكنه اعترف أنه مدهوش من أمر الكولونيل بروثيرو... باعتباره عضواً في هيئة الكنيسة ويقرأ الدروس أيام الأحد. وقلت له: "نعم، عادة ما يكون هؤلاء أسوأ من غيرهم إذا انحرفوا". هذا ما سمعت أمي ترده دوماً.

توقفت غلاديس لتسترد أنفاسها، وحاول لورنس بلباقة إعادتها إلى حيث بدأ الموضوع فقال: هل سمعت شيئاً آخر؟

- من الصعب أن أتذكر بدقة يا سيدي. كان الكلام متشابهاً إلى حد بعيد. قال مرة أو مرتين: "لا أصدق ذلك". جاءت العبارة هكذا: "لا أصدق ذلك مهما قال الدكتور هيدوك".

- أوَقال ذلك؟ مهما قال الدكتور هيدوك؟

- نعم، وقال إن الأمر كله مؤامرة.

- ألم تسمعي السيدة تتكلم أبداً؟

- سمعتها فقط في النهاية تماماً. كانت قد نهضت لتذهب كما يبدو واقتربت أكثر من النافذة، وسمعتُ ما قالته، وقد جمّد قولها الدم في عروقي فعلاً. لن أنسى أبداً ما قالته... قالت: "في مثل هذا الوقت من ليلة الغد قد تكون ميتاً"! وكانت طريقة قول العبارة شريرة. وبمجرد سماعي لنبأ الجريمة قلت لروز: "أرأيت؟ أرأيت؟".

وقف لورنس متعجباً يتساءل. تساءل بشكل رئيسي عن المقدار الذي يمكن فيه الاعتماد على قصة غلاديس، ومع أنه رأى أنها صحيحة في خطوطها العامة، إلاّ أنه شك في أنها قد مرت بشيء من التزويق والتجميل منذ مقتل الكولونيل. وشك بشكل خاص في دقة تلك الملاحظة الأخيرة، ورأى من الممكن كثيراً أن يكون السبب في وجود تلك العبارة هو مقتل الكولونيل فقط. شكر غلاديس وكافأها

بما تستحقه وطمأنها بأنه لن يبوح بهفواتها للسيدة برات، ثم غادر أولد هول وفي ذهنه الكثير مما يشغله.

شيء واحد كان واضحاً، وهو أن لقاء السيدة ليسترينج مع الكولونيل بروثيرو لم يكن بالتأكيد لقاء هادئاً، وأنه كان لقاء حرص الكولونيل على عدم علم زوجته به.

فكرتُ في قصة الآنسة ماريل عن عضو هيئة الكنيسة الذي كانت له عائلة أخرى لا يعلم بها أحد. أتكون هذه القصة مشابهة لتلك؟ وتعجبت -أكثر ما تعجبت- من علاقة هيدوك بالأمر كله. لقد أنقذ السيدة ليسترينج من الاضطرار للإدلاء بشهادتها في التحقيق، ولقد فعل كل ما في وسعه لحمايتها من الشرطة. ولكن: إلى أيّ مدى سيستمر في تلك الحماية؟ وإذا افترضنا أنه يشك في ارتكابها للجريمة... أتراه يحاول -رغم ذلك- التستر عليها؟

كانت امرأة غامضة غريبة... امرأة ذات سحر مغنطيسي لا يقاوَم. أنا نفسي كرهت فكرة ربطها بالجريمة بأي شكل. شيء ما في داخلي قال: "لا يمكن أن تكون هي!" لماذا؟ وأجاب شيطان في رأسي قائلاً: "لأنها امرأة رائعة الجمال والحسن، هذا هو السبب".

وكما كان من شأن الآنسة ماريل أن تقول في مثل هذه المواقف، فإن فينا جميعاً الكثير من طبائع النفس البشرية.

* * *

الفصل العشرون

عندما عدت إلى بيتي وجدت أننا في وسط أزمة منزلية. قابلتني غريزلدا في الصالة وسحبتني -والدموع في عينيها- إلى غرفة الجلوس قائلة: إنها ذاهبة.

- من هي الذاهبة؟

- ماري؛ لقد أعطتني إشعاراً بذلك.

لم أستطع فعلاً تلقي الخبر بشكل مأساوي، فقلت: حسناً، سنضطر للحصول على خادمة أخرى.

بدا لي أن قول ذلك مسألة طبيعية تماماً، فعندما يذهب خادم المرء فإنه يوظف خادماً غيره. كنت حائراً في فهم نظرة التأنيب في عيني غريزلدا التي قالت: لين... إنك شديد قسوة القلب؛ أنت لا تهتمّ!

والحقيقة أنني لم أهتم؛ بل إنني شعرت بقليل من الارتياح وأنا أفكر بأننا سنتخلص من الفطائر المحروقة والخضار التي لا تنضج.

مضت غريزلدا قائلة بصوت كله رثاء للنفس: سيتعين عليّ البحث عن فتاة، والعثور عليها، ثم تدريبها.

- وهل ماري مدرَّبة؟

- بالطبع مدربة.

- لا أحسب إلاّ أن أحداً سمعها تنادينا: «سيدي» و«سيدتي» فانتزعها منّا فوراً باعتبارها فريدة عصرها، كل ما يمكنني قوله هو أن أمل ذلك الشخص سيخيب.

- ليس الأمر كذلك، فلا أحد يريدها، ولا أدري كيف يمكن لأحد أن يريدها. المسألة في مشاعرها. جُرحت مشاعرها لأن ليتيس بروثيرو قالت إنها لا تحسن التنظيف بشكل جيد.

كثيراً ما تخرج عليّ غريزلدا بأقوال مدهشة، ولكن عبارتها هذه بدت مدهشة إلى حدٍّ جعلني أشك بها. بدا لي أن أبعد الأمور احتمالاً في العالم أن تخرج ليتيس عن طبيعتها لتتدخل في شؤوننا المنزلية وتوبخ خادمتنا على كسلها في أعمال البيت. كان ذلك أبعد ما يكون عن طبيعة ليتيس. وقد قلت ذلك: لا أرى ما هي العلاقة بين ليتيس بروثيرو وتنظيف بيتنا.

- ليست لها أية علاقة؛ ولذلك كان الأمر غير معقول أبداً، ليتك تذهب وتتكلم مع ماري بنفسك. إنها في المطبخ.

لم أكن أرغب بالحديث مع ماري في الموضوع، ولكن غريزلدا -وهي شديدة النشاط والسرعة- دفعتني عبر الباب باتجاه المطبخ قبل أن يتاح لي الاعتراض. كانت ماري تقشر البطاطا عند المجلى. قلت لها بارتباك: همم، مساء الخير.

رفعت ماري رأسها وأطلقت صوتاً كالشخير، ولم تزد عليه.

- السيدة كليمنت تقول لي إنك ستتركيننا.

تنازلت ماري وأجابت عن ذلك بغموض قائلة: بعض الأمور ينبغي أن لا يُطلب من أية فتاة التعايش معها.

- هل لك أن تخبريني ما الذي أزعجك بالضبط؟

- أستطيع أن أخبرك بذلك بكلمتين (وهنا أظن أنها أخلفت وعدها أيما إخلاف): ما بال الناس يأتون إلى هنا ويدسون أنوفهم بحثاً عن الأخطاء عندما أدير ظهري؟ وما هذا التسكع؟ وما شأنها هي بعدد المرات التي يُمسح فيها أثاث المكتب أو يُنظف المكتب تنظيفاً شاملاً؟ إن كنت أنت والسيدة لا تشتكيان فليس من شأن أحد أن يتدخل. إن كنت أرضيكما فهذا كل ما يهم.

لم تكن ماري ترضيني أبداً، وأعترف أن بي شوقاً لغرفةٍ يتم مسحها وترتيبها كل صباح. وإن عادة ماري في نفض الأتربة الأكثر ظهوراً عن الطاولات الصغيرة لم تكن برأيي كافية أبداً. ولكني أدركت أن لا فائدة في الوقت الحاضر من الدخول في قضايا جانبية.

- ألم أضطر للذهاب إلى ذلك التحقيق؟ فتاة محترمة مثلي تقف هناك أمام اثني عشر رجلاً! ومن يدري أية أسئلة يطرحون. سأقول لك ما يلي: لم أكن أبداً من قبل في مكان تقع فيه جريمة قتل، ولا أريد أبداً أن أكون ثانية في مثل ذلك المكان.

- أرجو أن لا تكوني، ولكن أظن أن ذلك سيكون مستبعداً جداً حسب قانون الاحتمالات.

- إنني لا أهتم للقانون. ألم يكن هو حاكماً؟ وكم من فقير

سجنه لمجرد اصطياد أرنب... وهو الذي يربي طيور الزينة وغيرها الكثير. وفوق ذلك، وقبل أن يتم دفنه تأتي ابنته تلك وتقول إنني لا أقوم بعملي كما ينبغي.

- أتعنين أن الآنسة بروثيرو كانت هنا؟

- وجدتها هنا عندما عدت من فندق بلو بور. كانت في المكتب، وعندما دخلت قالت: "آه! إنني أبحث عن قبعتي الصغيرة... إنها قبعة صغيرة صفراء تركتها هنا قبل أيام". قلت لها: "إنني لم أرَ أية قبعة هنا. لم تكن هنا عندما نظفت الغرفة صباح الخميس". فقالت: "آه! ولكنني أظن أنك ما كنت لتريها. إنك لا تقضين وقتاً طويلاً في تنظيف الغرف، أليس كذلك؟". ومع قولها هذا مررت أصبعها على رف الموقد ثم نظرت إليها. وكأنني كنت أملك وقتاً كافياً في مثل هذا اليوم لأزيح كل التحفيات ثم أعيدها، والشرطة لم يفتحوا الغرفة إلاّ ليلة أمس. قلت لها: "إن كان الكاهن وزوجته راضيين فإنني أظن يا آنسة أن هذا هو كل ما يهم". فما كان منها إلاّ أن ضحكت وخرجت من الباب الزجاجي قائلة: "آه! ولكن هل أنت واثقة أنهما راضيان؟".

قلت لها: فهمت.

- وهذا ما حصل... إن للفتاة شعوراً! إنني مستعدة -بالتأكيد- لبذل كل جهد من أجلك أنت وسيدتي، ولو أنها رغبت في تجربة طبق جديد لكنت دوماً مستعدة لصنعه.

قلت مهدئاً: أنا واثق من ذلك.

- ولكن لا بد أنها سمعت شيئاً، وإلاّ لما قالت ما قالته. وإن كنت لا أرضي أحداً فالأفضل أن أذهب. وهذا لا يعني أنني أهتم بما تقوله الآنسة بروثيرو، فهي غير محبوبة في أولد هول. لا يسمع أحد منها كلمة «شكراً» أو «من فضلك»، كما أنها تبعثر المال ذات اليمين وذات الشمال. ما كنت شخصياً لأضع دكاناً قرب الآنسة ليتيس بروثيرو، رغم كل تعلق السيد دينيس بها. ولكنها من ذلك النوع الذي يمكنه التلاعب بالشباب الصغار كيفما يريد.

خلال حديثها كله كانت ماري تنظف البطاطا من العيون والبثور التي تكون بها، وكانت تقوم بذلك بقوة بلغت حداً جعل تلك العيون تتطاير في أرجاء المطبخ كأنها حبات بَرَد. وفي هذه اللحظة أصابتني إحداها في عيني وسببت توقفاً مؤقتاً في الحديث، فقلت وأنا أجفف عيني بالمنديل: ألا ترين أنك قد ملت كثيراً إلى الشعور بإهانة لم تكن مقصودة أبداً؟ إنك تعرفين يا ماري أن سيدتك ستكون حزينة جداً لفقدانك.

- ليس عندي شيء ضد سيدتي... ولا ضدك أنت يا سيدي.

- حسناً، ألا ترين إذن أنك تتصرفين بشيء من السخف؟

نشقت ماري وقالت: لقد كنت منزعجة قليلاً، بسبب التحقيق وما شهده. كما أن للفتاة مشاعرها... ولكني لا أريد أن أسبب لسيدتي أية إرباكات.

- حُلَّت القضية إذن.

غادرت المطبخ لأجد غريزلدا ودينيس ينتظرانني في الصالة.

هتفت غريزلدا: هاه؟

- إنها باقية.

ثم تنهدتُ فقالت زوجتي: لين، لقد كنتَ ذكياً فعلاً.

شعرت بأنني لا أميل للاتفاق معها. أنا لا أرى أنني كنت ذكياً؛ إذ أعتقد جازماً أنه ما من خادمة يمكن أن تكون أسوأ من ماري، وأرى أن أيّ تغيير سيكون بالضرورة تغييراً للأفضل. ولكنني أحب إسعاد غريزلدا، وقد رويت لها الخطوط العريضة لشكوى ماري، فقال دينيس: يا لطبيعة ليتيس! لا يمكن أن تكون قد نسيت تلك القبعة الصفراء هنا يوم الأربعاء، فقد كانت تلبسها للعب التنس يوم الخميس.

قلت: يبدو لي ذلك محتملاً جداً.

قال دينيس بشيء من الفخر الممزوج بالحب الذي شعرت أن لا داعي له إطلاقاً: إنها لا تعرف أبداً أين تترك أشياءها، وتفقد دستة من الأغراض كل يوم.

علّقتُ قائلاً: يا لها من ميزة رائعة!

قال دينيس متنهداً: وليتيس رائعة بالفعل... والشباب دائماً يتقدمون لخطبتها، هي قالت لي ذلك.

- لا بد أن عروض الخطبة هذه غير شرعية إن كانت تتم هنا في القرية، فليس لدينا هنا أي أعزب.

قالت غريزلدا وعيناها تتراقصان: يوجد الدكتور ستون.

اعترفتُ قائلاً: لقد دعاها بالأمس للذهاب لرؤية القبر.

قالت غريزلدا: طبعاً دعاها، فهي جذابة بالفعل يا لين. وحتى عالم آثار أصلع بوسعه أن يشعر بذلك.

قال دينيس وهو يفتعل الحكمة: فيها الكثير من الجاذبية.

ومع ذلك فإن سحرها لم يؤثر أبداً في لورنس ريدنغ. ولكن غريزلدا فسرت ذلك بطريقة الواثق من صحة كلامه: لورنس نفسه لديه الكثير من الجاذبية، وهذا النوع يُحِب دائما... ماذا يسمون ذلك... يحب من يكنّ كثيرات التحفظ والحياء. أظن أن آن هي المرأة الوحيدة التي بوسعها إقناع لورنس، ومع ذلك فإنني أرى أنه كان -بطريقة ما- غبياً بعض الشيء. لقد استخدم ليتيس بشكل أو بآخر، ولا أظنه حلم أبداً بأن تكون مهتمة به؛ فهو متواضع جداً من بعض الجوانب. ولكن لدي شعور بأنها مهتمة به بالفعل.

قال دينيس جازماً: إنها لا تطيقه. هي قالت لي ذلك.

استقبلت غريزلدا ملاحظته بصمت مشفق لم أرَ مثله أبداً من قبل. وذهبت إلى مكتبي، فتخيلت أن جوّاً غريباً مخيفاً لا يزال يخيم على الغرفة، وعرفت أن عليّ التغلب على هذا الشعور، إذ قد لا أستطيع استخدام المكتب ثانية أبداً لو استسلمت له. مشيت متأملاً إلى حيث طاولة الكتابة. هنا جلس بروثيرو بوجهه الأحمر وحيويته وأخلاقياته الصارمة، وهنا قُتل بغتة. هنا -حيث أقف أنا- وقف عدو من قبل، وهكذا... لم يعد لبروثيرو وجود!

هنا القلم الذي أمسكته أصابعه. وعلى الأرض كانت توجد بقعة

قاتمة باهتة... لقد أُرسلت السجادة إلى المصبغة لتنظيفها، ولكن الدم كان قد تخللها عميقاً. ارتعدتُ وقلت بصوت عالٍ: لا أستطيع استخدام هذه الغرفة، لا أستطيع استخدامها.

ثم وقعت عيناي على شيء... مجرد نقطة من اللون الأزرق اللامع. انحنيت، فرأيت بين طرف الطاولة والأرض شيئاً صغيراً فأخذته. وفيما أنا واقف أحدق إليه وهو في راحة يدي دخلت غريزلدا قائلة: نسيت أن أخبرك يا لين. تريد الآنسة ماربل منا زيارتها اليوم بعد العشاء لتسلية ابن أخيها؛ فهي تخشى أن يناله السأم، وقد قلت لها إننا سنأتي.

- حسناً يا عزيزتي.

- ما الذي تنظر إليه؟

قلت لزوجتي: لا شيء. وأطبقت كفي وأكملت وأنا أنظر إليها: إن كان السيد ريموند وست لا يُسرّ بك يا عزيزتي فهذا يعني أن إسعاده صعب جداً.

احمرّ وجه زوجتي وقالت: لا تكن سخيفاً يا لين.

ثم خرجتْ ثانية وعدت لأفتح يدي. كان في راحة يدي قرط أزرق لازوردي ذو لآلئ صغيرة جداً.

كانت قطعة غير عادية من الحلي، وكنت أعرف تماماً أين رأيتها آخر مرة.

❁ ❁ ❁

الفصل الحادي والعشرون

لا يمكنني القول إنني كنت أُكِنُّ في أي وقت إعجاباً كبيراً بريموند وست. أعلم أنه -كما يُفترض- روائي ألمعي، وأنه جعل لنفسه اسماً كشاعر، ولكن قصائده لا يمكن فهمها، الأمر الذي يشكل -كما أعتقد- جوهر الحداثة، ورواياته تدور حول شخصيات كريهة تعيش في سأم قاتل.

ويبدي السيد وست حباً سمحاً لِـ«العمة جين» التي يشير إليها وهي حاضرة باعتبارها من «بقايا زمن غابر». وهي تصغي لحديثه باهتمام كبير، ولئن طرفت بعينها أحياناً مسرورة بحديثه فإنني واثق أنه لا ينتبه لذلك أبداً.

وقد وجه اهتمامه فوراً إلى غريزلدا بسرعة تلفت النظر. ناقش الاثنان المسرحيات الحديثة، ثم انتقلا من ذلك إلى أساليب الديكور الحديثة. وقد تصنعت غريزلدا السخرية من ريموند وست، ولكنني أظن أنها تأثرت بحديثه.

وخلال حديثي (الممل) مع الآنسة ماربل تناهت إلى مسامعي عدة مرات عبارة «تدفنون أنفسكم هنا». وأخيراً بدأت هذه العبارة

تزعجني فقلت فجأة: أحسب أنكَ تعتبرنا خارج العالم تماماً هنا في هذه القرية.

لوّح ريموند وست بلفافة التبغ في يده وقال بلهجة الواثق: إنني أعتبر سينت ميري ميد بركة مياه راكدة.

ثم نظر إلينا وكأنه مستعد لتلقي السخط من عبارته، ولكن أحداً لم يعبر عن انزعاجه، الأمر الذي أظنه أزعجه كثيراً. قالت الآنسة ماربل بسرعة: ليس هذا حقاً بالتشبيه الجيد يا عزيزي ريموند. لا أظن أن بوسعك أن ترى شيئاً يضج بالحياة تحت المجهر أكثر من نقطة ماءٍ أُخذت من بركة مياه راكدة.

اعترف الروائي قائلاً: هذه حياة... من نوع ما.

قالت الآنسة ماربل: وهي -حقاً- من نفس نوع الحياة أينما كانت، أليس كذلك؟

- أتقارنين نفسك مع أحياء بركة راكدة يا عمة جين؟

- يا عزيزي، إنني أتذكر أنك قلت شيئاً من هذا القبيل في آخر كتاب لك.

ما من شاب ذكي يحب أن يتم الاستشهاد بأعماله ضده شخصياً، ولا يُستثنى ريموند وست من ذلك، فقد صاح بسرعة: ذلك مختلف تماماً.

قالت الآنسة ماربل بصوتها الهادئ: إن الحياة في نهاية الأمر هي نفسها أينما كانت. يولد الإنسان، ثم ينمو... ثم يحتك بغيره من

الناس... ويتزاحم معهم، ثم يأتي الزواج والمزيد من الأطفال...

قال ريموند وست: وأخيراً الموت، ولا يكون ذلك موتاً بشهادة وفاة دوماً، فمِن الأحياء مَن هم موتى.

قالت غريزلدا: بمناسبة الحديث عن الموت، أتعلم أن جريمة قتل قد حدثت عندنا هنا؟

نحّى ريموند وست جرائم القتل جانباً بإشارة من يده وقال: القتل مسألة بالغة الفظاظة... إنني لا أهتم بها.

لم يخدعني قوله هذا دقيقة واحدة؛ إذ أنك لن ترى أحداً لا يهتم بجرائم القتل. وفيما يمكن للبسطاء من أمثالي وأمثال غريزلدا أن يعترفوا بهذه الحقيقة، فإن شخصاً مثل ريموند وست مضطر للتظاهر بالسأم... في الدقائق الخمس الأولى على الأقل.

ولكن الآنسة ماربل فضحت ابن أخيها بقولها: أنا وريموند لم نكن نناقش شيئاً غير ذلك طوال العشاء.

سارع ريموند إلى القول: "إنني أهتم كثيراً بكل الأنباء المحلية"، ثم ابتسم بلطف وتسامح للآنسة ماربل.

سألته غريزلدا: ألديك نظرية فيما يخص هذه الجريمة؟

قال وهو يلوح بلفافته: منطقياً، شخص واحد يمكن أن يكون قد قتل بروثيرو.

- من؟

اشرأبت عيوننا إليه بانتباه فقال: الكاهن.

شهقتُ فقال يطمئنني: إنني أعرف طبعاً أنك لم تقتله؛ فالحياة لا تكون أبداً كما ينبغي أن تكون. ولكن فكر فيما يشتمل عليه ذلك من دراما... ومن تناسب... عضو هيئة كنيسة يُقتل في مكتب الكاهن على يد الكاهن... قضية مثيرة جداً!

سألته: والدافع؟

اعتدل في جلسته تاركاً لفافته تنطفئ وقال: آه! هذا أمر مثير. أظنه عقدة النقص... ربما كان بسبب كبت هائل. بودي لو أكتب قصة هذه القضية.. معقدة بشكل رهيب! أسبوعاً بعد أسبوع، وسنة بعد أخرى كان يرى ذلك الرجل في اجتماعات الكنيسة كل يوم، وكان يكره ذلك الرجل دوماً... وكان يبتلع دوماً مشاعر الكراهية لديه، فهي مشاعر لا يقرها الدين. وهكذا اعتملت تلك المشاعر في الداخل، تحت السطح، وفي أحد الأيام...

ثم قام بحركة تصويرية برأسه.

التفتت غريزلدا إليّ وقالت: أشعرت يوماً بمثل ذلك يا لين؟

قلت صادقاً: أبداً.

قالت الآنسة ماربل: ومع ذلك فقد سمعتُ أنك تمنيت مغادرته هذا العالم من وقت ليس بالبعيد.

(يا لذلك التعس دينيس! ولكنها كانت غلطتي بالطبع أن أقول تلك الملاحظة). قلت: أخشى أنني قلت ذلك فعلاً، كانت ملاحظة سخيفة بدرت مني، ولكني كنت قد قضيت معه صباحاً متعِباً جداً.

قال ريموند وست: هذا مخيب للآمال، فلو كان عقلك الباطن يخطط فعلاً لقتله لما سمح لك بقول تلك الملاحظة أبداً.

ثم تنهد وقال: لقد سقطتْ نظريتي. ربما كانت هذه جريمة قتل اعتيادية تماماً... سارق طيور يريد الانتقام أو ما شابه ذلك.

قالت الآنسة ماربل: لقد جاءت الآنسة كرام لرؤيتي بعد ظهر اليوم. قابلتها في القرية وسألتها إن كانت تحب رؤية حديقتي.

سألت غريزلدا: أهي مغرمة بالحدائق؟

قالت الآنسة ماربل وهي تطرف برموشها قليلاً: لا أظنها مغرمة، ولكن في ذلك حجة مفيدة جداً للحديث، ألا تظنين ذلك؟

سألت غريزلدا: وكيف وجدتِها؟ لا أظنها سيئة لتلك الدرجة؟

- تطوعَتْ بالكثير من المعلومات... أعطت حقاً الكثير من المعلومات، حول نفسها وحول أسرتها. يبدو أنهم جميعاً إما أموات أو غائبون في الهند... أمر محزن جداً! بالمناسبة، لقد ذهبَتْ إلى أولد هول لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

- ماذا؟

- نعم، يبدو أن السيدة بروثيرو دعتها (أو أنها هي التي لمّحت للسيدة بروثيرو... لا أدري تماماً أيهما الذي حصل)، وذلك للقيام ببعض الأعمال الكتابية؛ فكثير من الرسائل ينبغي كتابته. وقد كان في ذلك بعض الحظ، باعتبار الدكتور ستون غائباً وليس لديها ما تفعله. كم أثار اكتشاف ذلك القبر من حماسة.

قال ريموند: ستون؟ أهو رجل الآثار؟

- نعم، إنه ينقب عن قبر أثري في أرض بروثيرو.

- إنه رجل طيب، حاذق جداً في اختصاصه. التقيته في مناسبة عشاء قبل فترة قريبة وتبادلنا حديثاً ممتعاً. لا بد أن أزوره.

قلت: لقد سافر قبل قليل مع الأسف إلى لندن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. بل لقد اصطدمتَ به عملياً في المحطة عصر اليوم.

- لقد اصطدمتُ بك أنت.. وكان معك رجل سمين ضئيل الجسم، ويضع نظارات.

- نعم... إنه الدكتور ستون.

- ولكن يا صاحبي! لم يكن ذلك الدكتور ستون.

- لم يكن ستون؟!

- ليس ستون عالم الآثار. إنني أعرفه تماماً. لم يكن ذلك الرجل هو الدكتور ستون، بل إنه لا يحمل أي شبه به.

حدقنا كلنا بعضنا إلى بعض، وحدقت أنا خصوصاً إلى الآنسة ماربل وقلت: غريب جداً!

قالت الآنسة ماربل: الحقيبة.

قالت غريزلدا: ولكن لماذا؟

تمتمت الآنسة ماربل قائلة: يذكرني ذلك بزمانٍ ادعى فيه أحدهم أنه مفتش الغاز... ولم يكسب إلاّ القليل.

قال ريموند وست: شخص منتحل، هذا حقاً مثير.

قالت غريزلدا: السؤال هو هل لذلك أية علاقة بالجريمة؟

- ليس بالضرورة، ولكن...

ثم نظرتُ إلى الآنسة ماربل التي قالت: هذا فعلاً أمر غريب. أمر غريب آخر!

قلت وأنا أنهض: نعم، إنني أشعر أن علينا إبلاغ المفتش بذلك فوراً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

كانت أوامر المفتش سلاك مختصرة جازمة فور حديثي معه بالهاتف. ينبغي أن لا «يتسرب» شيء، وينبغي -بشكل خاص- عدم تنبيه الآنسة كرام. وفي غضون ذلك سيتم البدء ببحثٍ عن الحقيبة في المنطقة المجاورة للقبر الأثري.

عدت وغريزلدا إلى البيت ونحن في غاية الانفعال لهذا التطور الجديد. ولم يكن بوسعنا قول الكثير بحضور دينيس بعد أن وعدْنا المفتش بصدق أن لا نبس بكلمة لأحد، وقد كان دينيس منشغلاً بمتاعبه الخاصة على أية حال؛ جاء إلى مكتبي وبدأ يعبث بأصابعه ويؤرجح قدميه شأنه حين يكون محرجاً جداً. قلت له أخيراً: ما الأمر يا دينيس؟

- يا عم لين، إنني لا أريد مهنة البحرية.

دهشت لقوله، فقد كان الفتى -حتى تلك اللحظة- مصمماً جداً بشأن مهنته المستقبلية.

- ولكنك كنت متحمساً جداً لها.

- نعم، ولكني غيرت رأيي.

- ما الذي تريد فعله؟

- أريد الالتحاق بعالم المال.

ازدادت دهشتي أضعافاً وسألته: ما الذي تعنيه بالمال؟

- ما قلته تماماً. أريد الذهاب إلى المدينة.

- ولكن يا بني العزيز، أنا واثق أنك لن تحب الحياة هناك. حتى لو حصلت على وظيفة في مصرف...

قال دينيس إنه لم يقصد ذلك، فهو لا يريد الالتحاق بمصرف. سألته عما يعنيه بالضبط فوجدت أن الفتى -كما توقعت- لم يكن يعرف حقاً ما يريد.

كان يعني بالذهاب «إلى عالم المال» مجرد أن يصبح غنياً بسرعة، الأمر الذي أوحى له تفاؤل الشباب بأنه مؤكد بمجرد «الذهاب إلى المدينة». خلّصته من هذه الفكرة بأفضل ما أستطيعه من لطف ثم سألته: ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟ لقد كنت مقتنعاً تماماً بفكرة الالتحاق بالبحرية.

- أعرف يا عم لين، ولكنني كنت أفكر. إذ لا بد لي من أن أتزوج يوماً ما... و... ولا بد أن يكون المرء غنياً حتى يتزوج فتاة.

- الحقائق تدحض نظريتك هذه.

- أعرف... ولكني أعني فتاة اعتادت العيش الرغيد.

كان حديثه غامضاً، ولكن حسبت أنني عرفت ما يعنيه فقلت

بلطف: أتدري، ليست كل الفتيات مثل ليتيس بروثيرو.

رد فوراً بغضب: أنت متحامل جداً عليها، ولا تحبها. غريزلدا أيضاً لا تحبها، تقول إنها متعِبة.

إن غريزلدا محقة تماماً من وجهة النظر النسوية؛ فليتيس متعبة فعلاً، ولكن بوسعي أن أدرك أن من شأن فتى مثل دينيس أن يكره هذا الوصف.

- لو أن الناس يبدون فقط بعض التسامح. حتى عائلة هارتلي نابيير يدورون ويتذمرون منها في وقت كهذا! لمجرد أنها غادرت لعبة التنس مبكرة قليلاً. لماذا تبقى إن هي أحست بالملل؟ أظن أنه كان لطفاً كبيراً منها أن تذهب أصلاً.

- ذلك فضل عظيم.

ولكن دينيس لم ينتبه لعبارتي الساخرة، فقد كان مستغرقاً في آلامه الخاصة التي يحسها نيابة عن ليتيس. وأضاف قائلاً: إنها حقاً أبعد ما تكون عن الأنانية. وحتى أريك فقط عدم أنانيتها أقول إنها جعلتني أبقى هناك، فقد أردت أن أذهب أيضاً بالطبع، ولكنها رفضت ذلك بتاتاً. قالت إن ذلك سيكون سيئاً على أسرة نابيير، وهكذا بقيت ربع ساعة أخرى لمجرد إسعادها. والآن سمعت أن سوزان هارتلي نابيير تدور في كل مكان وتقول إن ليتيس قليلة الأدب.

فكرت بأن للشباب آراء بالغة الغرابة في الأنانية والإيثار. قلت: لو كنت مكانك لما اهتممت.

قال دينيس: "حسناً، ولكن..."، وبعد توقف طويل أكمل قائلاً: إنني على استعداد لأن... لأن أفعل أي شيء من أجل ليتيس.

- قليلون منا يستطيعون عمل أي شيء لأحد، وكائناً ما كانت رغبتنا في ذلك، فلا حول لنا ولا قوة.

- ليتني كنت ميتاً!

يا للفتى المسكين، إن حب المراهقين مرض فتاك! أحجمت عن قول أي من الأمور الواضحة التي تتبادر بسهولة إلى الذهن وقد تكون مزعجة له، وبدل ذلك تمنيت له ليلة طيبة وذهبت للنوم.

قمت صباح اليوم التالي لأجد غريزلدا جالسة إلى طاولة الإفطار وفي يدها رسالة مفتوحة. كانت الرسالة من آن بروثيرو:

عزيزتي غريزلدا

إن استطعت القدوم أنت وزوجك للغداء هنا بهدوءٍ اليومَ فسأكون ممتنة كثيراً لكما. لقد حدث أمر غريب جداً، وأرغب في استشارة الكاهن.

رجاء لا تذكري ذلك عند قدومك فأنا لم أخبر أحداً بشيء.

المخلصة: آن بروثيرو

قالت غريزلدا: ينبغي أن نذهب بالطبع.

وافقتها على ذلك، فقالت: أتساءل ما الذي عساه حصل؟

كنت أنا أيضاً أتساءل عن ذلك. قلت لغريزلدا: أتعلمين، أشعر بأننا لم نصل بعدُ إلى نهاية هذه القضية.

- أتعني أننا لن نصل حتى يُعتقل أحدٌ فعلاً؟

- كلا لم أقصد ذلك. أقصد أن فيها تفرعات وأموراً تجري في الخفاء ولا نعلم شيئاً عنها. هناك كم كبير من الأمور التي ينبغي إزاحتها وتبديدها قبل أن نصل إلى الحقيقة.

- أتعني بذلك أموراً ليست ذات أهمية ولكنها تعترض الطريق؟

- نعم، أظن ذلك يعبر عن المعنى بشكل جيد.

قال دينيس وهو يتناول بعض المربى: أظن أننا نثير جميعاً ضجة كبرى لا داعي لها. إنه لأمر رائع أن يموت بروثيرو، فلم يكن أحد يحبه. آه! أعرف أن الشرطة لا بد أن يهتموا... فهذا عملهم. ولكني أتمنى شخصياً أن لا يعثروا على شيء. إنني أكره رؤية سلاك وقد ترقى ومضى متبجحاً بذكائه.

إن لديّ من الضعف البشري ما يجعلني أميل إلى الموافقة على النقطة الخاصة بترقية سلاك؛ إذ ليس من حق رجل جعل دأبه إزعاج الناس ومضايقتهم أن يأمل حبهم.

مضى دينيس قائلاً: الدكتور هيدوك يرى تقريباً نفس ما أراه؛ فهو لم يسلم قاتلاً إلى العدالة أبداً. هو الذي قال ذلك.

أعتقد أن هذا هو الخطر في آراء الدكتور هيدوك. فقد تكون صحيحة بحد ذاتها -وهذا ما لا أقرره أنا- ولكنها تترك على عقل الشباب اللاهي انطباعاً لا يقصده هيدوك نفسه بكل تأكيد.

نظرت غريزلدا من النافذة وقالت إن في الحديقة صحفيين، ثم

أضافت متنهدة: أظنهم يصورون نوافذ المكتب ثانية.

لقد عانينا الكثير من هذا الأمر؛ ففي البداية كان فضول أهل القرية، حيث جاء الجميع لينظروا ويحدقوا. ثم جاء الصحفيون مسلحين بأجهزة تصويرهم، وجاء أهل القرية من جديد ليروا المصورين. وفي النهاية اضطررنا لإحضار شرطي من بلدة مَتش بينهام المجاورة ووضعه خارج المنزل. قلت: حسناً، ستكون الجنازة صباح غد، وبعدها ستخف الحماسة بالتأكيد.

عندما وصلنا إلى أولد هول لاحظت وجود بعض الصحفيين يتسكعون هناك، وقد أمطروني بالعديد من الأسئلة التي لم أجب عنها بغير الجواب المعتاد (الذي وجدناه الأفضل): "ليس لدي ما أقوله".

قادنا كبير الخدم إلى غرفة الجلوس التي بدا أن شاغلتها الوحيدة كانت الآنسة كرام... وقد بدت في سعادة كبيرة. قالت وهي تصافحنا: إنها مفاجأة، أليس كذلك؟ ما كنت لأفكر أبداً بمثل هذا الأمر، ولكن السيدة بروثيرو امرأة لطيفة، كما أنه ليس من المستساغ بالنسبة لشابة مثلي أن تبقى بمفردها في مكان كفندق بلو بور مع وجود كل أولئك الصحفيين. وهذا لا يعني طبعاً أنني لم أستطع تقديم بعض المساعدة... فالمرء يحتاج فعلاً لسكرتيرة في مثل هذا الوقت، والآنسة ليتيس لا تقدم أية مساعدة، أليس كذلك؟

لاحظت أن عداءها القديم لليتيس باقٍ، ولكن الفتاة أصبحت -كما هو واضح- نصيرة متحمسة للسيدة بروثيرو. وقد تساءلتُ في نفس الوقت إن كانت قصة قدومها إلى هنا دقيقة جداً، فهي تدعي أن المبادرة جاءت من آن، ولكني تساءلت إن كان الأمر كذلك

بالفعل. ربما كانت أول إشارة منها لكراهيتها الإقامة في الفندق هي التي صدرت من الفتاة. ورغم أنني تركت عقلي مفتوحاً لتقبل كل الاحتمالات في هذا الأمر، إلاّ أنني لم أرَ أن الآنسة كرام كانت صادقة كل الصدق.

في تلك اللحظة دخلت آن بروثيرو الغرفة.كانت ترتدي السواد الهادئ، وتحمل في يدها صحيفة مدتها إليّ بنظرة حزينة وقالت: ليست لدي أية خبرة بمثل هذه الأمور. أمر كريه جداً، أليس كذلك؟ لقد رأيت صحفياً أثناء التحقيق. قلت له فقط إنني منزعجة جداً وليس لدي ما أقوله، ثم سألني إن كنت متلهفة على العثور على قاتل زوجي فقلت له: "نعم". ثم سألني إن كانت لدي أية شكوك فأجبته بالنفي، وسألني إن كنت أرى أن الجريمة تدل على معرفة تفصيلية بالقرية فقلت إنها تبدو كذلك بالتأكيد. وكان ذلك كل ما دار من حديث. والآن انظر إلى هذه!

في وسط الصفحة كانت صورة من الواضح أنها أُخذت قبل عشر سنوات (والله أعلم من أين جاؤوا بها)، وتحتها بعنوان بارز:

أرملة تعلن أنها لن تستريح حتى توقع بقاتل زوجها

السيدة بروثيرو، أرملة الرجل القتيل، واثقة أن البحث عن القاتل ينبغي أن يتم في حدود القرية. ولديها شكوكها، ولكن لا شيء مؤكد. وهي تقول إن الحزن قد شلّها ولكنها مصممة على الإيقاع بالقاتل.

قالت آن: كلام لا يشبهني في شيء، أليس كذلك؟

قلت وأنا أعيد لها الصحيفة: كان من الممكن أن يكون الأمر باعتقادي أسوأ من ذلك.

قالت الآنسة كرام: أليس ذلك وقاحة منهم؟ بودي لو أرى واحداً من أولئك الذين يحاولون الحصول مني على شيء.

من طرفة عين السيدة بروثيرو اقتنعتُ بأنها ترى في هذا القول من الصحة أكثر مما أرادت الآنسة كرام له أن يبدو.

جاء من يعلن أن الغداء جاهز فدخلنا إلى غرفة الطعام. لم تأت ليتيس للغداء حتى كنا في منتصف وجبتنا، حيث دخلت ومضت بأسلوبها التائه إلى حيث المكان الفارغ وهي تحيي غريزلدا بابتسامة وتحييني أنا بإيماءة من رأسها. راقبتُها ببعض الانتباه لأسباب خاصة بي، ولكنها كانت على نفس طبيعتها الغامضة المبهمة. كانت رائعة الجمال... هذا ما يضطرني الإنصاف للاعتراف به، وكانت ما تزال محجمة عن لبس السواد حيث ارتدت لباساً أخضر فاتح اللون.

بعد شرب القهوة قالت آن بهدوء: أريد أن أتكلم قليلاً مع الكاهن، سأدعوه إلى الطابق العلوي حيث غرفة جلوسي.

جاء الوقت أخيراً لأعرف سبب استدعائنا. نهضت وتبعتها على الدرج. توقفتْ عند باب الغرفة، وحينما كنت على وشك الكلام مدت يدها لتوقفني. بقيت منصتة وهي تنظر إلى الأسفل حيث الصالة، ثم قالت: حسناً، إنهم يخرجون إلى الحديقة. كلا... لا تدخل هناك، سنصعد إلى الأعلى.

ووسط دهشتي سارت أمامي عبر الممر حتى نهايته، حيث كان درج ضيق أشبه بالسلّم يفضي إلى الطابق الأعلى. ارتقتْ وأنا

خلفها حتى وجدنا نفسينا في ممر خشبي يعلوه الغبار. فتحت آن أحد الأبواب وأدخلتني إلى سقيفة واسعة قليلة الإضاءة بدا واضحاً أنها تُستخدم لخزن الأثاث والحاجيات القديمة. كانت فيها صناديق ثياب، وقطع أثاث قديم مكسور، وبعض الصور المكدسة، مع كل تلك الأشياء العديدة التي تحفل بها مثل هذه الغرف.

كانت دهشتي بادية لدرجة جعلتها تبتسم قليلاً وتقول: عليّ أولاً أن أشرح لك الأمر. إن نومي خفيف جداً في هذه الأيام، وفي الليلة الماضية... أو بالأحرى صباح هذا اليوم، في نحو الثالثة ليلاً، كنت على قناعة بأنني سمعت أحداً يتحرك في المنزل. أصغيت لبعض الوقت، ثم نهضت أخيراً وخرجت لأرى، وعلى استراحة الدرج خارج غرفتي أدركت أن الأصوات تأتي من فوق وليس من الأسفل. تقدمت حتى أسفل هذا الدرج الضيق، وهناك خُيل لي أيضاً أنني سمعت صوتاً. ناديت: "هل من أحد؟"، فلم ألقَ جواباً ولم أعد أسمع شيئاً، وهكذا افترضت أن أعصابي هي التي تخدعني وعدت إلى النوم. ولكني صعدت إلى هنا في وقت مبكر من صباح اليوم لا يدفعني لذلك إلاّ الفضول. ووجدت هذه!

انحنت وأدارت صورة كانت تستند إلى الجدار وظهرها إلينا.

شهقت دهشة. بدا واضحاً أن الصورة كانت رسماً شخصياً بالألوان الزيتية، ولكن الوجه كان مقطَّعاً بطريقة وحشية لم يعد بالإمكان معها التعرف على صاحب الصورة، وفوق ذلك بدا واضحاً أن ذلك التقطيع والتشويه تم حديثاً. قلت: يا له من أمر غريب جداً!

- أليس كذلك؟ قل لي، هل يخطر في بالك أي تفسير؟

هززت رأسي نافياً وقلت: في هذا الأمر نوع من الوحشية التي لا أرتاح لها. يبدو وكأن ذلك تمّ خلال نوبة من الغضب الجنوني.

- نعم، هذا ما ظننته أيضاً.

- ما هي هذه الصورة؟

- ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك، فلم أرها أبداً من قبل. كل هذه الأشياء كانت في السقيفة عندما تزوجت لوكيوس بروثيرو وجئت للعيش هنا.

- غريب جداً!

انحنيت وتفحصت الصور الأخرى. كانت من تلك الصور التي يتوقع المرء وجودها في مثل هذه السقيفة... صور عادية لمناظر طبيعية، وأخرى للوحات زيتية، ولوحات مقلَّدة ذات أُطرٍ رخيصة.

لم أجد ما يفيد... صندوق ثياب ضخم قديم الطراز وقد كتبت عليه الأحرف الأولى «أ. ب.»، فرفعت غطاءه فوجدته فارغاً، ولم يكن في السقيفة شيء آخر ذو دلالة. قلت: إنه فعلاً حدث مدهش جداً. ولكنه أيضاً... غير ذي معنى.

- نعم، وهذا يخيفني قليلاً.

لم يكن ثَمّ ما يُرى غير ذلك. رافقتها إلى غرفة جلوسها فأغلقتِ الباب وقالت: أتظن أن عليّ أن أفعل شيئاً حيال ذلك؟ أأخبر الشرطة؟

ترددت وقلت: من الصعب القول ظاهرياً إن كان...

أكملت هي العبارة قائلة: إن كان للأمر علاقة بجريمة القتل

أم لا، أعرف ذلك. هذا هو مكمن الصعوبة، فظاهرياً لا تبدو أية علاقة بين الأمرين.

- نعم، ولكنه أمر غريب آخر.

جلسنا ساكتين نقطب حاجبينا، ثم قلت: ما هي خططك، إن كان لي أن أسأل؟

رفعت رأسها وقالت بشيء من التحدي: سأستمر في العيش هنا لستة أشهر أخرى على الأقل! رغم أنني لا أحب ذلك، فأنا أكره فكرة العيش هنا. ولكني أرى أن ذلك هو السبيل الوحيد، وإلاّ قال الناس إنني هربت... وإن ضميري يعذبني.

- ليس هذا معقولاً.

- آه، نعم. سيقولون ذلك. خاصة أنني عندما... عندما تنتهي الأشهر الستة... سأتزوج لورنس.

التقت عينانا وهي تقول: كلانا لا يريد الانتظار أكثر من ذلك.

- كنت أحسب أن ذلك سيحدث.

فجأة انهارت ودفنت رأسها بيديها قائلة: أنت لا تدري كم أنا ممتنة لك... لا تدري. كنا قد ودّعَ بعضُنا بعضاً، وكان على وشك الرحيل. أشعر بشعور فظيع تجاه موت لوكيوس، ولو كنا نخطط للهروب معاً ومات وقتها لكان الأمر فظيعاً بالنسبة لي الآن، ولكنك جعلتنا نرى مقدار الخطأ في ذلك التصرف. ولهذا أنا ممتنة لك.

قلت لها متجهماً: أنا أيضاً شاكر لكما.

اعتدلت في جلستها وقالت: ومع ذلك، طالما أن القاتل الحقيقي لم يُكشف فإنهم سيظنون دوماً أنه لورنس... آه! نعم، سيظنون ذلك، وخاصة عندما يتزوجني.

- يا عزيزتي، لقد أثبتت شهادة الدكتور هيدوك بما لا يدع مجالاً للشك...

- ومتى اهتم الناس بالشهادات؟ إنهم لا يعرفون بأمرها، والدليل الطبي لا يعني شيئاً بالنسبة لأناس غرباء على أية حال. وهذا سبب آخر لبقائي هنا يا سيد كليمنت. إنني سأعثر على الحقيقة.

التمعت عيناها وهي تتكلم، ثم أضافت: ولذلك طلبت من تلك الفتاة القدوم إلى هنا.

- الآنسة كرام؟

- نعم.

- أنت التي دعوتِها إذن. أعني أن الفكرة كانت فكرتك.

- فكرتي تماماً، لقد دعوتها إلى هنا عامدة.

- ولكن، أتراك تظنين من الممكن أن تكون لتلك الشابة السخيفة علاقة بالجريمة؟

- من السهولة البالغة الظهور بمظهر السخافة يا سيد كليمنت. هذا واحد من أسهل الأمور في الدنيا.

- إذن فأنت حقاً تظنين...

- لا، لا تكمل، فأنا لا أظن شيئاً سوى أن تلك الفتاة تعرف شيئاً ما... أو ربما عرفت شيئاً. أريد دراستها عن كثب.

قلت متأملاً: وفي أول ليلة لها هنا تم تمزيق تلك الصورة!

- أتظنها هي التي فعلت ذلك؟ ولكن لماذا؟ يبدو ذلك في منتهى السخف والاستحالة.

- يبدو لي في منتهى السخف والاستحالة أن يُقتل زوجك في مكتبي، ولكنه قُتل فيه!

وضعتْ يدها على ذراعي وقالت: أعرف، إنه أمر فظيع بالنسبة لك. إنني أدرك ذلك، مع أنني لم أتحدث كثيراً عنه.

أخرجتُ القرط الأزرق اللازوردي من جيبي ورفعته أمامها قائلاً: أظن أن هذا لك؟

- آه، نعم!

مدت يدها لتأخذه بابتسامة سرور قائلة: أين وجدته؟

ولكنني لم أضع القرط في يدها الممدودة، بل قلت: أتمانعين إن احتفظتُ به لفترة بسيطة؟

- لا أمانع بالتأكيد.

بدت متسائلة، ولكني لم أُشبع فضولها. سألتها عن وضعها المالي وقلت: أعرف أنه سؤال وقح، ولكنني لا أقصده بهذا المعنى.

- لا أراه وقحاً أبداً، فأنت وغريزلدا أفضل صديقين لي هنا، كما أنني أحب تلك العجوز المسلية الآنسة ماربل. لقد كان لوكيوس كما تعلم غنياً جداً، وقد قسم تركته بالتساوي تماماً بيني وبين ليتيس. هذا المنزل يؤول إليّ، ولكن تقضي الوصية بأن تختار ليتيس من الأثاث ما يكفي لفرش بيتٍ صغير لها، وقد ترك لها مبلغاً منفصلاً لشراء بيت، بحيث تصبح القسمة متساوية.

- ما هي خططها، أتعرفين؟

ابتسمت آن بسخرية وقالت: إنها لا تخبرني بخططها. يخيل إلي أنها ستترك هذا المنزل بأسرع ما تستطيع. إنها لا تحبني... لم تحبني أبداً. أظنني المخطئة، رغم أنني حاولت حقاً أن أكون منصفة معها دائماً. ولكني أحسب أن أية فتاة تكره وجود امرأةِ أبٍ شابة.

سألتها فجأة: أتحبينها؟

لم تجبني على الفور، وهذا ما أقنعني بأن آن بروثيرو امرأة شديدة الصدق. قالت أخيراً: أحببتها في البداية. كانت فتاة رائعة جداً، ولكن لا أظن أنني أحبها الآن. لا أدري لماذا... ربما لأنها لا تحبني. أنا أحبّ أن يحبني الناس.

قلت: "كلنا نحب ذلك"، فرأيتها تبتسم.

بقيت أمامي مهمة واحدة، وهي تبادل بضع كلمات مع ليتيس بروثيرو على انفراد. وقد تدبرت ذلك بسهولة عندما رأيتها وحدها في غرفة الجلوس، وكانت غريزلدا وغلاديس كرام في الحديقة. دخلتُ وأغلقت الباب خلفي وقلت: ليتيس، أريد الحديث معك.

رفعت رأسها دون اهتمام وقالت: نعم؟

كنت قد فكرت مسبقاً فيما سأقوله. مددت يدي بالقرط الأزرق وقلت: لماذا أسقطتِ هذا في مكتبي؟

رأيتها تتصلّب للحظة... كاد ذلك يكون أقرب للمح البصر، ثم استعادت السيطرة على نفسها بسرعة مذهلة جعلتني أشك فيما رأته عيناي، وقالت دون اهتمام: أنا لم أسقط في مكتبك شيئاً أبداً. هذا ليس لي... إنه قرط آن.

- أعرف ذلك.

- حسناً، لماذا تسألني إذن؟ لا بد أن آن أسقطته.

- إن السيدة بروثيرو لم تدخل إلى مكتبي إلاّ مرة واحدة بعد الجريمة، وعندها كانت تلبس السواد، ولذلك لا يمكن أن ترتدي مع السواد قرطاً أزرق.

- في تلك الحالة لا بد أنها أسقطته قبل ذلك... هذا هو التفسير المنطقي.

- منطقي جداً. أتراك تذكرين متى كانت زوجة أبيك تضع هذا القرط في أذنيها آخر مرة؟

- آه!

نظرتْ إليّ نظرة بدت فيها بعض الحيرة وقالت: أهذا مهم جداً؟

- ربما كان مهماً.

- سأحاول التذكر.

جلست هناك عاقدة الحاجبين تفكر. لم يسبق لي رؤية ليتيس بروثيرو بمثل هذه الفتنة التي بدت عليها في هذه اللحظة. قالت فجأة: آه، نعم! كانت تلبسه... يوم الخميس. تذكرت الآن.

قلت ببطء: الخميس كان يوم الجريمة، وقد جاءت السيدة بروثيرو إلى غرفة المكتب من الحديقة في ذلك اليوم. ولكنها قالت في شهادتها -إن كنت تذكرين- إنها لم تصل إلاّ للباب الزجاجي للمكتب، وليس إلى داخله.

- وأين وجدته أنت؟

- ملقى تحت طاولة الكتابة.

قالت ليتيس ببرود: يبدو الأمر -إذن- كما لو أنها لم تقل الحقيقة، أليس كذلك؟

- أتعنين أنها دخلت ووقفت عند الطاولة؟

- هكذا يبدو، أليس كذلك؟

ثم نظرت إليّ بعينين صافيتين وقالت بهدوء: إن أردت رأيي فإنني لم أحسب أبداً أنها كانت تقول الحقيقة.

- وأنا أعرف أنك أنت لا تقولين الحقيقة يا ليتيس.

جفلت وقالت: ما الذي تعنيه؟

- أعني أن آخر مرة رأيتِ فيها هذا القرط كانت صباح يوم الجمعة عندما أتيتُ إلى هنا مع الكولونيل ميلتشيت. كان موضوعاً مع فردته الأخرى على طاولة زينة السيدة بروثيرو، وقد تلمستُ الفردتين كلتيهما بنفسي عملياً.

- آه...!

اضطربتْ وقذفت نفسها فجأة على ذراع كرسيها وانفجرت بالبكاء. تدلى شعرها الأشقر حتى كاد يبلغ الأرض. كان موقفاً غريباً... جميلاً وتلقائياً.

تركتها تنتحب لبضع دقائق في صمت ثم قلت لها بكل لطف: لماذا فعلتِ ذلك يا ليتيس؟

- ماذا؟

قفزت وعدلت من جلستها وهي تقذف شعرها بقوة إلى الخلف. بدت مذعورة... بل مرعوبة إلى حد ما. قالت: ماذا تعني؟

- ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟ أهي الغيرة؟ كراهيتك لآن؟

- آه، نعم.

ردّت شعرها عن وجهها إلى الخلف وبدت فجأة وكأنها قد استعادت السيطرة على نفسها ثم قالت: نعم، بوسعك أن تسمي ذلك غيرة. كنت دوماً أكره آن... منذ أن أتت هنا لتلعب دور الملكة. لقد وضعتُ ذلك القرط البائس تحت الطاولة. كنت أرجو أن يوقعها ذلك في المتاعب... وكان سيوقعها لو لم تكن أنت ذلك المتدخل

الذي يدس أنفه ويتلمس طاولات زينة الآخرين. وعلى كل حال، ليس من شأن رجل الدين أن يقوم بمساعدة الشرطة.

بدا أن من الصعب النظر بجدية إلى محاولتها الانتقام من آن. وقد قلت لها ذلك، وأضفت أنني سأعيد القرط للسيدة بروثيرو دون أن أخبرها شيئاً عن ملابسات عثوري عليه. بدت متأثرة بذلك بعض الشيء وقالت: هذا لطف كبير منك.

سكتت قليلاً ثم قالت وهي تختار كلماتها بعناية وتشيح بوجهها: لو كنت مكانك يا سيد كليمنت... لو كنت مكانك لأبعدت دينيس من هنا بأسرع ما يمكن. أظن... أظن أن ذلك أفضل.

رفعت حاجبي بشيء من التعجب، ولكن بشيء من التسلي أيضاً. أضافت قائلة بنفس ذلك الأسلوب الفظيع: سيكون ذلك أفضل فيما أظن. إنني آسفة بشأن دينيس. لا أظنه... على كل حال، أنا آسفة.

وتركنا الموضوع عند تلك النقطة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

في طريق عودتنا اقترحتُ على غريزلدا أن نحوّل طريقنا بحيث نمر على القبر الأثري؛ كنت راغباً في معرفة ما إذا كان الشرطة يعملون هناك، وإن كانوا كذلك فما الذي اكتشفوه، ولكن كان لدى غريزلدا ما تفعله في البيت، وهكذا تركتني لأقوم بالمهمة بمفردي.

وجدت الشرطي هيرست يتولى مسؤولية العمل هناك. قال: ما من أثر حتى الآن يا سيدي، ومع ذلك فإن المنطق يقول إن هذا هو المكان الوحيد لكنزنا.

وقد احترت في فهم ما يرمي إليه، إلاّ أنه سرعان ما أوضح قائلاً: ما أعنيه يا سيدي هو أنه ما من مكان آخر يمكن أن تكون تلك الفتاة قد قصدته بسلوكها ذلك الطريق، فهو لا يؤدي إلاّ إلى أولد هول وإلى هنا وحسب.

- أحسب أن من شأن المفتش سلاك أن يزدري أي إجراء بسيط من قبيل التوجه مباشرة وسؤال الفتاة.

- إنه حريص على عدم تنبيهها للأمر؛ فكل ما تكتبه لستون أو

يكتبه هو لها يمكن أن يلقي الضوء على الأمور... ولكن بمجرد أن تعلم أننا نعرف بأمرها فستطبق فمها هكذا.

لم يوضح الشرطي كيف هي هذه الهكذا، ولكنني شككت في إمكانية أن تطبق الآنسة غلاديس كرام فمها بالطريقة التي وصفها؛ فقد كان من المستحيل تصورها إلاّ كفتاة تتدفق كلاماً.

قال الشرطي هيرست بأسلوب تعليمي: عندما ينتحل امرؤ شخصية غيره فلا بد أن تعرف لماذا ينتحل.

- أمر طبيعي.

- والجواب لا بد أن يوجد في هذا القبر... وإلاّ لماذا بقي يعبث فيه دوماً؟

- ربما اتخذه عذراً ليحوم هنا.

غير أن فكرتي لم ترق للشرطي فقال ببرود: ذلك رأي الهواة.

- ولكنك لم تجد الحقيبة على أية حال.

- سنجدها يا سيدي، لا شك في ذلك.

- لست واثقاً إلى هذا الحد. كنت أفكر بقول الآنسة ماربل إن الفتاة عادت بعد وقت قليل وهي لا تحمل شيئاً، وفي هذه الحالة ما كان لها من الوقت ما يكفي للوصول إلى هنا والعودة ثانية.

- لا تأبه لما تقوله العجائز، فعندما يشاهدن شيئاً غريباً وينتظرن عواقبه بكل لهفة يمر الوقت سريعاً بالنسبة إليهن. وعلى أية حال، لن تجد امرأة تعرف شيئاً عن الوقت.

لطالما تعجبت من ميل العالَم كله للتعميم؛ إذ نادراً ما تصح التعميمات، إن صح منها شيء، وعادة ما تكون خاطئة جداً. أنا شخصياً أعاني من ضعف الإحساس بالوقت (وذلك سبب تركي للساعة متقدمة عن الوقت الحقيقي)، أما الآنسة ماربل -مثلاً- فلها إحساس مرهف بالوقت؛ فساعات بيتها دقيقة كلها حتى الثواني، وهي نفسها دقيقة جداً في كل مواعيدها. ولكنني لم أكن أنوي مجادلة الشرطي في هذه النقطة، ولذلك تمنيت له مساء سعيداً وحظاً طيباً ومضيت.

كنت أقترب من البيت عندما جاءتني الفكرة، وقد جاءت دون مقدمات، بل التمعت فجأة في ذهني كحلٍّ محتمل.

ربما تتذكرون أنني -لدى بحثي الأول في الطريق الترابي في اليوم التالي للجريمة- وجدت الأغصان على غير طبيعتها في مكانٍ معين، وقد تبين -أو أن ذلك ما حسبته وقتها- أن ذلك الأثر كان من مرور لورنس خلالها وهو يتابع مهمة كمهمتي.

ولكنني تذكرت أننا عثرنا معاً بعد ذلك على أثر آخر لشخص مرّ بين الأغصان، وتبين أن ذلك الشخص لم يكن سوى المفتش. وأنا أعيد التفكير في الأمر تذكرت على نحو محدد بأن الأثر الأول (أثر لورنس) كان واضحاً ملحوظاً أكثر من الثاني، كما لو أن أكثر من شخص قد سلك ذلك الطريق، وفكرت في أن ذلك ربما كان هو الذي لفت انتباه لورنس أساساً لذلك الأثر. فماذا لو افترضنا أن ذلك الأثر الأول كان بفعل مرور الدكتور ستون أو الآنسة كرام؟

تذكرت -أو خُيل لي أنني تذكرت- أنني رأيت هناك العديد

من الأوراق الذابلة على أغصان مكسورة، فإن كان الأمر كذلك لما كان إحداث ذلك الأثر قد تم في نفس الظهيرة التي بحثنا فيها أنا ولورنس. كنت أقترب لتوي من ذلك المكان المقصود، وقد ميزته بسهولة وشققت طريقي ثانية بين الأغصان، ولاحظت هذه المرة وجود أغصان كُسرت حديثاً. لقد مر أحدهم فعلاً من هنا بعد مروري أنا ولورنس. وسرعان ما وصلت إلى المكان الذي التقيت فيه بلورنس. ولكن الأثر الخفيف امتد أبعد قليلاً، ومضيت وراءه. وفجأة اتسعت مساحة ذلك الأثر لتأخذ شكل مساحة صغيرة خالية بها آثار لتغييرٍ حديث في قشرة الأرض. وإنني أقول مساحة خالية لأن النباتات فيها كانت أقل مما عداها، أما أغصان الأشجار فوقها فقد تشابكت، ولم يكن المكان كله أكثر من بضعة أقدام.

في الجانب الآخر كانت النباتات كثيفة مرة أخرى، وبدا واضحاً أن أحداً لم يشق طريقه عبرها مؤخراً. ومع ذلك بدت على غير طبيعتها في مكان واحد فقط. عبرت إليه وركعت على ركبتيّ وأخذت أبعد أغصان الشجيرات والنباتات بكلتا يدي. وقد وجدت مكافأتي في سطح بني لامع. أدخلت يدي وكلي انفعال، وبكثير من الصعوبة أخرجت حقيبة بنية صغيرة.

أطلقت صيحة انتصار، فقد نجحت! ورغم ملاحظات الشرطي المتهكمة فإنني أثبتُّ صحة تحليلي. إلى هنا حملَت الآنسة كرام الحقيبة دون شك. حاولت معالجة قفل الحقيبة فوجدته مقفلاً.

وفيما أنا أنهض واقفاً لاحظت حبة كريستالية صغيرة تميل إلى اللون البني، التقطها بشكل يكاد يكون آلياً ودسستها في جيبي،

ثم أمسكت بالحقيبة من مقبضها وعدت سالكاً الطريق الترابي من جديد. وفيما أنا أصعد المرقاة لأعبرها إلى الممشى المؤدي إلى البيت صاح بي صوت منفعل قريب: آه! سيد كليمنت. لقد وجدتَها! يا لذكائك!

وازنت الحقيبة على السياج بيني وبينها وأنا أسجل في ذهني حقيقة أن الآنسة ماربل هي -بلا منازع- سيدة من يَرَون ولا يُرَون. قالت: هذه هي... كنت سأعرفها أينما كانت.

رأيت أن زعمها هذا ينطوي على شيء من المبالغة مع وجود الآلاف من الحقائب الرخيصة اللامعة التي يشبه بعضها بعضاً بحيث لا يملك أحد تمييز واحدة منها وهو يراها في ضوء القمر من مثل هذا البعد، ولكنني أدركت أن القصة كلها كانت انتصاراً يسجَّل للآنسة ماربل، الأمر الذي يخولها الخروج بشيء من المبالغة المغفورة.

- أحسبها مقفلة يا سيد كليمنت؟

- نعم، كنت على وشك أخذها إلى مركز الشرطة.

- ألا تظن من الأفضل الاتصال بهم هاتفياً؟

ما من شك في أن الاتصال الهاتفي أفضل بكثير؛ إذ سيكون مسيري عبر القرية حاملاً حقيبةً بيدي مدعاة لدعاية غير مرغوبة. وهكذا فتحت بوابة حديقة الآنسة ماربل ودخلت البيت من خلال الباب الزجاجي، وهناك اتصلت وأبلغت عن الخبر من غرفة الجلوس التي أغلقت بابها.

كانت النتيجة أن المفتش سلاك أعلن أنه سيكون عندنا في

غضون دقيقتين. وعندما وصل كان في أنكد حالاته. بادرني قائلاً: حصلنا عليها إذن، أليس كذلك؟ كان عليك -يا سيدي- أن لا تحتفظ بالمعلومات لنفسك. إن كان لديك ما يدعوك للاعتقاد بأنك تعرف مخبأ الغرض الذي يجري البحث عنه فقد كان عليك إبلاغ ذلك للسلطات المعنية.

- كان ذلك مجرد صدفة، فقد جاءتني الفكرة فجأة.

- وهذه قصة محتملة؟ تمشي ما يقرب من ثلاثة أرباع الميل داخل غابة، وتعمد مباشرة إلى النقطة الصحيحة وتضع يدك على الحقيبة!

كان بإمكاني أن أشرح للمفتش سلاك الخطوات المنطقية التي قادتني إلى تلك البقعة تحديداً، ولكنه كان قد حقق غرضه المعتاد في إزعاجي، ولذلك لم أقل شيئاً.

قال المفتش سلاك وهو ينظر إلى الحقيبة بكراهية وباستعداد لعدم الاهتمام: حسناً؟ أحسب أن من الأفضل أن ننظر إلى ما بداخلها.

كان قد أحضر معه رزمة من المفاتيح وسلكاً. وكان القفل من النوع الرخيص، فلم يستغرق فتح الحقيبة أكثر من دقيقتين.

لا أدري ما الذي كنا نتوقعه... ويخيل لي أننا توقعنا شيئاً مثيراً جداً. ولكن أول ما صادفته أعيننا كان وشاحاً ذا نقشة على شكل مربعات وقد اتسخ بالدهون. رفعه المفتش فظهر بعده معطف أزرق غامق قد بهت لونه وهو أسوأ من سابقه. وتبع ذلك كاب من قماش ذي مربعات.

قال المفتش: بضاعة فاسدة.

ثم جاءت بعد ذلك جزمة منخفضة الكعب مهترئة، وفي أسفل الحقيبة كانت رزمة ملفوفة بورق الصحف.

قال المفتش بمرارة وهو يفتح الرزمة: أظنه قميصاً.

بعد لحظة كان يمسك أنفاسه دهشة؛ ففي داخل الرزمة كانت بعض الأغراض الفضية المزخرفة وصحنٌ واسع من نفس المعدن!

صاحت الآنسة ماربل صيحة تعرّف حادة وهتفت: إنها أواني الكولونيل بروثيرو، وبعضها يعود لعهد الملك تشارلز الثاني. هل سمعتما بمثل هذا الأمر!

احمرّ وجه المفتش كثيراً وقال: كانت تلك هي اللعبة إذن... مسألة سرقة؟ ولكني لا أستطيع فهم الأمر؛ إذ لم يُذكر شيء عن فقد مثل هذه الأمور.

قلت: ربما لم يكتشفوا فقدانها. لا أظن مثل هذه الأغراض الثمينة تكون موضوعة بشكل ظاهر للاستخدام اليومي. ربما كان الكولونيل بروثيرو قد احتفظ بها في خزنة ما.

قال المفتش: ينبغي أن أحقق في ذلك. سأذهب الآن فوراً إلى أولد هول. لهذا -إذن- أطلق دكتورنا ستون ساقيه للريح... فبسبب الجريمة وغيرها من الأمور الغريبة، خشي أن نعلم بأنشطته. رأى أن من المرجح أن يتم تفتيش أمتعته، فدفع الفتاة لتخبئها في الغابة مع ثياب مناسبة للتنكر. كان ينوي العودة من طريق مختلف لأخذ تلك الأغراض في ليلةٍ ما بينما تبقى هي هنا لتبديد الشكوك. حسناً،

في ذلك أمر إيجابي واحد، فهذا يبرئه من قضية القتل. لا علاقة له بجريمة القتل، فتلك مسألة أخرى مختلفة.

أعاد وضع الأغراض في الحقيبة ثم انصرف رافضاً دعوة الآنسة ماربل لتناول كوب من الشاي.

قلت متنهداً: حسناً، ها قد حُل أحد الألغاز. ما قاله سلاك صحيح تماماً، ما من مبررات للشك بالدكتور ستون فيما يخص جريمة القتل؛ فلكل أفعاله تفسير مقنع تماماً.

- يبدو الأمر حقاً على هذا النحو، مع أن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً تماماً من كل شيء، أليس كذلك؟

- الدافع غائب بالتأكيد؛ فقد حصل على ما يريد وكان على وشك المغادرة.

- نــ... نعم.

كان واضحاً أنها غير مقتنعة تماماً، ونظرت إليها بشيء من الفضول فسارعت للإجابة على نظرتي المتسائلة بلهفة يخالطها الاعتذار: لا شك أنني مخطئة تماماً، فأنا غبية في مثل هذه الأمور، ولكنني كنت أتساءل فقط... أعني أن هذه الفضيات ثمينة جداً، أليس كذلك؟

- أظن أن صحنا فضياً كالذي رأيناه قد بيع قبل أيام بنحو ألف جنيه.

- أعني أن القيمة ليست في المعدن فقط.

- نعم؛ فالقيمة تكمن في جماليته وتاريخه.

- هذا ما أعنيه، وبيع مثل هذه التحف يتطلب وقتاً لترتيب الأمر، وحتى لو تم ترتيبه فلا يمكن المضي في الأمر إلاّ بسرية. أعني أن السرقة -إذا ما تم الإبلاغ عنها ودب الصياح لدى الشرطة- فلن يكون بالإمكان تسويق تلك الأغراض أبداً.

- لا أفهم تماماً ما الذي تعنينه؟

ازداد ارتباك الآنسة ماربل وازدادت لهجتها اعتذاراً وقالت: أعلم أنني لا أحسن التعبير. ولكن يبدو لي أن... أن هذه الأغراض لم يكن من الممكن سرقتها هكذا ببساطة. التصرف المقنع الوحيد هو أن يتم استبدال تلك التحف بنسخ زائفة عنها، وعندها ربما لا تكشف السرقة إلاّ بعد زمن طويل.

- هذه فكرة عبقرية.

- ستكون تلك هي الطريقة الوحيدة، أليس كذلك؟ وإن كان الأمر كذلك، ففور استبدال التحف لن يكون سبب -كما قلت- لقتل الكولونيل بروثيرو... بل على العكس.

- بالضبط، هذا ما قلتُه.

- نعم، ولكني كنت أتساءل فقط... لا أدري طبعاً... كما أن الكولونيل بروثيرو كان من عادته أن يتكلم كثيراً عما يعتزم فعله قبل القيام به فعلاً، وكان أحياناً لا يقوم بما اعتزمه أبداً، ولكنه ذكر بالتأكيد.

- ماذا ذكر؟

- ذكر أنه سيقوم بتثمين كل حاجياته... وتحدث عن شخص سيأتي من لندن، لأغراض الحصر... لا، ليس الحصر؛ فالحصر لا يقال إلاّ في معرض التركات... ولكن لأغراض التأمين. فقد أخبره أحدهم بضرورة القيام بذلك. تحدث في هذا الموضوع كثيراً، وفي ضرورة إتمامه. لا أدري طبعاً إن كان قد قام بأية ترتيبات فعلية، ولكن إن كان قد قام بذلك...

- فهمت.

- كان من شأن الخبير أن يعرف الحقيقة فور رؤيته للفضيات، وعندها سيتذكر الكولونيل بروثيرو أنه عرض التحف على الدكتور ستون. أتساءل إن كانت عملية الاستبدال قد تمت وقتها... بقليل من خفة اليد كما يسمونها. عملية ذكية... ولكن إن كان الكولونيل قد استدعى خبيراً لتثمين الفضيات فسوف تكون الفأس قد وقعت في الرأس كما يقول العامة.

- فهمت فكرتك. أظن أن علينا التأكد من هذا الأمر.

ذهبت ثانية إلى الهاتف. وسرعان ما كنت أتحدث مع آن بروثيرو في أولد هول. قلت لها: كلا، ليس في الأمر شيء بالغ الأهمية. هل وصل المفتش؟ آه! إنه في طريقه إليك إذن. سيدة بروثيرو، أتستطيعين إخباري إن كنتم قد أجريتم تثميناً لمحتويات منزلكم؟ ماذا تقولين؟

جاء جوابها واضحاً جازماً. شكرتها ووضعت السماعة وعدت

إلى الآنسة ماربل قائلاً: جاءك جواب مؤكد. لقد أجرى الكولونيل بروثيرو ترتيباتٍ لقدوم خبير من لندن يوم الإثنين... أي غداً... للقيام بتثمين شامل. وبسبب وفاة الكولونيل تم تأجيل الأمر.

قالت الآنسة ماربل بهدوء: إذن فقد كان لديه دافع.

- بالنسبة للدافع نعم، ولكن هذا كل ما في الأمر. فعندما أُطلقت الطلقة كان الدكتور ستون قد انضم لتوه إلى لورنس وآن، أو أنه كان يصعد المرقاة في طريقه للانضمام إليهما.

قالت الآنسة ماربل بتأمل: نعم، هذا يخرجه من دائرة الشك.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع والعشرون

عدت إلى بيتي لأجد هاوز في انتظاري في مكتبي. كان يذرع المكتب جيئة وذهاباً بعصبية، وعندما دخلت المكتب جفل كمن أُطلقت عليه النار وقال وهو يمسح جبينه: ينبغي أن تعذرني، فأعصابي أصبحت محطمة مؤخراً.

- يا صديقي العزيز، عليك بالتأكيد أن تسافر من أجل بعض التغيير، وإلاّ سنجدك منهاراً تماماً، وهذا لن يفيد في شيء.

- لا أستطيع ترك موقعي. كلا، هذا شيء لن أفعله أبداً.

- إنها ليست مسألة ترك موضع. أنت مريض، وأنا واثق أن هيدوك سيتفق معي في ذلك.

- هيدوك... ما هذا الطبيب؟ مجرّد طبيب عام في الريف.

- لا أحسبك أنصفته. لقد اعتُبر دوماً رجلاً قديراً في مجال عمله.

- آه! ربما. نعم، أظنه كذلك، ولكنني لا أحبه.

أغمض عينيه وازدرد ريقه بتشنج.

من الواضح لي أن ثمة شيئاً غير طبيعي أبداً عند هاوز. وقد بدا مدركاً لأفكاري، لأنه فتح عينيه وقال بسرعة: ليس بي شيء حقاً. لا يعدو الأمر مسألة هذا الصداع... هذا الصداع الرهيب المضني. لا أدري إن كان بوسعك إعطائي كوباً من الماء.

- بالتأكيد.

ذهبت وأحضرت له كوب ماء بنفسي؛ فقرْعُ الأجراس في بيتنا ممارسة لا طائل منها. أعطيته الماء فشكرني وأخرج من جيبه علبة كرتونية فتحها وأخرج منها كبسولة دواء ابتلعها مع الماء وقال: فيها مسحوق لمعالجة الصداع.

تساءلت فجأة إن كان هاوز قد أدمن تعاطي مثل هذه العقاقير، فمن شأن ذلك أن يفسر كثيراً من تصرفاته الغريبة، ولذلك قلت له: لعلك لا تأخذ الكثير من هذه العقاقير كما أرجو.

- آه، لا، لا. لقد حذرني الدكتور هيدوك من ذلك، ولكنها رائعة فعلاً؛ فهي تسبب ارتياحاً فورياً.

وقد بدا بالفعل أميلَ إلى الهدوء والاتزان. قلت له: اذهب إلى البيت واسترح. كلا، لن أسمع أي مناقشة في ذلك... ولا كلمة.

شكرني ثانية، ثم قال وعيناه تتجاوزانني إلى الباب الزجاجي: لقد... ذهبتَ إلى أولد هول اليوم، أليس كذلك يا سيدي؟

- بلى.

- أرجو أن تعذرني، ولكن هل أُرسل في طلبك إلى هناك؟

نظرت إليه مدهوشاً فتورد وجهه وقال: إنني آسف يا سيدي. إنني... إنني حسبت فقط أن بعض التطورات الجديدة ربما حدثت وكانت سبباً في استدعاء السيدة بروثيرو لك.

لم يكن في نيتي أبداً أن أُشبع فضول هاوز، فقلت له: لقد أرادت مناقشة ترتيبات الجنازة وبعض الأمور الصغيرة الأخرى معي.

- آه! كان ذلك كل ما في الأمر... فهمت.

لم أتكلم. تململ متنقلاً من قدم إلى أخرى، ثم قال أخيراً: السيد ريدنغ جاء لزيارتي ليلة أمس. ولا... ولا أدري لماذا.

- ألم يخبرك؟

- اكتفى بالقول إنه فكر بالمجيء لزيارتي. قال إن المرء يشعر بالوحدة قليلاً في الليل، ولكن لم يسبق له أن زارني من قبل.

قلت مبتسماً: حسناً، يُفترض أنه شاب حسن الصحبة.

- ولماذا يأتي لزيارتي؟ لست مرتاحاً لذلك.

علا صوته حتى احتدّ وهو يضيف: قال إنه سيتردد عليّ ثانية. ما معنى هذا كله؟ ما هي الفكرة التي تراوده برأيك؟

- ولماذا تفترض أن لديه دافعاً خفياً؟

ردد هاوز بعناد: لست مرتاحاً لذلك. إنني لم أهاجمه بأي شكل. لم أشر إلى أنه هو المذنب... حتى عندما اتهم نفسه قلت إن ذلك يبدو أمراً غير مفهوم أبداً. ولو كانت لديّ شكوك بأحد لكانت

بذلك الرجل آرتشر، وليس به هو أبداً. آرتشر من طينة مختلفة تماماً؛ فهو مشرد لا خلق عنده ولا وازع... مجرد عاتٍ سكير.

- ألا ترى أنك قاسٍ قليلاً عليه؟ فنحن لا نعرف عن الرجل إلاّ القليل في نهاية الأمر.

- سارق، لا يخرج من السجن حتى يعود إليه، لا يتورع عن فعل شيء.

سألته بفضول: أتظن حقاً أنه أطلق النار على بروثيرو؟

لدى هاوز كراهية راسخة للإجابة المختصرة بنعم أو بلا، وقد لاحظت ذلك كثيراً مؤخراً. أجابني قائلاً: ألا ترى أنت يا سيدي أن ذلك هو الاحتمال الوحيد الممكن؟

- لا يوجد -حسب معلوماتنا- أي دليل ضده مهما كان.

قال هاوز بحماسة: وتهديداته، أنسيت تهديداته؟

سئمت سماع كل هذا الكلام عن تهديدات آرتشر؛ إذ لا يوجد -بقدر ما أعرف- دليل على أنه أطلق أية تهديدات أساساً.

- لقد كان مصمماً على الانتقام من الكولونيل بروثيرو، وهكذا ملأ جوفه خمراً ثم قتله.

- هذا افتراض محض.

- ولكن لا بد أن تعترف أنه محتمل تماماً؟

- لا، لا أعتبره كذلك.

- إذن لا بد أن تعتبره ممكن الحدوث؟

- كل شيء ممكن الحدوث.

- لماذا لا تعتبره محتملاً؟

- لأن رجلاً مثل آرتشر ما كان ليفكر باستخدام المسدس. إنه السلاح الخطأ.

بدا أن هاوز قد فوجئ بمنطقي. وكان واضحاً أن ذلك لم يكن الاعتراض الذي توقعه. سألني بارتياب: أتظن حقاً أن اعتراضك هذا ممكن فعلاً؟

- إنه -بالنسبة لي- عقبة أكيدة كبرى أمام إمكانية اتهام آرتشر بارتكاب الجريمة.

لم يقل هاوز شيئاً في مواجهة تأكيدي الجازم، ولكنه شكرني وانصرف. رافقته حتى الباب الأمامي، ولاحظت على طاولة الصالة أربع رسائل تجمع بينها خصائص معينة؛ فقد كانت مكتوبة كلها بخط أنثوي لا يمكن أن تخطئه العين، وكانت تحمل جميعاً عبارة «يُسلّم باليد، عاجل»، والفرق الوحيد الذي استطعت ملاحظته هو أن إحدى الرسائل كانت متسخة أكثر من البقية. وقد جعلني التشابه بين هذه الرسائل أراها أكثر من عددها الحقيقي.

خرجت ماري من المطبخ فرأتني أحدق إلى الرسائل فتطوعت قائلة: سُلِّمت كلها باليد في فترة ما بعد الغداء، باستثناء واحدة وجدتها في الصندوق.

أومأت برأسي وأخذت الرسائل وذهبت إلى مكتبي.

كانت أولى تلك الرسائل كما يلي:

عزيزي السيد كليمنت،

لقد علمتُ شيئاً أشعر أنك ينبغي أن تعرفه، وهو يتعلق بوفاة الكولونيل بروثيرو المسكين. سوف أكون ممتنة كثيراً لسماع نصيحتك في هذا الشأن... فيما إذا كان عليّ أن ألجأ إلى الشرطة أم لا. لقد أصبح لدي -منذ وفاة زوجي- عزوف كبير عن كل أنواع الشهرة والدعاية. ربما كان بوسعك المرور لرؤيتي لبضع دقائق بعد ظهر اليوم.

المخلصة: مارثا برايس ريدلي

فتحت الرسالة الثانية، وقرأت فيها:

عزيزي السيد كليمنت،

إنني في حيرة شديدة وانفعال شديد لمعرفة ما ينبغي عليّ فعله. لقد تناهى إلى علمي شيء أشعر أنه ربما كان مهماً، ولكني أشعر برعب كبير من التورط مع الشرطة بأي شكل، وأنا بالغة الانزعاج والقلق. فهل أثقل عليك إن طلبتُ منك المرور بي لبضع دقائق حتى تحلّ لي شكوكي وحيرتي بالطريقة الرائعة التي طالما عهدتها منك؟

اعذرني على إزعاجك.

المخلصة جداً: كارولين وذربي

ألممت بمحتوى الرسالة الثالثة بنظرة، فقد جاء فيها باقتضاب:

عزيزي السيد كليمنت،

بلغني أمر مهم جداً، وأشعر أنك أول من ينبغي أن يطّلع

عليه. هل لك أن تأتي لرؤيتي في وقتٍ ما عصر اليوم؟
سوف أنتظرك.

وقد حملت هذه الرسالة القوية توقيع «أماندا هارتنيل».

ثم فتحت الرسالة الرابعة. لقد كان من حسن طالعي أنني لم أتعرض لإزعاجات الكثير من الرسائل المغفلة من التوقيع، فأنا أرى أن الرسالة المغفلة من التوقيع تكون من أخسّ وأقسى الأسلحة، ولم تكن هذه الرسالة استثناء من ذلك. أُريدَ للرسالة أن توحي بأنها كُتبت على يد شخص أمي، ولكن أموراً عديدة جعلتني أميل إلى تكذيب ذلك الادعاء:

الكاهن العزيز،

أظن أن عليك أن تعرف ما يجري؛ فامرأتك شوهدت وهي تخرج من بيت السيد ريدنغ خلسة. وأنت تعرف ما يعنيه ذلك، فالاثنان متوافقان. وأظن أن عليك أن تعرف.

صديق

هتفت بصوت مشمئز، ثم كوّرت الورقة ورميتها في الموقد المفتوح في نفس الوقت الذي دخلت فيه غريزلدا الغرفة.

- ما هذا الذي ترميه بكل هذا الازدراء؟

- قذارات.

أخذت من جيبي علبة ثقاب أشعلت منها عوداً وانحنيت لأشعل الرسالة ولكن غريزلدا كانت أسرع مني. انحنت وأمسكت بالرسالة المكورة ففتحتها ومسّدتها قبل أن أستطيع منعها. قرأتْها، وأطلقت

عبارة اشمئزاز ثم عادت ورمتها إلي، وهي تدير ظهرها. أشعلتها وراقبتها وهي تحترق.

كانت غريزلدا قد ابتعدت ووقفت أمام النافذة تنظر إلى الحديقة، ثم قالت دون أن تلتفت: لين.

- نعم يا عزيزتي.

- أريد أن أخبرك شيئاً. نعم، لا تُسكتني. عندماً... عندما جاء لورنس ريدنغ إلى هنا أوهمتك أنني لم أكن أعرفه من قبل، وهذا لم يكن صحيحاً، فقد... فقد كنت أعرفه بشكل جيد. والحقيقة أنني كنت أحبه إلى حدٍّ ما قبل أن أعرفك. أظن أن ذلك هو شأن معظم النساء مع لورنس. كنت... كنت في الواقع متعلقة جداً به ذات يوم. لا أعني أنني كتبت له رسائل فاضحة أو أي تصرف غبي مما يرد في الروايات، ولكنني كنت شديدة الاهتمام به ذات يوم.

- لماذا لم تخبريني؟

- آه! لأنني... لا أدري في الواقع، باستثناء... باستثناء أنك تكون أحمق أحياناً في بعض الأمور. لمجرد أنك أكبر مني بكثير فأنت تظن أنني... أنني قد أحب رجالاً آخرين. رأيت أنك ربما تصرفت بشكل مزعج تجاه صداقتي مع لورنس.

قلت وأنا أتذكر ما قالته لي في تلك الغرفة منذ أقل من أسبوع والطريقة الذكية التي تحدثَتْ بها: إنك ذكية جداً في إخفاء الأمور.

- نعم، كنت دوماً قادرة على إخفاء الأمور.. وأكاد أحس -نوعاً ما- بأنني أحب القيام بذلك.

كانت في صوتها رنة فرح طفولي.

- ولكن ما قلتُه صحيح تماماً. لم أكن أعرف أمر علاقته بآن، وتعجبت من التغير الكبير لدى لورنس، ومن عدم.. ومن عدم ملاحظته لي. لم أعتد على ذلك!

ساد شيء من الصمت. ثم قالت غريزلدا بلهفة: أنت تفهمني، أليس كذلك يا لين؟

قلت: بلى، أنا أفهمك.

ولكن هل فهمتها حقاً؟

* * *

الفصل الخامس والعشرون

وجدت صعوبة في التخلص من الانطباع الذي تركته الرسالة المغفلة من التوقيع، فالقار يُلوّث كما يقال. ولكنني جمعت الرسائل الثلاث ونظرت إلى ساعتي ثم انطلقت وأنا أتساءل عن ذلك الشيء الذي «وصل إلى مسامع» ثلاث نساء في وقت واحد. وحسبت أن ذلك الشيء لا بد أن يكون نفس الخبر، ولكن قُدِّر لي أن أُدرك أنني كنت مخطئاً في ذلك.

لا أستطيع الادعاء بأن زياراتي كانت تستدعي المرور أمام مركز الشرطة، ولكن قدميّ انشدّتا إلى هناك تلقائياً. كنت متلهفاً على معرفة ما إذا كان المفتش سلاك قد عاد من أولد هول.

وجدت أنه عاد فعلاً من هناك، وعادت الآنسة كرام معه. كانت غلاديس الجميلة جالسة في مركز الشرطة تأخذ الأمور من موقع المترفع، فقد أنكرت تماماً أنها أخذت الحقيبة إلى الغابة.

قالت: لمجرد أن واحدة من تلك العجائز الثرثارات لا عمل لها إلاّ النظر من نافذتها طوال الليل تأتون أنتم وتختارونني أنا. ألا تذكرون أنها أخطأت مرة عندما قالت إنها رأتني عند نهاية الممشى

عصر يوم الجريمة؟ فإذا كانت قد أخطأت وقتها في رابعة النهار فكيف لها أن تميزني في ضوء القمر؟ إن طريقة تصرف هؤلاء العجائز هنا شريرة. إنهن على استعداد لقول أي شيء، فيما أنا نائمة في سريري بريئة من كل كلامهن. عليكم أن تخجلوا من أنفسكم، أنتم جميعاً.

- وإذا ميّزت صاحبة فندق بلو بور الحقيبة على أنها حقيبتك يا آنسة كرام؟

- إن قالت شيئاً من هذا القبيل فهي مخطئة. ليس على الحقيبة اسم، ولدى الجميع تقريباً حقيبة مثلها. وما للدكتور ستون المسكين، تتهمونه هكذا بأنه سارق من الرعاع! وهو الذي يحمل العديد من الألقاب.

- إذن فأنت ترفضين إعطاءنا أي تفسير يا آنسة كرام؟

- ليست المسألة مسألة رفض. لقد ارتكبتم خطأ، هذا كل ما في الأمر... أنتم وعجائزكم الفضوليات من أمثال الآنسة ماربل. لن أقول كلمة واحدة فوق ذلك... ليس قبل أن يحضر محاميّ. أنا ذاهبة في هذه اللحظة... إلاّ إن كنتم ستعتقلونني.

وجواباً على ذلك نهض المفتش وفتح لها الباب فخرجت وهي تهز رأسها.

قال سلاك وهو يعود إلى مقعده: ذلك هو المنحى الذي اتبعَتْه: الإنكار الكامل. وتلك العجوز ربما كانت قد أخطأت بالطبع. ما من هيئة محلفين ستصدق أن بوسعك أن تميز شخصاً من ذلك البعد تحت ضوء القمر... قد تكون العجوز مخطئة كما قلت.

- ربما، ولكنني لا أظنها أخطأت؛ إذ عادة ما تكون الآنسة ماربل على صواب، وهذا ما يجعلها غير محبوبة.

ابتسم المفتش وقال: هذا ما يقوله هيرست. يا لهذه القرى!

- ماذا عن الأواني الفضية أيها المفتش؟

- تبدو طبيعية تماماً، وهذا يعني بالطبع أن واحداً منها هو المزيَّف دون شك. في بلدة مَتش بينهام رجل شديد الحذق يُعتبر خبيراً في شؤون الفضة، وقد اتصلت به وأرسلت له سيارة تحضره، وسنعرف قريباً أي الأواني هي المزيفة. إما أن تكون السرقة جريمة تمت، أو تكون في مرحلة التخطيط فقط. وهذا لا يغير من الأمر كثيراً، أعني قدر تعلق الأمر بنا... فالسرقة أمر هين مقارنة بالقتل. ربما حصلنا على طرف خيط حوله من خلال الفتاة... لهذا تركتها تذهب دون إثارة المزيد من الضجة.

- أمر عجيب!

- مسكين السيد ريدنغ. إنك لا تجد دوماً رجلاً يبذل كل ما في وسعه ليسدي لك معروفاً.

قلت وأنا أبتسم قليلاً: نعم، أحسب ذلك صحيحاً.

قال المفتش واعظاً: النساء يسببن الكثير من المتاعب.

تنهد ثم مضى قائلاً عبارة أدهشتني قليلاً: ولدينا آرتشر بالطبع.

- آه! هل فكرتَ فيه إذن؟

- طبعاً، منذ البداية. لم أكن بحاجة إلى أية رسائل مغفلة من التوقيع حتى أتعقب أمره.

قلت بحدة: رسائل مغفلة؟ أَوَقد استلمت رسالة مغفلة إذن؟

- هذا ليس جديداً؛ إننا نستلم منها دستة يومياً على الأقل! نعم، أحدهم أخبرنا عن آرتشر، كما لو أن الشرطة لا يستطيعون البحث بأنفسهم! كان آرتشر موضع شبهة منذ البداية. المشكلة في الأمر أن لديه دليل غياب عن مكان الجريمة وقت وقوعها. ليس معنى ذلك أن هذا يهم كثيراً، ولكنها حجة غياب يصعب دحضها.

- ماذا تعني بقولك إن ذلك لا يهم كثيراً؟

- يبدو أنه كان مع اثنين من أصحابه طوال فترة ما بعد الظهر. وهذا لا يؤبه به كثيراً كما قلت، لأن رجالاً مثل آرتشر وأصدقائه مستعدون للإدلاء بأية شهادة وحلف أغلظ الأيمان عليها. لا أحد يصدق كلامهم. هذا معروف بالنسبة لنا نحن، ولكنه غير معروف لعامة الناس، وهيئة المحلفين تؤخذ من عامة الناس، وهو ما يؤسف له. فهم لا يعرفون شيئاً، ويصدقون في الغالب الأعم كل ما يقال على منصة الشهود بغض النظر عمّن يقوله. وبالطبع فإن آرتشر شخصياً سيحلف حتى تنشقّ لهاته بأنه لم يرتكب الجريمة.

قلت مبتسماً: إنه ليس ممن يقدمون المعروف كالسيد ريدنغ.

قال المفتش كمن يطلق حقيقة لا مراء فيها: إلاّ آرتشر.

- أحسب من الطبيعي أن يتمسك المرء بالحياة.

قال المفتش بتجهم: ستُدهَش لو عرفت كم من القتلة أفلتوا من العقاب نتيجة رقة قلوب هيئات المحلفين.

- ولكن هل ترى حقاً أن آرتشر هو القاتل؟

لقد لفت انتباهي منذ البداية أمر غريب هو أن المفتش سلاك لا تبدو لديه أية وجهات نظر خاصة بشأن جريمة القتل. كل ما كان يهتم به -كما يبدو- الحصول على حكم قضائي.

وها هو الآن يعترف قائلاً: أود أن أكون أكثر ثقة بشأنه... أن أحصل على بصمات أو آثار أقدام أو على شاهدٍ شاهده قرب مسرح الجريمة. لا أستطيع المجازفة باعتقاله دون شيء من هذا القبيل. رآه بعضهم مرة أو مرتين قرب منزل السيد ريدنغ ولكنه سيقول إنه كان هناك للحديث مع أمه، وهي امرأة لا غبار عليها. لا، إنني أميل عموماً إلى الارتياب بالسيدة ليسترينج. لو قدر لي فقط الحصول على أي دليل على الابتزاز... ولكن يبدو أن المرء لا يستطيع الحصول على أي دليل محدد في هذه الجريمة! كلها نظريات... نظريات! من المؤسف عدم وجود أية عجوز عانس تعيش أمام الطريق المفضي إلى بيتك يا سيد كليمنت، وإلاّ لكنت راهنت أنها كانت ستشاهد شيئاً ما، إن كان هناك ما يُشاهَد.

ذكرتني كلماته بزياراتي فاستأذنته. كانت هذه المرة هي المرة الوحيدة تقريباً التي أراه فيها في مزاج ودي.

كانت زيارتي الأولى للآنسة هارتنيل. ولا بد أنها كانت تراقبني من النافذة؛ لأنها فتحت الباب الأمامي قبل أن أقرع الجرس، ثم أمسكت بيدي وقادتني وأنا أعبر عتبة الباب قائلة: جميل منك أن تأتي. تفضل هنا. هنا أكثر انعزالاً وخصوصية.

دخلنا غرفة بالغة الصغر. أغلقت الآنسة هارتنيل الباب واشارت

لي -بشكل يوحي بالسرية- بالجلوس على واحد من الكراسي الثلاثة التي لا يوجد غيرها في الغرفة. أدركت أنها مستمتعة بما تفعله. قالت بصوتها المبتهج: لست ممن يحبون اللف والدوران.

ثم خفضت صوتها انسجاماً مع متطلبات الموقف وقالت: أنت تعرف كيف تنتقل الأخبار في قرية كهذه.

- أعرف مع الأسف.

- أوافقك الرأي، فلا أحد يكره القيل والقال أكثر مني، ولكن ليس باليد حيلة. لقد رأيت أن من واجبي إبلاغ مفتش الشرطة أنني مررت لزيارة السيدة ليسترينج عصر يوم الجريمة وأنها لم تكن في بيتها. إنني لا أتوقع الشكر على تأدية واجبي، بل أكتفي بتأديته؛ فنكران الجميل هو ما تلاقيه أولاً وأخيراً في هذه الحياة! بالأمس فقط مثلاً قامت تلك السيدة الوقحة بيكر...

قاطعتها على أمل تجنب سماع تلك المعزوفة الطويلة: نعم، نعم. هذا مؤسف جداً، مؤسف جداً، ما الذي كنت تقولينه؟

- إن الطبقات الدنيا لا تعرف أصدقاءها الحقيقيين. إنني دائماً ما أطرح الرأي الذي أراه مناسباً عندما أزور أحداً، رغم أن أحداً لم يشكرني أبداً على ذلك.

استعجلتها قائلاً: كنت تتحدثين عن زيارتك للسيدة ليسترينج؟

- بالضبط.. وبالمناسبة، فإن المفتش لم يشكرني حين أخبرته بذلك، بل قال فقط إنه سيطلب المعلومات عندما يحتاجها. لم تكن

تلك كلماته بالضبط، ولكن هذا هو فحوى حديثه. ثمة طبقة جديدة من الرجال في سلك الشرطة هذه الأيام.

- هذا ممكن، ولكنك كنت بصدد قول شيء ما، أليس كذلك؟

- قررت أن لا أقترب هذه المرة من أي مفتش تعِس. إن رجل الدين يبقى رجلاً مهذباً في نهاية الأمر... بعضهم على الأقل مهذبون.

فهمت -ضمناً- أن هذا الوصف يُفترض أن يشملني. قلت لها: إن كان بوسعي مساعدتك بأي شكل.

- إنها مسألة واجب.

أغلقت فمها فجأة، ثم عادت لتقول: لا أريد أن أضطر لقول مثل هذه الأمور، فلا أحد يكرهها مثلي، ولكن الواجب هو الواجب.

انتظرتُ فمضت الآنسة هارتنيل تقول وقد احمرّ وجهها: فهمتُ أن السيدة ليسترينج أعلنت أنها كانت في البيت طوال الوقت، وأنها لم تجب على قرع الباب لأنها... لأنها لم ترد ذلك. يا لذلك التفاخر الفارغ! إنني لم أزرها إلاّ من باب الواجب، وينبغي التعامل مع الأمر على هذا الأساس!

قلت بشيء من اللطف: لقد كانت مريضة.

- مريضة؟ هراء! أنت غارق كثيراً في حسن الظن يا سيد كليمنت؛ فتلك المرأة لا تعاني من شيء. تدّعي أنها مريضة بحيث لا تستطيع حضور التحقيق، وشهادة طبية من الدكتور هيدوك أيضاً!

إن بوسعها أن تتحكم به كما تشاء. الجميع يعلمون ذلك. حسناً، أين وصلنا في الحديث؟

لم أكن أعرف تماماً أين وصلنا؛ فمن الصعب -في حالة الآنسة هارتنيل- أن يعرف المرء أين ينتهي السرد لديها وأين يبدأ التهجم على الناس. قالت: آه، نعم، حول زيارتي لها عصر ذلك اليوم. هراء قولها إنها كانت في المنزل؛ إذ لم تكن هناك. إنني أعرف ذلك.

- ولكن كيف لك أن تعرفي؟

ازداد احمرار وجه الآنسة هارتنيل. ولو كان ذلك عند امرأة أقل وحشية لأمكن وصف حالتها بأنها مُحرَجة. قالت: لقد دققت الباب وقرعت الجرس مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات... وقد خطر لي فجأة أن الجرس قد يكون عاطلاً.

أسعدني أن ألاحظ أنها لم تكن قادرة على النظر إلى وجهي وهي تقول ذلك. إن بنّاء واحداً هو الذي بنى بيوتنا جميعاً، والأجراس التي ركّبها تُسمع بشكل جيد من قبل الشخص الذي يقرعها خارج الباب الأمامي. وأنا والآنسة هارتنيل نعرف كلانا هذه الحقيقة تماماً، ولكني ظننت أن من الضروري الإبقاء على شيء من اعتبارات اللباقة. تمتمتُ قائلاً: نعم؟

- لم أشأ أن أُدخل بطاقتي في فتحة الرسائل في الباب بحيث أرى ما في الداخل، فذلك تصرف وقح تماماً. وما أنا بالوقحة. (أدلت بهذا التصريح المدهش دون أن يرف لها جفن). وهكذا رأيت أن أدور قليلاً حول البيت و... وأقرع على مصراع النافذة.

ثم أكملت دون خجل: درت حول البيت كله ونظرت من جميع النوافذ فلم أجد أحداً في البيت أبداً.

فهمتها تماماً. فقد اغتنمت الآنسة هارتنيل فرصة فراغ البيت فأطلقت لفضولها العنان وأخذت تتجول حول البيت متفحصة الحديقة ومتلصصة عبر النوافذ لترى كل ما يمكنها رؤيته داخل البيت. وقد اختارت أن تحكي قصتها لي أنا، ظناً منها أنني سأكون مستمعاً أكثر تعاطفاً ورحمة من الشرطة؛ إذ يُفترض أن يمنح رجال الدين رعاياهم ميزة حسن الظن.

لم أعلّق على الموقف، بل اكتفيت بالسؤال: في أي وقت كان ذلك يا آنسة هارتنيل؟

- لا بد أن الساعة كانت تقترب من السادسة حسبما أتذكر؛ فقد عدت بعدها مباشرة إلى البيت، ووصلته في نحو السادسة وعشر دقائق. وقد جاءتني السيدة بروثيرو في نحو السادسة والنصف تاركة الدكتور ستون والسيد ريدنغ في الشارع، وتحدثنا عن زراعة بصل الزهور. وكان الكولونيل المسكين طوال الوقت يقبع هناك مقتولاً... إنه عالَم حزين!

- نعم، إنه عالم كريه أحياناً.

نهضت قائلاً: وهذا كل ما تريدين إخباري به؟

- لقد خطر لي فقط أن ذلك قد يكون مهماً.

- ربما.

استأذنتُ رافضاً المزيد من الإلهاء، مما سبب خيبة أمل

للآنسة هارتنيل. استقبلتني الآنسة وذربي -التي كانت التالية في جدول زياراتي- بشيء من الارتباك: يا عزيزي الكاهن، كم هو لطف منك. هل تناولت الشاي؟ أحقاً لا تريد؟ أتريد وسادة لظهرك؟ لطف بالغ منك أن تأتي بهذه السرعة. دوماً تتحمل المشقات من أجل الآخرين.

سمعت الكثير من هذا الحديث قبل أن نصل إلى الهدف من الزيارة، وحتى بعد الوصول إلى ذلك الهدف لم يتم التقرب منه إلاّ بكثير من المراوغة الكلامية. قالت: ينبغي أن تعلم أنني سمعت هذا من أفضل مصدر موثوق.

(إن أفضل مصدر موثوق في سينت ميري ميد يكون عادة خادمة لدى منزل آخر!).

- ألا تستطيعين إخباري بمن أبلغك؟

- لقد قطعت عهداً يا سيد كليمنت، وأنا أرى دوماً أن العهد ينبغي أن يكون شيئاً مقدساً.

بدت جازمة تماماً. قالت: لماذا لا نقول إن عصفورة صغيرة أخبرتني؟ ألن يكون ذلك أسلم؟

كان بودي أن أقول: «هذا سخيف جداً»، وليتني قلت ذلك؛ إذ كنت أحب رؤية أثر ذلك على الآنسة وذربي.

- حسناً، قالت تلك العصفورة الصغيرة إنها رأت سيدة معينة، لن نذكر لها اسماً.

- أهي عصفورة أخرى؟

ولدهشتي الشديدة انفجرت الآنسة وذربي في نوبة ضحك هادرة وربتت على ذراعي عابثة وقالت: آه أيها الكاهن، لا تكن شقياً!

وعندما استردت أنفاسها مضت قائلة: سيدة معينة... وأين تظن تلك السيدة كانت ذاهبة؟ لقد التفتت لتدخل في الطريق المؤدي إلى بيتك، ولكن قبل أن تفعل ذلك نظرت يمنة ويسرة إلى الطريق بشكل غريب جداً... لترى إن كان أحد تعرفه قد رآها كما أظن.

- وماذا عن العصفورة الصغيرة...؟

- كانت تزور بائع السمك... في الغرفة فوق المحل.

أعرف أين تذهب الخادمات في أيام عطلتهن! مضت الآنسة وذربي قائلة بأسلوب غامض وهي تنحني للأمام: وكان الوقت قبل الساعة السادسة بقليل.

- في أي يوم؟

أطلقت الآنسة وذربي صرخة ضعيفة وقالت: في يوم الجريمة طبعاً، ألم أقل لك ذلك؟

- لقد استنتجته. وما هو اسم السيدة؟

قالت وهي تومئ برأسها عدة مرات: اسمها يبدأ بحرف «ل».

نهضت وأنا أشعر أنني حصلت على كل ما تريد الآنسة وذربي الإفضاء به. قالت بشكل يثير الشفقة وهي تمسك يدي بيديها كلتيهما: لا أظنك ستدع الشرطة تحقق معي، أليس كذلك؟ إنني أكره العلنية الفاضحة، فكيف بالوقوف في محكمة!

قلت: "إنهم يسمحون بالجلوس في حالات خاصة". ثم هربت.

ما زال عليّ أن أرى السيدة برايس ريدلي. وقد تدفقت تلك السيدة بالحديث على الفور، فقد قالت بعدما صافحتني ببرود: لن أتورط في أي أمر يخص محاكم الشرطة... أنت تفهم ذلك؟ ولكني وقعت على أمر يحتاج إلى تفسير وأظن من الواجب إخطار السلطات به.

- هل يتعلق الأمر بالسيدة ليسترينج؟

سألت السيدة برايس ريدلي ببرود: ولماذا يتعلق بها؟

حشرتني في زاوية بهذا السؤال. ثم مضت قائلة: الأمر بسيط جداً. فخادمتي كلارا كانت تقف عند البوابة الأمامية، ذهبت هناك لبضع دقائق... لتستنشق بعض الهواء النقي كما تدعي هي. ولا أظن ذلك صحيحاً، فالأرجح أنها خرجت لتبحث عن صبي بائع السمك -إن كان يسمي نفسه صبياً- ذلك الشاب الوقح الذي يظن أنه يستطيع ممازحة كل الفتيات لمجرد أنه في السابعة عشرة من عمره. على كل حال، كانت واقفة عند البوابة فسمعت عطسة.

قلت وأنا أنتظر المزيد: نعم.

- هذا كل ما في الأمر.. قلت لك إنها سمعت عطسة، ولا تبدأ في إخباري بأنني لم أعد شابة كما كنت، وأنني ربما أخطأت؛ لأن كلارا هي التي سمعتها، وهي ما تزال في التاسعة عشرة.

- ولكن لماذا يُفترض أن لا تسمع عطسة؟

نظرت السيدة برايس ريدلي إليّ في إشفاق واضح لقلة عقلي

ثم قالت: لقد سمعتُ عطسة في يوم وقوع الجريمة، وفي وقت لم يكن فيه أحد في بيتك. لا شك أن القاتل كان مختبئاً بين الشجيرات ينتظر فرصته. إن ما عليك البحث عنه هو رجل مصاب بالزكام.

- أو شخص يعاني من حمى القش! ولكن الحقيقة يا سيدتي هي أن لهذا اللغز حلاً شديد البساطة؛ فقد كانت خادمتنا، ماري، تعاني من زكام حاد جداً. ولا بد أن عطستها هي ما سمعته خادمتك.

قالت السيدة برايس ريدلي بحزم: كانت عطسة رجل، كما أنك لا تستطيع سماع عطسة خادمتك في المطبخ وأنت تقف عند بوابتنا!

- إنك لا تستطيعين أيضاً سماع عطسة أحد في المكتب وأنت عند البوابة... أو لنقل إنني أشك كثيراً في مثل هذا الاحتمال.

- لقد قلت إن الرجل ربما كان مختبئاً بين الشجيرات، ولا شك أنه استطاع -بعد دخول كلارا- أن يدخل عبر الباب الأمامي.

- حسناً، هذا ممكن بالطبع.

حاولت أن لا أجعل في صوتي لهجة استرضاء وتهدئة، ولكنني فشلت على ما يبدو، لأن السيدة برايس ريدلي حدقت إليّ فجأة وقالت: إنني معتادة على عدم إصغاء الناس إليّ، ولكن بوسعي أن أذكر أيضاً أن ترك مضرب تنس مرمياً هكذا دون اهتمام على العشب، ودون غطائه الواقي، يتلف ذلك المضرب تماماً. ومضارب التنس غالية جداً هذه الأيام.

لم يبد لي وجود منطق أو معنى في هذا الهجوم الجانبي... وقد حيرني ذلك أشد الحيرة.

قالت السيدة برايس ريدلي: ولكنك قد لا تتفق معي؟

- آه! إنني أتفق معك... بالتأكيد.

- أنا سعيدة بذلك. حسناً، هذا كل ما لديّ. لقد غسلت يدي من الأمر كله.

استندتْ إلى ظهر كرسيها وأغمضت عينيها وكأنها سئمت هذا العالم. شكرتها واستأذنت بالرحيل، وعند الباب تجرأتُ وسألت كلارا عما قالته سيدتها فقالت: صحيح تماماً يا سيدي، لقد سمعت عطسة، ولم تكن بالعطسة العادية... ولا بأي شكل.

ما من شيء يكون عادياً أبداً في الجرائم. فالطلقة لم تكن طلقة عادية، والعطسة لم تكن عطسة عادية. ولا أحسبها كانت إلاّ عطسة قاتل خاصة! سألت الفتاة عن وقت سماعها لذلك، ولكن إجابتها كانت غامضة تماماً، قالت إن ذلك حدث في وقت ما بين السادسة والربع والسادسة والنصف كما تظن. وعلى أية حال، "كان ذلك قبل أن تتلقى سيدتي تلك المكالمة الهاتفية وتُصدم بها".

سألتها إن كانت قد سمعت طلقة من أي نوع، فقالت إن الطلقات كانت أمراً فظيعاً. بعد ذلك لم أعد أصدق الكثير من أقوالها.

كنت على وشك الانعطاف لدخول بوابة بيتي عندما قررت زيارة صديق لي. نظرت إلى ساعتي فوجدت أن لديّ الوقت الكافي. مشيت الطريق إلى منزل هيدوك، وخرج إلى عتبة البيت لاستقبالي.

لاحظت مجدداً مقدار ما يبدو عليه من القلق والضنى. وقال محيياً: إنني سعيد برؤيتك، ما هي الأخبار؟

أخبرته بآخر التطورات المتعلقة بالدكتور ستون، فعلّق قائلاً: لص من الطبقة الراقية! إن ذلك يفسر الكثير من الأمور. لقد أتقن موضوعه بعمق، ولكنه كان يقع في بعض الزلات أمامي من وقت لآخر. لا بد أن بروثيرو قد أوقع به في زلة ما... وأنت تذكر ما وقع بينهما من شجار. ما رأيك بالفتاة؟ أهي متواطئة معه أيضاً؟

- لم يستقر الرأي على ذلك بعد، أما بالنسبة لي فإنني أظن أن الفتاة بريئة. إنها مغفلة من الدرجة الأولى.

- آه! ما كنت لأقول ذلك. إن في الآنسة كرام شيئاً من حدة الذكاء، وهي من النوع الذي يتمتع بصحة عامرة لا يستفيد منها أبناء مهنتي شيئاً.

قلت له إنني قلق على هاوز، وإنني حريص على أن يسافر لينال قسطاً حقيقياً من الراحة والتغيير. انتاب سلوكه شيء مراوغ لا يدرك كنهه عندما قلت ذلك، ولم يَبدُ جوابه صادقاً تماماً عندما قال ببطء: نعم، أظن أن ذلك سيكون أفضل شيء. ولد مسكين!

- حسبتك لم تكن تحبه.

- لا أحبه، ليس كثيراً. ولكنني آسف على كثير من الناس الذين لا أحبهم.

ثم أضاف بعد صمت لحظات: إنني حزين جداً على الكولونيل بروثيرو. مسكين... لم يحبه أحد كثيراً. كان بالغ الانشغال باستقامته الشديدة، مبالغاً في التبجح، وهو مزيج لا يحظى بالمحبة. وقد كان دوماً هكذا... حتى في شبابه.

- ما كنت أعلم أنك كنت تعرفه منذ ذلك الحين.

- آه، بلى؛ عندما كنا نعيش في ويسمورلاند، وكنت أعمل في منطقة قريبة. كان ذلك منذ زمن طويل... من نحو عشرين سنة.

تنهدت، فمنذ عشرين سنة كانت غريزلدا في الخامسة من عمرها. غريب أمر الزمن!

- أهذا كل ما جئت لتخبرني به يا كليمنت؟

رفعت إليه نظري وقد جفلت. كان هيدوك يراقبني بعينين حادتين. قال: يوجد شيء آخر، أليس كذلك؟

أومأت برأسي بالإيجاب. لم أكن قد حزمت أمري عندما جئت إلى هنا إن كنت سأتكلم أم لا، ولكنني قررت الآن أن أتكلم. إنني أحب هيدوك أكثر من أي رجل أعرفه؛ فهو رجل رائع من جميع الوجوه. شعرت أن ما سأقوله قد يكون مفيداً له.

أعدت عليه سرد قصة مقابلتي للآنسة هارتنيل والآنسة وذربي. بقي صامتاً لفترة طويلة بعد أن أكملت كلامي، ثم قال أخيراً: هذا صحيح تماماً يا كليمنت، لقد كنت أحاول حماية السيدة ليسترينج من أي إزعاج يمكنني حمايتها منه. والحقيقة أنها صديقة قديمة لي، ولكن هذا ليس سببي الوحيد. فتلك الشهادة الطبية التي أصدرتها لها لم تكن زائفة كما تظنون جميعاً.

سكت قليلاً ثم قال بتجهم: اكتم الأمر بيننا يا كليمنت... السيدة ليسترينج ستلاقي قدرها المحتوم.

- ماذا؟

- إنها امرأة تموت، ولا أظنها تعيش أكثر من شهر على أبعد تقدير، فهل تعجب -بعد ذلك- إن أردتُ حمايتها من المساءلات والضغوط؟ ثم مضى يقول: عندما التفتت إلى هذا الطريق في ذلك المساء فإنما كانت قادمة إلى هنا... إلى هذا البيت.

- ولكنك لم تقل هذا من قبل.

- لم أرد إثارة الأقاويل. إنني لا أستقبل مرضى بين السادسة والسابعة، والجميع يعرف ذلك. ولكن ثق بأنها كانت هنا.

- ومع ذلك لم تكن هنا عندما جئت إليك... أعني عندما اكتشفنا الجثة.

بدا مضطرباً وقال: نعم، كانت قد غادرت... لتفي بموعد لها.

- أين كان موعدها؟ في بيتها؟

- لا أدري يا كليمنت، بشرفي لا أدري.

صدقته، ولكن... قلت له: وافترض أن رجلاً بريئاً قد شُنق؟

- لا، لن يشنق أحد بسبب مقتل بروثيرو. أؤكد لك ذلك.

لم أستطع تصديق ذلك، ولكن كانت الثقة في صوته عظيمة جداً. كرر كلامه قائلاً: لن يُشنق أحد.

- إن هذا الرجل آرتشر...

قاطعني بإشارة نفاد صبر من يده وقال: ليس له من العقل ما يجعله يمسح البصمات عن المسدس.

قلت بارتياب: "ربما". ثم أخرجت من جيبي قطعة الكريستال البنية التي وجدتها في الغابة ومددت يدي بها إليه، وسألته ما هي.

تردد قائلاً: همم، تبدو أشبه بحامض البكريك. أين وجدتها؟

- هذا سر شيرلوك هولمز.

ابتسم فسألته: وما هو حامض البكريك؟

- إنه مادة متفجرة.

- نعم، أعرف ذلك، ولكن له استخداماً آخر، أليس كذلك؟

أومأ برأسه موافقاً وقال: إنه يُستخدم طبياً... في محلول من أجل الحروق... مادة عجيبة.

مددت يدي، فأعادها إلي بشيء من التردد.

- ربما لا تكون لها أهمية كبيرة، ولكنني وجدتها في مكان غير طبيعي نوعاً ما.

- ألن تخبرني أين؟

وبشيء من الصبيانية امتنعت عن إخباره. إن كانت له أسراره، فستكون لي أيضاً أسراري... فلقد شعرت بشيء من الإهانة لأنه لم يبح لي بما في صدره بشكل كامل!

* * *

الفصل السادس والعشرون

جاء وقت الموعظة المسائية التي وعدت هاوز أن ألقيها نيابة عنه. وقفت خلف المنصة ونظرت...كانت الكنيسة ممتلئة بشكل غير معتاد. كان هيدوك هناك، وهو أمر غير معتاد منه، وكذلك لورنس ريدنغ، ولدهشتي رأيت بجانبه وجه هاوز المتعب الشاحب. وكانت آن بروثيرو حاضرة، وغلاديس كرام، ولقد أدهشني أكثر أن أرى ليتيس أيضاً. ولا أظنني بحاجة إلى القول إن السيدة برايس ريدلي والآنسات هارتنيل ووذربي وماربل كُنّ هناك بكامل قواهن. كان أهل القرية جميعاً حاضرين، لا يكاد المرء يستثني من ذلك أحداً. وقد وصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الجميع قد جاؤوا ليروا من أتى غيرهم، وربما ليتبادلوا بعض الأقاويل في رواق الكنيسة لاحقاً.

كان الموضوع الذي ركّزت عليه في موعظتي -تلك الليلة- هو الدعوة إلى التوبة من الذنوب والتخويف من الإصرار عليها، وقد أحسست أنني كنت مؤثراً جداً ومتدفقاً بشكل يخالف طبيعتي المعتادة في الوعظ، ووجدتني -أكثر من مرة- أرفع يدي مستنكراً مكرراً عبارة: «إنني أخاطبك أنت أيها المخطئ!». وحين عدت إلى البيت وجدت غريزلدا شاحبة بعض الشيء. دست ذراعها تحت

ذراعي وقالت: لين، لقد كنتَ فظيعاً الليلة. لم... لم يعجبني ذلك. لم أسمعك أبداً تخطب بهذا الشكل من قبل.

قلت: ولا أحسبك ستسمعينني بعدها أبداً! ثم ألقيت بنفسي على الأريكة سئماً؛ فقد كنت متعباً.

- ما الذي جعلك تفعل ذلك؟

- سيطر علي جنون مفاجئ.

- آه! ألم... ألم يكن في الأمر شيء خاص؟

- ماذا تعنين بتعبير «شيء خاص»؟

- كنت أتساءل، هذا كل ما في الأمر. إن لك طبعاً لا يمكن التنبؤ به أبداً يا لين، لا أشعر أبداً بأنني أعرفك حق المعرفة.

جلسنا لتناول عشاء بارد؛ إذ كانت ماري خارجة. قالت غريزلدا: لك رسالة في الصالة. هل لك أن تحضرها يا دينيس؟

امتثل دينيس الذي كان ساكتاً طوال الوقت. أخذت الرسالة وأنا أدمدم. كان مكتوباً في الزاوية العليا إلى اليسار: باليد . . . عاجل.

قلت: لا بد أنها من الآنسة ماربل، إذ لم يبقَ غيرها.

وقد كنت مصيباً تماماً في افتراضي. قرأت:

عزيزي السيد كليمنت،

أود كثيراً التحدث إليك بشأن بعض الأمور التي حدثت معي. أشعر أن علينا جميعاً أن نحاول المساعدة في حل

هذا اللغز المؤسف. سوف آتيك -إذا سمحت- نحو التاسعة والنصف وأدق على الباب الزجاجي لغرفة مكتبك، وربما تلطفت غريزلدا ودينيس بالمجيء إلى هنا لتسلية ابن أختي. إن لم أتلقَ منك جواباً فسأتوقع حضورهما، وسآتي أنا في الوقت الذي ذكرته.

المخلصة: جين ماربل

أعطيت الرسالة لغريزلدا، فقرأتها وقالت بفرح: آه، سنذهب! فلا أفضل من السمر في مثل هذه الأمسية. أظن أن حلويات ماري الثقيلة هي التي تحصر على أنفاسنا، فقد كانت بغيضة تماماً.

بدا أن المشروع لا يروق لدينيس بنفس الدرجة، فقد شكا قائلاً: الأمر رائع بالنسبة لك، إذ بوسعك أن تتكلمي عن الفن والكتب، أما أنا فأشعر بأنني مغفل تماماً وأنا جالس أصغي إليكما.

أجابته غريزلدا بهدوء: هذا جيد بالنسبة لك، فهو يضعك في مكانك الصحيح. ولكني لا أرى ريموند وست بالغ الذكاء كما يدّعي.

قلت: قليلون جداً بيننا من هم بالغو الذكاء.

تساءلت كثيراً ما هو بالضبط ذلك الأمر الذي ترغب الآنسة ماربل بالتكلم فيه معي. إنني أعتبر الآنسة ماربل الأذكى من بين كل النساء في القرية، ولا يقتصر الأمر على رؤيتها وسماعها لكل ما يجري عملياً، بل إنها تستنتج من الحقائق التي تلاحظها استنتاجات مدهشة في براعتها وأخذها كل المتناقضات بعين الاعتبار. ولو أنني أردت القيام في أي وقت بعملية خداع لكانت الآنسة ماربل هي مَن سأخشاه!

بدأ ما أسمته غريزلدا بحفلة التسلية بعد الساعة التاسعة بقليل، وبينما كنت أنتظر وصول الآنسة ماربل أخذت أتسلى بوضع ما يشبه الجدول للحقائق المرتبطة بالجريمة، وقد رتبت تلك الحقائق -قدر الإمكان- حسب التسلسل الزمني لوقوعها. إنني لست امرءاً شديد الدقة في مسألة الوقت، ولكنني امرؤ مرتب، وأحب تسجيل الأمور بشكل منهجي.

في التاسعة والنصف تماماً سمعت طرقة خفيفة على الباب الزجاجي، فنهضت وأدخلت الآنسة ماربل. كانت تضع على رأسها وكتفيها وشاحاً صوفياً رائعاً، وبدت كبيرة السن ضعيفة. دخلتْ وهي تتلعثم بالكثير من العبارات المترددة.

- جميل جداً منك أن تسمح بقدومي، وجميل جداً من غريزلدا أيضاً. لا، لا أحتاج مسنداً لرجلَي.

وضعتُ وشاحها الصوفي على أحد الكراسي وعدت لأجلس على كرسي قبالة ضيفتي. تبادلنا النظرات، ثم ارتسمت على وجهها فجأة ابتسامة احتجاج صغيرة وقالت: أشعر أنك تتساءل دون ريب لماذا أنا مهتمة كثيراً بهذا الأمر. وربما ظننتَ ذلك مناقضاً تماماً لطبيعة النساء. لا، رجاء... أود أن أشرح الأمر إذا سمحت لي.

توقفت لحظة وقد احمرت وجنتاها، ثم قالت أخيراً: الأمر أن حياة المرء بمفرده -كما أعيش أنا- في منطقة معزولة من العالم، تتطلب منه أن يشغل نفسه بهواية ما. توجد بالطبع حياكة الصوف، والعمل الكشفي النسوي، والجمعيات الخيرية، ولكن هوايتي أنا كانت -وستبقى- دراسة الطبائع البشرية؛ فهي شديدة

التنوع وممتعة جداً. وبالطبع فإن لدى المرء -في قرية صغيرة ليس فيها ما يشغله- فرصة كبرى ليصبح ضليعاً في دراسته تلك. يبدأ المرء بتصنيف الناس، بشكل محدد تماماً، كما لو كانوا طيوراً أو أزهاراً: المجموعة الفلانية، وهذا النوع، وتلك الفصيلة. وأحياناً يخطئ المرء بالطبع، ولكن الأخطاء تقل بمرور الزمن. وهكذا أيضاً يختبر المرء نفسه؛ يأخذ مشكلة صغيرة... مثلاً: قصة تلك السلة التي كانت تحتوي على الروبيان المنتقى، والتي تفرح لها العزيزة غريزلدا كثيراً... لغز لا أهمية له إطلاقاً، ولكنه غامض تماماً ما لم يحله المرء بالشكل الصحيح. وأيضاً دواء السعال الذي تم استبداله، ومظلة زوجة الجزار... إن من الممتع جداً أن يجرب المرء أحكامه ويجد أنه كان مصيباً.

قلت مبتسماً: أظنك مصيبة دائماً.

اعترفت الآنسة ماربل قائلة: أخشى أن ذلك قد جعلني مغرورة قليلاً. ولكني كنت دوماً أتساءل إن كنت سأستطيع القيام بنفس الشيء إذا ما واجهني لغز كبير حقاً في يوم ما. أعني.. إن كنت سأحل اللغز بشكل صحيح. لا بد -منطقياً- أنْ يكون الحال واحداً. إن نموذجاً مصغراً للطوربيد هو في نهاية المطاف كالطوربيد الحقيقي.

قلت ببطء: تعنين أن المسألة نسبية. أعترف أنها ينبغي أن تكون كذلك... منطقياً. ولكني لا أدري إن كانت حقاً كذلك.

- الحال واحد دون شك. إن العوامل -كما كنا نسميها في المدرسة- هي نفس العوامل: المال، وانجذاب الرجال والنساء كل إلى الآخر، وغرابة الأطوار... إن لدى الكثير من الناس شيئاً من غرابة

الأطوار، أليس كذلك؟ بل إن أغلب الناس كذلك عندما تتعمق في معرفتهم. والناس الطبيعيون يقومون بأمور مدهشة أحياناً، وأحياناً تجد غير الطبيعيين في غاية العقل والطبيعية. والحقيقة أن الطريقة الوحيدة هي مقارنة الناس مع أناس آخرين عرفتَهم أو صادفتَهم. سيدهشك أن تعلم كم هي قليلة الأنواع المحددة للبشر عموماً.

- أنتِ تخيفينني... أشعر وكأنني موضوع تحت المجهر!

- ما كنت لأحلم طبعاً بقول شيء من هذا للكولونيل ميلتشيت، فهو شديد التسلط، أليس كذلك؟ والمفتش المسكين سلاك... إنه تماماً كشابة في محل أحذية تريد أن تبيعك زوجاً من الأحذية الجلدية لمجرد أن لديها قياسك، غير آبهة لحقيقة أنك تريد في الحقيقة شراء قفازات فقط.

هذا حقاً وصف جيد جداً للمفتش سلاك.

- أما أنت يا سيد كليمنت، فأنا واثقة أنك تعرف عن الجريمة بقدر ما يعرف المفتش سلاك. ولذلك فكرت... إن كان بوسعنا أن نعمل معاً...

قلت: إنني لأستغرب. أحسب أن كلاً منا -في قرارة نفسه- يتخيل نفسه كشيرلوك هولمز.

ثم أخبرتها عن تلك الاستدعاءات التي تلقيتها عصر ذلك اليوم، وأخبرتها عن اكتشاف آن للصورة التي تم تمزيق وجهها، وأخبرتها أيضاً عن موقف الآنسة كرام في مركز الشرطة، ووصفت لها تعرّف هيدوك على القطعة الكريستالية التي وجدتها. ثم أنهيت حديثي قائلاً: بما أنني أنا مَنْ عثر على تلك القطعة فإنني أرغب بأن

تكون مهمة، ولكن ربما لا تكون لها علاقة بالقضية.

- لقد كنت أقرأ في الفترة الأخيرة كثيراً من القصص البوليسية الأمريكية من المكتبة، على أمل العثور على شيء مفيد.

- وهل وجدت فيها شيئاً عن حمض البكريك؟

- قرأت مرة قصة سُمّ فيها رجلٌ بحمض البكريك واللانولين بعد أن تم لف المادتين على جسمه كمرهم.

- ولكن بما أن أحداً لم يُسم هنا، فلا يبدو للأمر علاقة بقضيتنا.

ثم أخرجتُ جدولي وأعطيتها إياه قائلاً: لقد حاولت إعادة تلخيص حقائق القضية بأكبر قدر ممكن من الوضوح.

الخميس، الحادي والعشرون من الشهر الجاري:

١٢,٣٠ ظهراً: الكولونيل بروثيرو يغير موعده من السادسة إلى السادسة والربع. والغالب أن نصف أهل القرية سمعوه يذكر ذلك.

١٢,٤٥: آخر مرة تمت فيها رؤية المسدس. (ولكن هذا مشكوك فيه، إذ قالت السيدة آرتشر سابقاً إنها لا تتذكر).

٥,٣٠ (تقريباً): الكولونيل والسيدة بروثيرو يغادران منزلهما باتجاه القرية بالسيارة.

٥,٣٠: مكالمة مزيفة أجريت معي من غرفة البواب عند البوابة الشمالية لمنزل أولد هول.

٦,١٥ (أو أقل من ذلك بدقيقتين): الكولونيل بروثيرو يصل بيتي، وتُدخله ماري إلى المكتب.

٦,٢٠: السيدة بروثيرو تأتي عبر الممشى الخلفي ثم تعبر الحديقة إلى الباب الزجاجي للمكتب، ولم يكن ملحوظاً وجود الكولونيل بروثيرو.

٦,٢٩: مكالمة للسيدة برايس ريدلي تم إجراؤها من بيت لورنس ريدنغ (كما أفادت البدالة).

٦,٣٥-٦,٣٠: تُسمع طلقة (إذا ما اعتبرنا توقيت المكالمة الهاتفية صحيحاً). تشير شهادة كل من لورنس والسيدة بروثيرو والدكتور ستون إلى أن الطلقة كانت في وقت أبكر، ولكن ربما كانت السيدة برايس ريدلي على صواب.

٦,٤٥: لورنس ريدنغ يصل بيتي ويعثر على الجثة.

٦,٤٨: أنا ألتقي بلورنس ريدنغ.

٦,٤٩: أعثر أنا على الجثة.

٦,٥٥: هيدوك يفحص الجثة.

ملاحظة: الشخصان الوحيدان اللذان لا يتوفر لديهما أي تبرير لمكان وجودهما ما بين الساعة ٦,٣٠ و٦,٣٥ هما الآنسة كرام والسيدة ليسترينج. تقول الآنسة كرام إنها كانت عند القبر الأثري، ولكن ما من تأكيد لذلك. ولكن يبدو أن استبعادها أمر معقول إذ لا يوجد ما يربطها بالجريمة. السيدة ليسترينج غادرت منزل الدكتور هيدوك في وقتٍ ما بعد السادسة لكي تفي بموعد لها.

أين كان الموعد، ومع من؟ لا يكاد يُعقل أن يكون موعدها مع الكولونيل بروثيرو، إذ كان الكولونيل يتوقع أن ينشغل معي. صحيح أن السيدة ليسترينج كانت قريبة من مكان الجريمة ساعة ارتكابها، ولكن تحيط الشكوك بالدوافع التي قد تكون لديها لتقتله؛ فموته لا يفيدها، ونظرية المفتش حول الابتزاز لا يمكنني تقبلها، فالسيدة ليسترينج ليست من ذلك النوع من النساء، كما لا يبدو محتملاً حصولها على مسدس لورنس.

قالت الآنسة ماربل وهي تومئ برأسها استحساناً: جدول واضح جداً، واضح جداً بالفعل. إن الرجال يصوغون دوماً مذكرات ممتازة كهذه.

- أتوافقينني على ما كتبته؟

- آه، نعم؛ لقد رتبتَ الأمور بشكل جميل.

عندئذ سألتها السؤال الذي كنت أنوي طرحه طوال الوقت: آنسة ماربل، بمن تشكّين؟ لقد قلت مرة إن لديك سبعة أشخاص.

قالت وهي شاردة: نعم، أظن ذلك صحيحاً... أظن كل واحد منا يشك بشخص مختلف. بوسع المرء رؤية ذلك في الحقيقة.

لم تسألني في مَن أشكّ، بل قالت: النقطة هي أن على المرء أن يقدم تفسيراً لكل شيء. كل شيء ينبغي أن يتم تفسيره بشكل مقنع. فإن كانت لديك نظرية تناسب كل الحقائق فعندها لا بد أن تكون

تلك النظرية هي الصحيحة، ولكن ذلك أمر في غاية الصعوبة. لولا تلك الرسالة فقط...

قلت مدهوشاً: الرسالة؟

- نعم، لقد أخبرتك كما تذكر. تلك الرسالة قد شغلت فكري طوال الوقت. إن فيها شيئاً خطأ على نحو ما.

- ولكن ذلك قد تم تفسيره الآن بالتأكيد؛ فقد كُتبت الرسالة في السادسة وخمس وثلاثين دقيقة وجاءت يد أخرى (هي يد القاتل) ووضعت التوقيت المضلل ٦,٢٠ في أعلى الصفحة. أظن ذلك ثابتاً بشكل واضح.

- ولكن حتى في هذه الحال فالأمر كله غير طبيعي.

- لماذا؟

مالت الآنسة ماربل للأمام بلهفة وقالت: اسمع، لقد عبرت السيدة بروثيرو أمام حديقتي كما قلت لك، وذهبت حتى وصلت الباب الزجاجي للمكتب، ونظرت للداخل ولم ترَ زوجها.

- لأنه كان يكتب على الطاولة.

- وهذا ما هو غير طبيعي أبداً. كان ذلك في السادسة والثلث، وقد اتفقنا على أنه ما كان ليجلس ويكتب أنه لم يعد قادراً على الانتظار إلاّ بعد السادسة والنصف... لماذا -إذن- كان يجلس وقتها إلى الطاولة؟

قلت بتمهل: لم أفكر في ذلك.

- دعنا يا عزيزي السيد كليمنت نستعرض الأمر مرة أخرى. السيدة بروثيرو تأتي إلى الباب الزجاجي وتظن أن الغرفة فارغة... لا بد أنها ظنت ذلك، وإلاّ ما كانت لتذهب أبداً إلى المرسم لتقابل السيد ريدنغ؛ إذ لن يكون الأمر آمناً عندها. لا بد أن صمتاً مطبقاً كان يخيم على الغرفة إن كانت قد حسبتها فارغة. وهذا ما يضعنا أمام ثلاثة احتمالات، أليس كذلك؟

- أتعنين...

- الاحتمال الأول هو أن يكون الكولونيل بروثيرو ميتاً أصلاً من قبل، ولكني لا أظنه الاحتمال المرجح. فهو -بدايةً- لم يكن قد مرّ على وجوده هناك أكثر من خمس دقائق، وفي هذه الحالة كنت سأسمع أنا أو هي صوت الطلقة، وثانياً: ستبقى لدينا نفس مشكلة جلوسه إلى الطاولة. الخيار الثاني هو أنه كان جالساً إلى الطاولة يكتب رسالة، ولكن لا شك -في هذه الحالة- بأنها كانت رسالة مختلفة تماماً. لا يمكن أن يكون موضوعها الاعتذار عن عدم قدرته على الانتظار. والاحتمال الثالث...

- نعم؟

- الاحتمال الثالث طبعاً هو أن تكون السيدة بروثيرو على حق، وأن الغرفة كانت فارغة بالفعل.

- أتعنين أنه خرج -بعدما أدخلته ماري الغرفة- ثم عاد لاحقاً؟

- نعم.

- ولكن لماذا عساه يقوم بذلك؟

مدت الآنسة ماربل ذراعيها في إشارة حيرة، فقلت: إن ذلك سيعني النظر إلى القضية من زاوية مختلفة تماماً.

- غالباً ما يضطر المرء للنظر من زوايا أخرى في كل الأمور.. ألا تعتقد ذلك؟

لم أجبها. كنت أستعرض في عقلي بدقة الخيارات الثلاثة التي اقترحتها الآنسة ماربل.

ثم نهضت الآنسة العجوز وهي تطلق تنهيدة خفيفة وقالت: ينبغي أن أعود. إنني سعيدة جداً لتبادل هذا الحديث معك... مع أننا لم نحقق تقدماً كبيراً، أليس كذلك؟

قلت وأنا أُحضر وشاحها: أصارحك القول بأن الأمر كله يبدو لي لغزاً محيراً.

- آه! ما كنت لأقول ذلك. أظن عموماً أن إحدى النظريات تفسر كل شيء تقريباً. بمعنى أنها كاملة إذا ما سمحنا بصدفة واحدة وقعت... وأظن أن بالإمكان السماح بوقوع صدفة واحدة، ولكن من غير المحتمل طبعاً وقوع أكثر من واحدة.

سألتها وأنا أنظر إليها: أتظنين ذلك حقاً؟ أعني بوجود نظرية؟

- أعترف بأن في نظريتي نقصاً واحداً؛ حقيقة واحدة لا أستطيع تجاوزها. آه! لو أن تلك الرسالة كانت فقط شيئاً مختلفاً تماماً!

تنهدت وهزت رأسها أسفاً، ثم مشت باتجاه الباب الزجاجي

ومدت يدها وهي شاردة لتلمس نبتة منتصبة هناك يدل منظرها على الذبول. قالت: أتدري يا عزيزي السيد كليمنت، ينبغي سقاية هذه النبتة أكثر. مسكينة، تحتاج الماء بشدة. ينبغي لخادمتكم أن تسقيها يومياً. أظن أن الخادمة هي التي ترعاها، أليس كذلك؟

- بلى، ورعايتها لها لا تزيد عن رعايتها لأي شيء في هذا البيت.

- إنها ما زالت غرة قليلاً.

- نعم، وترفض غريزلدا دوماً إنهاء خدماتها، وعذرها في ذلك أن ما من خادمة ستقبل البقاء عندنا إلاّ إن كانت خادمة كريهة جداً. ومع ذلك فإن ماري نفسها أعطتنا بالأمس إشعاراً بأنها تريد المغادرة.

- حقاً، لقد كنت أحسبها دوماً شديدة التعلق بكما.

- أنا لم ألحظ ذلك. ولكن الحقيقة هي أن ليتيس بروثيرو هي التي أزعجتها. فقد جاءت ماري من التحقيق بمزاج معكر ووجدت ليتيس هنا و... تبادلتا بعض الكلمات.

قالت الآنسة ماربل: آه!

كانت على وشك الخروج من الباب الزجاجي فتوقفت فجأة وبدت على وجهها سلسلة محيرة من التغيرات. دمدمت قائلة لنفسها: آه، يا إلهي! لقد كنت مغفلة حقاً. هكذا الأمر إذن؟ كان ذلك ممكناً تماماً طوال الوقت.

- عفواً، ماذا تقولين؟

أدارت نحوي وجهاً قلقاً وقالت: لا شيء... مجرد فكرة خطرت لي تواً. عليّ أن أعود إلى البيت وأفكر في الأمور بكل عمق. أتدري، أظنني كنت مغفلة تماماً... بشكل لا يكاد يُصدَّق.

قلت بلباقة: "أجد صعوبة في تصديق ذلك"، ثم صحبتها من خلال الباب وعبر ممشى الحديقة، وسألتها: هل لك أن تخبريني بهذا الذي خطر لك هكذا فجأة؟

- أفضّل أن لا أخبرك... في الوقت الراهن. فما زال احتمال أن أكون مخطئة، ولكنني لا أظن ذلك... ها قد وصلنا إلى بوابة بيتي. شكراً جزيلاً. أرجو أن لا تتعب نفسك أكثر.

سألتها بعد أن عبرت البوابة وأغلقتها خلفها: أما زالت الرسالة عقبة كأداء؟

نظرت إليّ بشرود وقالت: الرسالة؟ آه! طبعاً لم تكن تلك هي الرسالة الحقيقية. لم أعتبرها كذلك أبداً. طابت ليلتك يا سيد كليمنت.

ذهبتْ مسرعة في الممشى إلى البيت وقد تركتني أحدق خلفها. ولم أعرف بماذا أفكر.

* * *

الفصل السابع والعشرون

لم تعد غريزلدا ودينيس بعد. وأدركت أن التصرف الطبيعي كان يقضي بأن أذهب مع الآنسة ماربل إلى بيتها وأعود بهما معي، ولكننا كنا كلانا مستغرقين تماماً في انشغالنا بهذا اللغز إلى حدٍّ نسينا معه وجود أحد في هذا العالم سوانا.

كنت أقف في الصالة متسائلاً إن كان عليّ أن أتدارك الأمر وأذهب الآن للانضمام إليهم عندما رن جرس الباب. وذهبت إليه فوجدت رسالة في صندوق الرسائل المثبت فيه، فأخرجتها وأنا أفترض أنها هي سبب قرع الجرس. ولكن الجرس عاد ليُقرع وأنا أخرجها، فدسستها بسرعة في جيبي وفتحت الباب الأمامي.

كان القادم هو الكولونيل ميلتشيت. قال: مرحباً يا كليمنت. كنت في طريقي من البلدة إلى البيت بسيارتي، ولم أرَ بأساً في المرور عليك والتمتع بضيافتك.

- على الرحب والسعة... تفضل إلى غرفة المكتب.

نزع عنه معطف الجلد الذي يرتديه وتبعني إلى المكتب وهو يقول: إن لك عندي خبراً يا كليمنت من أكثر ما سمعته إبهاراً، ولكن

دعنا منه الآن. كيف تجري الأمور هنا؟ المزيد من العجائز ممن يسعين محمومات خلف الطريدة؟

- لا بأس بما صنعن... بل إن إحداهن تظن أنها وجدت الطريدة.

- صديقتنا الآنسة ماربل، إيه؟

- نعم، صديقتنا الآنسة ماربل.

- إن النساء من أمثالها يحسبن دوماً أنهن يعلمن كل شيء.

- ربما كان ذلك تدخلاً لا ضرورة له مني، ولكني أحسب أن أحداً قد قام باستجواب صبي بائع السمك. أعني أن القاتل -إن كان قد غادر من الباب الأمامي- فربما شاهده ذلك الصبي.

- لقد استجوبه سلاك بما يكفي، ولكنه يقول إنه لم يرَ أحداً. من الصعب أن يرى شيئاً، فما كان القاتل ليثير حوله الانتباه، وهناك الكثير مما يمكن أن يستره قرب بوابتك الأمامية، ولا بد أنه تأكد من خلو الطريق. لقد كان على الصبي أن يمر في ذلك اليوم ببيتك وبيت الدكتور هيدوك وبيت السيدة ريدلي، ولذا كان من السهل مراوغته.

- نعم، أحسب ذلك كان سهلاً.

- ومن جهة أخرى فإنْ صدف وكان ذلك الشقي آرتشر هو الذي ارتكب الجريمة ورآه الصبي قريباً من المكان فإنني أشك كثيراً في إمكانية بوحه بذلك؛ إذ أن آرتشر قريبه.

- هل تشك جدياً بآرتشر؟

- إنك تعلم أن بروثيرو قد اضطهد آرتشر كثيراً، وبينهما الكثير من الضغينة. لم تكن الرحمة من صفات بروثيرو المميزة!

- نعم، لقد كان شخصاً قاسياً.

- إن مبدئي هو أن يعيش المرء ويترك غيره يعيش. صحيح أن القانون هو القانون، ولكن لا ضرر من معاملة الناس بحسن نية. وهذا ما لم يفعله بروثيرو أبداً.

ساد شيء من الصمت، ثم سألته: ما هو ذلك الخبر «شديد الإبهار» الذي وعدتني به؟

- إنه مبهر حقاً. أتعرف تلك الرسالة غير المكتملة التي كان بروثيرو يكتبها عندما قُتل؟

- نعم.

- عرضناها على خبير ليقول إن كان الرقم ٦,٢٠ قد أضافته يد أخرى، وقد أرسلنا -طبعاً- نماذج من خط بروثيرو. أتدري ما النتيجة؟ تلك الرسالة لم يكتبها بروثيرو أبداً!

- أتعني أنها كانت مزورة؟

- نعم، مزورة. كما أنهم يرون أن الرقم ٦,٢٠ قد كُتب بيد أخرى أيضاً... ولكنهم غير متأكدين من ذلك، فقد كُتب على رأس الصفحة بحبر مختلف. الرسالة نفسها منحولة... لم يكتبها بروثيرو أبداً!

- أهم متأكدون من ذلك؟

- كأشدّ ما يكون الخبراء تأكداً.

قلت: "مدهش!"، ثم داهمتني ذكرى فقلت: أذكر أن السيدة بروثيرو قد ذكرت وقتها أن الكتابة لا تشبه خط زوجها أبداً، ولم أنتبه لذلك.

- حقاً؟

- ظننت قولها إحدى الملاحظات السخيفة التي تطلقها النساء، فلو كان لنا أن نثق بشيء واحد، لكان ذلك الشيء هو كتابة بروثيرو لتلك الرسالة.

تبادلنا النظرات، ثم قلت بتمهل: أمر غريب، لقد كانت الآنسة ماربل تقول هذا المساء إن تلك الرسالة لم تكن طبيعية أبداً.

- إذن فقد حيرت الرسالة صاحبتنا، لو أنها كانت هي التي ارتكبت الجريمة شخصياً لما عرفتْ عنها أكثر مما تعرف.

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف. إن لرنين جرس الهاتف تأثيراً نفسياً غريباً... أخذ يرن الآن بإصرار وبشكل ينذر بشرٍّ مستطير. ذهبت إلى الهاتف ورفعت السماعة قائلاً: أنا الكاهن، من المتكلم؟

جاءني عبر الأسلاك صوت غريب هستيري عالي النبرة: أريد الاعتراف. يا إلهي، أريد الاعتراف!

- نعم، نعم؟... يا بدّالة... لقد قطعتم عني الخط. ما هو الرقم الذي كان يتكلم؟

جاءني صوت خامل يقول إنه لا يعرف، ثم أضاف إنه آسف على إزعاجي. وضعت السماعة والتفتُّ إلى ميلتشيت قائلاً: لقد قلتَ مرة إنك ستُجن إذا تقدم شخص آخر للاعتراف بارتكابه للجريمة.

- ماذا تعني؟

- كان هذا شخصاً أراد الاعتراف، ولكن البدالة قطعت الاتصال.

اندفع ميلتشيت وأخذ السماعة قائلاً: سأتحدث معهم.

- نعم، تحدث، فربما كان لك تأثير عليهم... سأتركك تقوم بذلك، أما أنا فسأخرج... أتخيّل أنني ميزت ذلك الصوت.

* * *

أسرعت نزولاً في شارع القرية. كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، وفي مثل تلك الساعة من أيام الأحد ربما وجد المرء قرية سينت ميري ميد بأسرها ميتة. ولكني رأيت وأنا أمرّ ضوءاً في أحد النوافذ في الطابق الأول، فتوقفت إذ أدركت أن هاوز ما يزال ساهراً وقرعت جرس الباب.

وبعد مرور ما بدا لي وقتاً طويلاً قامت صاحبة منزل هاوز، السيدة سادلر، بمعالجة قفلين وسلسلة، ثم أدارت المفتاح وأطلّت تنظر إليّ بارتياب، ثم هتفت: من، الكاهن!

- مساء الخير، أريد رؤية السيد هاوز. أرى الضوء من النافذة، ولذلك فإنه ما يزال ساهراً.

- ربما. فأنا لم أره منذ أن صعدت إليه بالعشاء. كانت ليلته هادئة... لم يأتِ أحد لرؤيته، كما لم يخرج.

أومأت برأسي ثم اجتزتها وصعدت الدرج بسرعة، إذ أن لهاوز غرفة نوم وغرفة جلوس في الطابق الأول. دخلت غرفة الجلوس. كان هاوز متمدداً على أريكة طويلة نائماً، فلم يوقظه دخولي، وإلى جانبه كانت علبة كبسولات دواء وكأس من الماء ممتلئ حتى نصفه. وعلى الأرض عند قدمه اليسرى رأيت ورقة مكورة عليها كتابة. رفعت الورقة ومسدتها حتى اعتدلتْ فرأيت الكتابة فيها تبدأ بالقول: **عزيزي كليمنت.**

قرأت الورقة كلها، وأطلقت صوت تعجب ثم دسستها في جيبي وانحنيت على هاوز وأمعنت النظر فيه. بعدها عمدت إلى الهاتف الذي كان عند مرفقه وطلبت رقم بيتي. لا بد أن ميلتشيت ما زال يتابع مصدر المكالمة، لأن البدالة أخبرتني أن الخط مشغول، ولذلك طلبت منها معاودة المحاولة والاتصال بي ثانية وأعدت السماعة.

وضعت يدي في جيبي لأنظر مرة أخرى إلى الورقة التي أخذتها قبل قليل. وعندما أخرجتها أخرجت معها الرسالة التي وجدتها في صندوق الرسائل والتي لم تكن قد فتحت بعد. كان مظهرها مألوفاً جداً، وكان خطها نفس خط الرسالة المغفلة من التوقيع التي جاءتني بعد ظهر ذلك اليوم.

فتحتها. وقرأتها مرة... مرتين... غير قادر على إدراك فحواها. وكنت على وشك البدء بقراءتها للمرة الثالثة عندما رن جرس الهاتف.

رفعت السماعة كالحالم وقلت: نعم؟ أهذا أنت يا ميلتشيت؟

- نعم، أين أنت؟ تتبعتُ تلك المكالمة، وقد جاءت من الرقم...

- أعرف الرقم.

- آه، جيد! أهو المكان الذي تتكلم منه؟

- نعم.

- ماذا عن ذلك الاعتراف؟

- لقد حصلتُ على الاعتراف تماماً.

- أتعني أنك عرفت القاتل؟

تعرضت وقتها لأقوى إغراء صادفني في حياتي. نظرت إلى الخط الضخم الرديء الذي تركه صاحبه دون إمضاء، وإلى علبة الكبسولات الفارغة وعليها اسم «الملائكة الصغار»، وتذكرت حديثاً عارضاً جرى. بذلتُ جهداً هائلاً، ثم قلت: لا أدري، الأفضل أن تأتي أنت.

أعطيته العنوان، ثم جلست على الكرسي المقابل لهاوز لكي أفكر. كانت أمامي دقيقتان من الفراغ للقيام بذلك؛ فبعد دقيقتين سيكون ميلتشيت قد وصل. أخرجت الرسالة المغفلة من التوقيع وقرأتها للمرة الثالثة.ثم أغمضت عيني وفكرت...

* * *

الفصل الثامن والعشرون

لا أدري كم بقيت جالساً هناك... وأظنها لم تكن سوى بضع دقائق في الواقع. ولكن بدا لي أن أبدية كاملة قد مرت قبل أن أسمع الباب يُفتح. التفتّ ورفعت نظري فرأيت ميلتشيت يدخل الغرفة.

حدق إلى هاوز النائم على أريكته، ثم التفت إليّ وقال: ما هذا يا كليمنت؟ ماذا يعني هذا كله؟

اخترت واحدة من الرسالتين في جيبي وأعطيتها له... قرأها بصوت عال يمكن سماعه:

عزيزي كليمنت،

إن ما أنا مضطر لقوله أمر بغيض جداً. وأظن -في نهاية الأمر- أنني أفضّل كتابته، ويمكننا أن نناقشه في موعد لاحق. إنه يتعلق بالاختلاسات الأخيرة... إنني آسف للقول إنني اقتنعت قناعة لا تشوبها أية شكوك بهوية الجاني، ورغم كل الألم الذي يسببه لي اضطراري لاتهام رجل دين مُرسَّمٍ في الكنيسة فإن واجبي واضح. ينبغي أن تكون في الأمر عبرة و...

نظر إليّ متسائلاً، فعند هذه النقطة امتد الخط ليصبح خطوطاً طويلة لا يمكن تمييزها حيث همدت يد الكاتب. سحب ميلتشيت نفساً عميقاً ونظر إلى هاوز قائلاً: هذا هو الحل إذن! الرجل الوحيد الذي لم نفكر فيه مجرد تفكير... وقد دفعه الندم للاعتراف!

- لقد كانت أطواره بالغة الغرابة مؤخراً.

مشى ميلتشيت فجأة إلى الرجل النائم هاتفاً بحدة. أمسكه من كتفه وهزّه برفق في البداية، ثم أخذ يهزه بعنف متزايد، وقال: إنه ليس نائماً... بل مخدَّر! ما معنى هذا؟

انتقلت عينه إلى علبة الكبسولات الفارغة فقال: ترى هل؟...

- أظن ذلك. لقد أراني هذه الكبسولات بالأمس وأخبرني أن الطبيب حذره من تناول جرعات مضاعفة. إنها ميتته، المسكين. ربما كانت هذه أفضل طريقة... ليس لنا أن نحكم عليه الآن.

ولكن ميلتشيت كان رئيس شرطة المقاطعة قبل أي شيء آخر، والأفكار التي تروق لي أنا قد لا تعني له شيئاً. انقض على الهاتف بلمح البصر وأخذ يهز السماعة بصبر نافد حتى تلقى جواباً. طلب رقم هيدوك، ثم سادت فترة صمت كان خلالها يقف وأذنه على السماعة وعيناه على الجسد المرتخي على الأريكة.

- ألو... ألو... الدكتور هيدوك؟ أيمكن للدكتور أن يأتي فوراً إلى شارع هاي؟ منزل هاوز. الأمر عاجل... ماذا؟... حسناً، ما الرقم إذن؟... آه، أنا آسف.

ضرب السماعة وهو يتميز غضباً وقال: الرقم خطأ، الرقم

خطأً... دائماً الأرقام خاطئة! وحياة إنسان متوقفة على ذلك. ألو... لقد أعطيتموني رقماً خاطئاً... نعم، لا تضيع الوقت... أعطني ثلاثة ثلاثة تسعة... وليس خمسة.

مضت فترة أخرى من نفاد الصبر، وكانت أقصر هذه المرة.

- ألو... أهذا أنت يا هيدوك؟ ميلتشيت يتكلم... تعال إلى شارع هاي، منزل ١٩ على الفور. لقد تناول هاوز جرعة مضاعفة من عقارٍ ما. بسرعة يا رجل، فالأمر يتعلق بموت أو حياة!

أعاد السماعة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم قال: لا أدري ماذا دهاك بحيث لم تتصل بالطبيب فوراً يا كليمنت. لا بد أن عقلك أخذ يشرد.

لم يخطر في بال ميلتشيت -لحسن الحظ- أنه من الممكن أن تكون للناس آراء في التصرف الصحيح تختلف عن آرائه هو. لم أقل شيئاً فيما مضى هو يقول: أين وجدت هذه الرسالة؟

- كانت مكورة ومرمية على الأرض.. حيث سقطت من يده.

- أمر بالغ الغرابة... تلك العجوز كانت مصيبة في تخمينها بأن الرسالة التي وجدناها لم تكن الرسالة الحقيقية. عجباً كيف توصلت إلى ذلك! ولكن يا لغبائه إذ لم يتخلص من هذه الرسالة. كيف احتفظ بها... وهي أكبر دليل مدمر يمكن تخيله؟!

- إن الطبيعة البشرية مليئة بالمتناقضات.

- لو لم تكن كذلك لشككت في إمكانية قبضنا على أي مجرم

أبداً! دائماً ما تراهم يرتكبون حماقةً عاجلاً أم آجلاً. إنك تبدو على غير طبيعتك تماماً يا كليمنت. أحسب أن هذا الأمر كان أكبر صدمة لك؟

- فعلاً. لقد كان هاوز -كما قلت لك- غريب التصرفات منذ فترة، ولكني لم أتخيل أبداً...

- ومن الذي تخيل ذلك؟ اسمع، صوت سيارة.

ذهب إلى النافذة ففتح واقيتها الخشبية وأطل منها ثم قال: نعم، إنه هيدوك.

بعد دقيقة دخل الطبيب الغرفة، وببضع كلمات مقتضبة شرح ميلتشيت الموقف. ليس هيدوك بالرجل الذي يُظهر مشاعره. اكتفى بأن رفع حاجبيه وأومأ برأسه ومضى إلى مريضه. جسّ نبضه، ورفع جفنه ونظر بإمعان إلى عينه، ثم التفت إلى ميلتشيت وقال: تريد أن تنقذه لتقدمه لحبل المشنقة؟ ولكن حالته صعبة تماماً. سيكون إنقاذه مجازفة على كل حال... أشك في قدرتي على إعادته لوعيه.

- افعل كل ما في وسعك.

- حسناً.

انشغل بالحقيبة التي أحضرها معه، وحضّر حقنة حقنها في ذراع هاوز، ثم انتصب واقفاً وقال: الأفضل أن نأخذه إلى مَتش بينهام... إلى المستشفى هناك. ساعداني حتى ننزله إلى السيارة.

ساعدناه كلانا، وبعدما ركب هيدوك خلف عجلة القيادة التفت وألقى بعبارة وداعية: لن تستطيع أن تشنقه يا ميلتشيت.

- أتعني أنه لن يشفى؟

- شفي أم لم يشفَ... لم أقصد ذلك. أعني حتى إن شفي... فالمسكين لم يكن مسؤولاً عن أفعاله. سوف أدلي بشهادة بهذا المعنى.

قال ميلتشيت ونحن نصعد الدرج ثانية: ماذا عنى بقوله ذاك؟

شرحت له أن هاوز كان ضحية التهاب في الدماغ يسبب النوم.

- مرض النوم، أليس كذلك؟ يوجد دوماً سبب جيد يُبذل لتبرير كل فعل سيء يُرتكب. ألا توافقني؟

- إن العلم يعلمنا الكثير.

- تباً للعلم! أنا آسف يا كليمنت، ولكن كل هذا الحديث المائع يزعجني؛ فأنا رجل واضح... يحسن بنا أن نفتش هذا المكان.

ولكن في هذه اللحظة حدث قطع لحديثنا... وكان قطعاً مدهشاً. فُتح الباب ودخلت الآنسة ماربل الغرفة. كانت محمرة الوجه مرتبكة قليلاً، وبدا أنها أدركت وقع المفاجأة علينا.

- أنا آسفة جداً، آسفة جداً جداً... على تدخلي. مساء الخير يا كولونيل ميلتشيت. كما قلت لكم، إنني آسفة جداً، ولكنني - عندما سمعت أن السيد هاوز سقط مريضاً- شعرت أن عليّ أن آتي لأرى إن كان بوسعي المساعدة.

سكتت، وكان الكولونيل ميلتشيت ينظر إليها ببعض الازدراء، ثم ما لبث أن قال لها بجفاء: هذا لطف كبير منك يا آنسة ماربل، ولكن لا حاجة لأن تزعجي نفسك. بالمناسبة، كيف عرفت بالأمر؟

كان ذلك سؤالاً كنت أتوق لطرحه!

قالت الآنسة ماربل: الهاتف. إنهم شديدو الإهمال في مسألة الأرقام الخاطئة هذه، أليس كذلك؟ لقد تكلمتَ معي في البداية ظاناً أنني الدكتور هيدوك... رقمي هو ثلاثة ثلاثة خمسة.

هتفتُ قائلاً: هكذا إذن؟!

يوجد دائماً تفسير جيد جداً ومنطقي لتبرير معرفة الآنسة ماربل بكل ما يدور. استمرت قائلة: وهكذا جئت لأرى إن كان بوسعي تقديم أية مساعدة.

قال ميلتشيت مرة أخرى، بجفاء أشد هذه المرة: هذا لطف بالغ منك، ولكن لا يوجد ما يمكن فعله. لقد أخذه هيدوك إلى المستشفى.

- إلى المستشفى فعلاً؟ آه، هذا مصدر ارتياح عظيم! يسعدني جداً سماع ذلك. سيكون في أمان تام هناك، ولكن هل يعني قولك «لا يوجد ما يمكن فعله» أنه لن يشفى؟

قلت لها: هذا موضع شك كبير.

كانت عينا الآنسة ماربل قد انتقلتا إلى علبة الكبسولات، فقالت: أحسبه أخذ جرعة مضاعفة؟

أحسب أن ميلتشيت كان يفضل البقاء متحفظاً في كلامه. وربما كان ذلك موقفي أيضاً لو كانت الظروف غير الظروف، ولكن مناقشتي للقضية مع الآنسة ماربل كانت أقرب عهداً في ذهني من

أن أتبنى مثل هذا الموقف، رغم أن عليّ أن أعترف أن ظهورها المفاجئ هنا وفضولها المتلهف أزعجاني قليلاً. قلت لها: الأفضل أن تري هذه.

وأعطيتها رسالة بروثيرو التي لم يكملها.

أخذتْها وقرأتْها دون أن تبدو عليها أية دهشة. سألتها: لقد سبق لك واستنتجت شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟

- بلى، بلى حقاً. هل لي أن أسألك يا سيد كليمنت ما الذي جعلك تأتي إلى هنا هذه الليلة؟ هذه نقطة تحيرني. أنت والكولونيل ميلتشيت... ما كنت لأتوقع هذا أبداً.

شرحت لها مسألة المكالمة الهاتفية، وكيف ظننت أنني ميزت صوت هاوز. أومأت الآنسة ماربل برأسها متأملة وقالت: هذا مثير جداً. إنها العناية الإلهية إن كان لي أن أستخدم هذا التعبير. نعم، لقد جاءت بك إلى هنا في أحرج اللحظات.

قلت بمرارة: في أحرج اللحظات، لماذا؟

- لتنقذ حياة السيد هاوز طبعاً.

قلت لها: ألا ترين أن من الأفضل أن لا يشفى هاوز مما هو فيه؟ أفضل له... وأفضل للجميع. إنك تعرفين الحقيقة الآن و...

توقفتُ.. فقد كانت الآنسة ماربل تومئ برأسها بحماسة جعلتني أضيع ما كنت أريد قوله. قالت: طبعاً، طبعاً! هذا ما يريد هاوز أن يجعلك تظنه! أنك تعرف الحقيقة... وأن تلك الحال هي

أفضل للجميع. آه، نعم. الأمر كله اتضح الآن... الرسالة، والجرعة المضاعفة والحالة الذهنية للمسكين هاوز واعترافه. أمور كلها منسجمة بعضها مع بعض... ولكنها خطأ.

نظرنا إليها فقالت: لهذا أنا سعيدة جداً لأن هاوز آمن الآن حيث لا يستطيع أحد الوصول إليه، وإذا تعافى فسيخبركم بالحقيقة.

- الحقيقة؟

- نعم؛ حقيقة أنه لم يلمس شعرة واحدة في رأس بروثيرو.

قلت: ولكن ماذا عن المكالمة، والرسالة... والجرعة المضاعفة؟ الأمر كله واضح جداً.

- هذا ما يريدك أن تظنه. آه، إنه ذكي جداً! إن الاحتفاظ بالرسالة واستخدامها بهذا الشكل حركة ذكية جداً في الواقع.

قلت لها: من الذي تعنينه بقولك؟

- أعني القاتل.

ثم أضافت بهدوء شديد: أعني السيد لورنس ريدنغ!!

* * *

الفصل التاسع والعشرون

حدقنا إليها كلانا، وقد حسبنا -لوهلة- أنها فقدت عقلها فعلاً؛ فقد بدا اتهامها أبعد ما يكون عن العقل والمنطق!

كان الكولونيل أول من تحدث منا... تكلم بلطف وبنوع من التسامح المشفق: هذا غير منطقي أبداً يا آنسة ماربل؛ فالشاب ريدنغ تمت تبرئته تماماً.

- هذا طبيعي، فقد حرص على ترتيب ذلك.

قال الكولونيل ببرود: على العكس، لقد فعل كلّ ما في وسعه حتى يُتهم بارتكاب الجريمة.

- نعم، وقد خَدَعَنا جميعاً بذلك... خدعني أنا كما خدع الآخرين جميعاً. لعلك تتذكر يا سيد كليمنت أنني فوجئت تماماً عندما سمعتُ بأن السيد ريدنغ قد اعترف بالجريمة؛ فقد قلب ذلك كل أفكاري وجعلني أحسبه بريئاً... مع أنني كنت أشعر -حتى ذلك الحين- انه مذنب.

- إذن فقد كان لورنس ريدنغ هو من تشكّين فيه؟

- أعرف أن القاتل في الروايات يكون دائماً آخر من يمكن الشك به، ولكني لم أجد هذه القاعدة تنطبق على الحياة الواقعية أبداً؛ ففي الواقع غالباً ما يكون الواضح المباشر هو الصحيح. ورغم أني كنت أكن دوماً حباً كبيراً للسيدة بروثيرو إلاّ أنني لم أملك إلاّ أن أصل إلى نتيجة مفادها أنها واقعة تحت التأثير الكامل للورنس ريدنغ، ومن شأنها أن تفعل كل ما يطلبه منها، وهو بالطبع ليس من أولئك الشباب الذين يمكن أن يحلموا بالهرب مع امرأة لا تملك شيئاً. كان ضرورياً -من وجهة نظره- أن يتم التخلص من الكولونيل بروثيرو... وهكذا تخلص منه. إنه واحد من أولئك الشبان ذوي الفتنة الذين لا يملكون إحساساً خلقياً.

كان الكولونيل ميلتشيت يزأر منذ بعض الوقت، والآن انفجر قائلاً: هذا هراء تام... كل ما تقولينه هراء! إن لدينا تفسيراً كاملاً لتحركات ريدنغ حتى الساعة السادسة وخمس دقائق، وهيدوك يؤكد جازماً أن بروثيرو لا يمكن أن يكون قد قُتل وقتها. أخالك تحسبين نفسك أكثر معرفة من الأطباء... أم أنك تلمّحين إلى أن هيدوك يكذب عامداً... لسبب لا يعلمه إلاّ الله؟

- أظن أن شهادة هيدوك كانت صحيحة تماماً، وهو رجل في غاية الاستقامة. إن السيدة بروثيرو هي التي أطلقت النار على الكولونيل بروثيرو... وليس السيد ريدنغ.

حدقنا إليها ثانية! عدلت الآنسة ماربل شالها وردّت وشاحها الذي يغطي كتفيها، وبدأت تلقي محاضرة رقيقة من محاضرات

العجائز تحتوي على أكثر التصريحات إدهاشاً، وهي تلقيها -في نفس الوقت- بأكبر قدر من الطبيعية.

قالت: لم أجد من المناسب أن أتكلم حتى الآن، فاعتقاد المرء، حتى لو بلغ في قوته درجة المعرفة، لا يشكل بديلاً للدليل الدامغ. وما لم يكن لدى المرء تفسير يناسب كل الحقائق (كما كنت أقول للسيد كليمنت هذا المساء) فإنه لا يستطيع طرحه بقناعة حقيقية. ولم يكن تفسيري الخاص مكتملاً تماماً... كان ينقصه شيء واحد فقط... ولكنني لاحظت فجأة -وأنا أغادر مكتب السيد كليمنت- النبتة في الحوض قرب الباب الزجاجي للمكتب... وعندها انتصبت الحقيقة كاملة أمامي! واضحة وضوح الشمس!

تمتم ميلتشيت قائلاً لي: جنون... جنون مطبق!

ولكن الآنسة ماربل ابتسمت لنا بهدوء ومضت تقول بصوتها النسوي الهادئ: كنت آسفة جداً لظنوني التي ظننتها... كنت آسفة جداً؛ لأنني أحبهما كليهما... ولكنكما تعرفان طبيعة النفس البشرية! وفي البداية، عندما اعترف هو أولاً، ثم اعترفت هي بتلك الطريقة الحمقاء... عندها شعرت بارتياح بالغ إذ ظننت أنني كنت مخطئة. وبدأت أفكر بأشخاص آخرين ممن يمكن أن يكون لهم دافع للتخلص من الكولونيل بروثيرو.

تمتمتُ قائلاً: المشبوهون السبعة!

ابتسمت لي وقالت: نعم في الواقع. ذلك الرجل آرتشر... لم يكن محتملاً، ولكن من يدري كيف يمكن أن يتصرف إذا ما ملأ جوفه خمراً يلهب المشاعر؟ وخادمتك ماري؛ فهي تخرج مع

آرتشر منذ فترة طويلة، وهي ذات مزاج غريب، وقد توفر لها الدافع والفرصة، بل إنها كانت وحيدة في البيت! كان بإمكان السيدة آرتشر العجوز أن تحصل بسهولة على المسدس من بيت السيد ريدنغ لتعطيه لأيٍّ من هذين الاثنين. وليتيس... وهي بحاجة إلى الحرية والمال لتفعل ما تشاء. لقد عرفتُ حالات كثيرة كانت فيها فتيات شديدات الجمال والرقة يُظهرن افتقاراً رهيباً لأي وازع خلقي... رغم أن الرجال طبعاً لا يريدون تصديق ذلك!

طرفتُ بعيني، ومضت الآنسة ماربل تقول: ثم جاءت أيضاً مسألة مضرب التنس.

- مضرب التنس؟

- نعم، ذلك الذي رأته كلارا خادمة السيدة برايس ريدلي مرمياً على العشب قرب بوابة بيتك أيها الكاهن.. لقد دل ذلك على أن دينيس قد عاد من مباراة التنس تلك أبكر مما ادعى. إن الفتيان في سن السادسة عشرة شديدو التأثر بالآخرين ويفتقرون تماماً للاتزان. وكائناً ما كان دافعه لذلك... من أجل ليتيس أو من أجلك أنت أيها الكاهن، فقد كانت تلك إمكانية قائمة. ثم بالطبع السيد هاوز المسكين وأنت... ليس كلاكما بالطبع، ولكن أي واحد منكما.

هتفتُ بدهشة شديدة: أنا؟!

- نعم، أنا آسفة، وأنا في الواقع لم أشكّ حقاً... ولكن مسألة تلك المبالغ المالية المختفية. لا بد أن يكون أحدكما -أنت أو هاوز- مذنباً، وقد كانت السيدة برايس ريدلي تدور هنا وهناك وتلمّح إلى أنك أنت الملام... وذلك -بشكل رئيسي- لأنك اعترضت بقوة

على إجراء أي تحقيق في المسألة. أنا شخصياً كنت مقتنعة دوماً بأن الفاعل هو السيد هاوز... فقد ذكّرني كثيراً بذلك العازف المسكين على الأورغ الذي أشرتُ إليه، ولكن المرء لا يستطيع رغم ذلك أن يكون متأكداً تماماً.

أكملتُ أنا عبارتها بالقول: نظراً لطبيعة النفس البشرية.

- بالضبط! وتوجد العزيزة غريزلدا بالطبع.

قاطعها ميلتشيت قائلاً: ولكن السيدة كليمنت كانت خارج الموضوع تماماً؛ فقد عادت بقطار السادسة وخمسين دقيقة.

- هذا ما قالته هي، على المرء أن لا يعتمد على ما يقوله الناس. لقد تأخر قطار السادسة وخمسين دقيقة لمدة نصف ساعة في ذلك المساء، ولكنني رأيتها بأم عيني في الساعة السابعة والربع تنطلق إلى أولد هول، مما يعني أنها جاءت -دون ريب- في القطار الذي سبق قطار السادسة وخمسين دقيقة. والحقيقة أن بعضهم رآها، وربما كنتَ تعرف ذلك؟

نظرتْ إليّ متسائلة.

دفعني شيء من القوة في نظرتها لأن أُخرج آخر رسالة مغفلة من التوقيع لدي، وهي الرسالة التي فتحتها قبل قليل. وتذكر الرسالة بالتفصيل أن غريزلدا شوهدت تخرج من الباب الخلفي لبيت لورنس ريدنغ في الساعة السادسة والثلث من ذلك المساء المشؤوم.

لم أقل شيئاً وقتها (أو في أي وقت) عن الشك الرهيب الذي داهم عقلي. رأيت الأمر كما لو كان كابوساً: علاقة سرية قديمة بين

لورنس وغريزلدا، وتعلم غريزلدا بأن الأمر قد وصل إلى مسامع بروثيرو، وأنه قرر أن يطلعني على الحقائق... فتُصاب باليأس وتسرق المسدس وتُسكت بروثيرو. كان ذلك كابوساً كما قلت... ولكنه اتخذ -لدقائق طويلة معدودة- شكل الواقع الرهيب.

لا أدري إن كان لدى الآنسة ماربل طرف معرفة بذلك كله. الأرجح أن تكون عارفة به؛ فقليلة هي الأمور التي تخفى عليها!

أعادت لي الرسالة وهي تومئ برأسها وقالت: لقد انتشر ذلك في القرية كلها. ويبدو الأمر باعثاً على الشبهات، أليس كذلك؟ خاصة وأن السيدة آرتشر أقسمت في التحقيق أن المسدس كان ما يزال في البيت عندما غادرت عند الظهيرة.

سكتتْ لحظة ثم تابعت تقول: ولكنني أبتعد كثيراً عن الموضوع. ما أريد قوله -وأعتقد أنه من واجبي- هو أن أضع أمامكم تفسيري للقضية، فإن لم تصدقوه... أكون قد قمت بأفضل ما يمكنني عمله. وحتى في هذه اللحظة، فإن رغبتي في أن أكون واثقة تماماً قبل أن أتكلم ربما كلفت السيد هاوز المسكين حياته.

سكتت مرة أخرى. وعندما تابعت حديثها كان لصوتها وقع مختلف. كان صوتها أقلّ اعتذاراً وأكثر جزماً: هذا هو تفسيري للحقائق: مع حلول عصر يوم الخميس كانت الجريمة قد اكتملت تخطيطاً حتى أدق التفصيلات: قام لورنس أولاً بزيارة الكاهن وهو يعرف أنه خارج البيت. كان معه المسدس الذي أخفاه في حوض النباتات ذاك عند الباب الزجاجي، وعندما جاء الكاهن، برر لورنس زيارته بالادعاء بأنه عزم أمره على السفر. في الخامسة والنصف اتصل

لورنس ريدنغ بالكاهن من غرفة البواب عند البوابة الشمالية لمنزل أولد هول منتحلاً صوت امرأة (وأنتم تذكرون أنه كان من أبرع الممثلين الهواة). كانت السيدة بروثيرو وزوجها قد انطلقا لتوهما باتجاه القرية. والأمر الغريب جداً (رغم أن أحداً لم ينتبه إليه بذلك المعنى) أن السيدة بروثيرو لم تحمل معها حقيبة يد، وهو أمر غير طبيعي أبداً من امرأة. وقبل السادسة والثلث بقليل عبرت من أمام حديقتي وتوقفتْ وتكلمت معي بحيث تعطيني كل فرصة ممكنة حتى ألاحظ أنها لا تحمل أي سلاح معها وأنها أيضاً تتصرف بشكل طبيعي تماماً، فقد أدرك الاثنان أنني ممن يلاحظون الأشياء. اختفت خلف زاوية البيت ثم توجهت إلى الباب الزجاجي للمكتب. كان الكولونيل المسكين جالساً إلى الطاولة يكتب لك رسالته، وهو شبه أصم كما نعلم جميعاً. أخذت المسدس من الحوض حيث كان بانتظارها، وجاءت من خلفه فأطلقت الرصاص على رأسه، ثم رمت المسدس وخرجت كلمح البصر لتذهب عبر الحديقة إلى المرسم. من شأن أي امرئ تقريباً أن يحلف أنها ما كانت تملك من الوقت ما يسمح لها بذلك!

اعترض ميلتشيت قائلاً: ولكن ماذا عن الطلقة؟ أنت لم تسمعي أي صوتٍ لطلقة؟

- ألا يوجد ابتكار جديد اسمه كاتم الصوت؟ هذا ما فهمته من القصص البوليسية. أتساءل إن كانت العطسة التي سمعتها تلك الخادمة كلارا لا تعدو أن تكون في الواقع صوت الطلقة؟ ولكن لا أهمية لذلك. تقابلت السيدة بروثيرو مع لورنس عند المرسم ودخلا معاً... وأخشى أنهما أدركا -نظراً لطبيعة النفس البشرية- أنني لن أغادر الحديقة حتى يخرجا من المرسم ثانية!

لم يسبق لي أن أحببت الآنسة ماربل كما أحببتها هذه اللحظة، باستيعابها الهزلي لنقطة ضعفها الخاصة.

مضت تقول: وعندما خرجا بالفعل كان سلوكهما مرحاً وطبيعياً. وقد ارتكبا في هذه النقطة غلطة في الواقع؛ لأنهما إن كانا قد ودعا بعضهما بعضاً كما زعما لكان من شأنهما أن يظهرا بمظهر مختلف تماماً. ولكن كانت تلك نقطة ضعفهما... فهما -ببساطة- لا يجرؤان على الظهور بمظهر القلِق المنزعج بأي شكل. وفي الدقائق العشر التالية كانا حريصين على تأمين دليل غياب عن مكان الجريمة لنفسيهما. وأخيراً ذهب السيد ريدنغ إلى بيت الكاهن ليغادره في الوقت الذي يشاء. وربما رآك قادماً من بعيد على الطريق الترابي واستطاع أن يوقت الأمور بشكل رائع. أخذ المسدس وكاتم الصوت، وترك الرسالة المزيفة وقد كُتب عليها الوقت بحبر مختلف وبخط مختلف كما هو واضح. وعندما يُكتشَف ذلك التزييف فمن شأنه أن يبدو محاولة خرقاء لإدانة آن بروثيرو.

ولكنه -عندما ترك الرسالة- وجد تلك التي كتبها الكولونيل بروثيرو فعلياً... وكان ذلك شيئاً غير متوقع أبداً. وبوصفه شاباً شديد الذكاء، ولإدراكه أن هذه الرسالة قد تنفعه كثيراً في المستقبل، فإنه أخذها، ثم غير وضع عقارب الساعة لتلائم الوقت المثبت على الرسالة... وهو يعرف أن الساعة تبقى سابقة ربع ساعة للوقت الحقيقي. وبذلك ستكون الفكرة نفسها... محاولة ساذجة لإحاطة السيدة بروثيرو بالشبهات. ثم غادر المنزل ليلتقيك خارج البوابة ويمثل دور من أذهله أمرٌ ما عن نفسه. إنه ذكي جداً كما قلت... ما الذي سيحاول فعله مجرم ارتكب جريمة قتل؟ سيحاول طبعاً

التصرف بشكل طبيعي. وهذا بالضبط ما لم يفعله السيد ريدنغ. تخلص من كاتم الصوت، ولكنه ذهب إلى مركز الشرطة ومعه المسدس واتهم نفسه بشكل سخيف خدع به الجميع.

كان في تلخيص الآنسة ماربل للقضية شيء ساحر ما. كانت تتكلم بثقة جعلتنا نشعر أن الجريمة ما كان لها أن تُرتكب إلاّ بهذه الطريقة. سألتُها: ماذا بشأن الطلقة التي سُمعت في الغابة؟ أكانت تلك هي المصادفة التي أشرتِ إليها في وقت سابق من هذا المساء؟

هزت الآنسة ماربل رأسها بسرعة وقالت: آه، لا يا عزيزي! تلك لم تكن مصادفة... بل كانت أبعد ما تكون عن المصادفة. كان من الضروري جداً أن تُسمع طلقة... وإلاّ لاستمرّ الشك في السيدة بروثيرو. لا أدري تماماً كيف رتب السيد ريدنغ أمر ذلك. ولكني فهمت أن حمض البكريك ينفجر إن ألقيتَ عليه ثقلاً، ولعلك تذكر -أيها الكاهن العزيز- أنك قابلت السيد ريدنغ وهو يحمل حجراً كبيراً في نفس المكان في الغابة تقريباً حيث وجدتَ حمض البكريك لاحقاً. إن الرجال شديدو الذكاء في ترتيب الأمور... يُعلّق الحجر فوق تلك القطعة الكريستالية، ثم يُستخدم جهاز توقيت صغير أو شيء من البارود بطيء الاشتعال يتطلب اشتعاله كاملاً نحواً من عشرين دقيقة بحيث يحدث الانفجار في نحو السادسة والنصف، عندما يكونان (هو والسيدة بروثيرو) قد خرجا من المرسم وأصبحا على مرأى من الجميع. وهو إجراء آمن جداً، إذ ما الذي يمكن العثور عليه لاحقاً؟ مجرد حجر كبير! ولكن حتى هذا الحجر حاول ريدنغ نقله... وذلك عندما فاجأته أنت.

هتفت وقد تذكرت جفلة المفاجأة التي بدت على لورنس عند رؤيتي: أظنك محقة في ذلك.

كان الأمر قد بدا لي طبيعياً وقتها، أما الآن...

بدا أن الآنسة ماربل كانت تقرأ أفكاري، فقد أومأت برأسها بذكاء وقالت: نعم، لا بد أن لقاءه بك في تلك اللحظة كان صدمة شديدة له. ولكنه تدارك ذلك بشكل جيد، متظاهراً بأنه يريد إحضار الحجر لي لأضعه في حديقتي الصخرية.

أصبحت لهجة الآنسة ماربل فجأة شديدة الثقة وهي تقول: إلاّ أن الحجر كان من النوع الخطأ بالنسبة لحديقتي! وقد جعلني ذلك أضع قدمي على المسار الصحيح!

كان الكولونيل ميلتشيت يجلس طوال هذا الوقت كالمسحور، وقد بدت عليه الآن علامات الصحوة. شخر مرة أو مرتين، ونفخ بأنفه حيرة ثم قال: يا إلهي! يا إلهي!

ولكنه لم يلزم نفسه بعبارة غير هذه. أظنه كان -كما كنت أنا- متأثراً بتلك الثقة المنطقية لاستنتاجات الآنسة ماربل، ولكنه كان متردداً في الاعتراف مبدئياً بذلك. وبدلاً من ذلك مد يده وأخذ الرسالة المكورة وصاح قائلاً: حسن جداً، ولكن كيف تفسرين أمر هاوز؟ لقد اتصل فعلياً واعترف.

- نعم، هذا هو ما توفرت له عناية ربانية؛ موعظة الكاهن دون شك. أتعلم يا عزيزي كليمنت؟ لقد ألقيتَ حقاً موعظة رائعة جداً.

لا بد أنها أثّرت بعمق في السيد هاوز. لم يعد بوسعه تحمل الأمر، وشعر أن عليه أن يعترف... بشأن إساءة استخدام أموال الكنيسة.

- ماذا؟

- نعم، وهذا ما أنقذ حياته. (لأني آمل وأثق أنه سيعيش، فالدكتور هيدوك ماهر جداً). تتلخص القضية -كما أراها- في أن السيد ريدنغ احتفظ بهذه الرسالة (وفي ذلك مجازفة خطيرة ولكني أظنه خبأها في مكان آمن) وانتظر حتى عرف بشكل مؤكد هوية الشخص الذي تشير الرسالة إليه. سرعان ما تأكد أنها تشير إلى السيد هاوز. وقد فهمت أنه عاد إلى هنا ليلة أمس مع السيد هاوز وقضى وقتاً طويلاً معه، ولعله استبدل بعلبة كبسولات السيد هاوز علبة أخرى من عنده، ودس هذه الرسالة في جيب الرداء الليلي الذي يرتديه السيد هاوز. كان من شأن الشاب المسكين أن يبتلع الكبسولة القاتلة بكل براءة... وبعد موته سيتم استعراض حاجياته والعثور على الرسالة، وسيستنتج الجميع بأنه قتل الكولونيل بروثيرو ثم انتحر ندماً. يخيل إليّ أن السيد هاوز عثر -دون شك- على تلك الرسالة الليلة بعد تناوله للكبسولة القاتلة تماماً، ولا شك أنها بدت له -وهو في حالته المضطربة- أمراً خارقاً للطبيعة يأتي بعد موعظة الكاهن، ولا شك أن ذلك دفعه للاعتراف بالأمر بالشكل الذي فعل.

هتف ميلتشيت: يا إلهي، يا إلهي! أمر غريب جداً! إنني... إنني لا أصدق كلمة من ذلك.

لم يسبق له أبداً أن قال عبارة أقلّ إقناعاً من عبارته هذه، ولا ريب أنها بدت كذلك حتى لمسامعه هو، فقد تابع قائلاً: وهل

تستطيعين تفسير المكالمة الهاتفية الأخرى... التي أُجريت مع السيدة برايس ريدلي من بيت السيد ريدنغ؟

- آه! هذا هو ما أسميته المصادفة. العزيزة غريزلدا هي التي أجرت تلك المكالمة... بالاتفاق مع السيد دينيس كما أظن. فقد سمعا الإشاعات التي تروجها السيدة برايس ريدلي حول الكاهن، وفكّرا بهذه الطريقة (الطفولية بعض الشيء) لإسكاتها. وتكمن المصادفة في حقيقة أن المكالمة يُفترض أن تكون قد أجريت تماماً في نفس وقت الطلقة الزائفة في الغابة، وقد أدى ذلك إلى الاعتقاد بأن بين الأمرين علاقة.

تذكرتُ فجأة كيف أن كل من تكلم عن تلك الطلقة وصفها بأنها «مختلفة» عن الطلقة العادية. كانوا جميعاً على صواب، ومع ذلك كم هو صعب أن يشرح المرء وجه «الاختلاف» في هذا الأمر.

تنحنح الكولونيل ميلتشيت ثم قال: إن نظريتك معقولة تماماً يا آنسة ماربل، ولكن اسمحي لي أن أشير إلى أنها تفتقر إلى أي دليل ملموس.

- أعرف. ولكنك ترى أنها صحيحة، أليس كذلك؟

ساد بعض الصمت، ثم قال الكولونيل بتردد: بلى، أراها كذلك. تباً، إنها الطريقة الوحيدة الممكنة لهذه الجريمة. ولكن ليس من دليل، ولا ذرة منه.

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت: ولذلك فكرتُ بأنه... في مثل هذه الظروف... ربما كان مسموحاً بنصب فخٍّ صغير.

* * *

الفصل الثلاثون

نظرنا إليها كلانا وهتفنا: فخ؟ أي فخٍ هذا؟

كانت الآنسة ماربل خَجِلة قليلاً، ولكن بدا واضحاً أن لديها خطة واضحة جاهزة. قالت: ماذا لو تم تحذير السيد ريدنغ هاتفياً؟

ابتسم الكولونيل ميلتشيت وقال: "لقد انكشف كل شيء، اهرب بجلدك!". هذه حيلة قديمة يا آنسة ماربل... رغم أنها كثيراً ما تنجح! ولكني أظن أن ريدنغ في هذه الحالة أكثر حذراً من أن يُمسَك بهذه الطريقة.

قالت الآنسة ماربل: ينبغي أن يكون شيء محدد، أدرك ذلك تماماً. أقترح -وهذا مجرد اقتراح- أن يأتيه التحذير من شخص معروف بآرائه غير التقليدية في هذا الشأن. إن أحاديث الدكتور هيدوك -مثلاً- تقنع أي امرئ بأنه ينظر إلى مسألة القتل من زاوية غير عادية. فإذا ما لمّح الدكتور إلى أن شخصاً -ولنقل السيدة سادلر مثلاً أو أحد أبنائها- صدف وشاهد استبدال علب الكبسولات... عندها إن كان السيد ريدنغ بريئاً فلن يعني له ذلك القول شيئاً، ولكن إن لم يكن بريئاً...

- قد يقدم على تصرف طائش.

- وبهذه الطريقة يوقع نفسه بين أيدينا. نعم، هذا ممكن. ولكن هل يرضى هيدوك بذلك؟ إذ أن آراءه كما قلتِ...

قاطعته الآنسة ماربل قائلة: آه، من الناحية النظرية فقط! والنظرية مختلفة تماماً عن التطبيق، أليس كذلك؟ ولكن، ها قد جاء هيدوك، يمكننا أن نسأله.

أظن أن هيدوك قد دُهش لرؤية الآنسة ماربل معنا. كان يبدو متعباً منهكاً، وقال: أوشك الرجل أن يموت... كان نصف ميت، ولكنه سيعيش بإذن الله. إن من واجب الطبيب أن ينقذ مرضاه، وقد أنقذته، ولكني كنت أتمنى بنفس الوقت أن لا أنجح في ذلك.

قال ميلتشيت: ربما غيرت رأيك حين تسمع ما سنخبرك به.

ثم وضع أمامه بإيجاز واقتضاب نظرية الآنسة ماربل منهياً حديثه بعرض اقتراحها الأخير. وهنا سنح لنا أن نرى ما عنته الآنسة ماربل بحديثها عن الفارق بين النظرية والتطبيق، فبعد سماعه للقصة رأيتُ أنه يرغب برؤية رأس لورنس على طبق، ويخيل لي أن ما أثار حنقه لم يكن مقتل الكولونيل بروثيرو، بل الاعتداء على هاوز المسكين.

أخذ يقول: يا للشرير الشقي! إن لذلك المسكين هاوز أماً وأختاً أيضاً، وسبّة كونهما أماً وأختاً لقاتل كانت ستلازمهما طوال الحياة، ناهيك عن عذابهما العقلي. ألم يجد غير هذه الحيلة الخسيسة الجبانة!

إذا أردت أن ترى الغضب الساطع البدائي فانظر إلى رجل شديد الإنسانية عندما يثور.

قال هيدوك: إن كان هذا صحيحاً فلكم أن تعتمدوا عليّ. هذا الرجل لا يستحق الحياة؛ لم يجد إلاّ شاباً مثل هاوز لا حول له ولا طَوْل!

يمكن الاعتماد على شفقة هيدوك حتى تجاه كلب أعرج. كان يرتب التفصيلات بلهفة مع ميلتشيت عندما نهضت الآنسة ماربل، وألححتُ على إيصالها إلى البيت. قالت الآنسة ماربل ونحن نمشي في الشوارع الخالية: إنه لطف بالغ منك يا سيد كليمنت. يا إلهي، لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة. أرجو أن يكون ريموند قد نام ولم ينتظر عودتي.

- كان عليه أن يرافقك.

- لم أُشعره بأنني ذاهبة.

ابتسمتُ فجأة -وأنا أتذكّر- التحليلَ النفسي العميق الذي عرضه ريموند وست للجريمة. قلت لها: إن تبين أن نظريتك صحيحة -وهو ما لا أشك به لحظة واحدة- فستكونين قد سجلت نقطة عليه.

ابتسمت الآنسة ماربل أيضاً ابتسامة محببة وقالت: إنني أتذكر قولاً لعمة مسنة كانت لي اسمها فاني. كنت وقتها في السادسة عشرة ورأيت قولها سخيفاً جداً.

- نعم، وما هو؟

- كانت تقول دوماً: «يظن الشباب أن المسنين حمقى، ولكن المسنين يعرفون أن الشباب حمقى!».

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

لم يبق إلاّ القليل مما يمكن أن يقال، فقد نجحت خطة الآنسة ماربل. لم يكن لورنس ريدنغ بريئاً، وقد جعله ذكر وجود شاهد على استبدال الكبسولات يقوم فعلاً «بعمل طائش». تلك هي عاقبة الضمير المثقل بالآثام.

كان في موقف فريد بالطبع، ويخيل إليّ أن رد فعله الأولي كان أن يطلق ساقيه للريح، ولكن كان عليه أن يفكر بشريكته؛ إذ لا يستطيع المغادرة دون أن يوصل لها خبراً بذلك، ولم يجرؤ على الانتظار حتى الصباح. وهكذا ذهب إلى أولد هول في تلك الليلة... وتبعه اثنان من خيرة رجال ميلتشيت. رمى الحصى على نافذة آن بروثيرو فأيقظها وهمس لها همسة استعجال جعلتها تنزل للحديث معه. لا شك أنهما وجدا الحديث في الخارج أكثر أمناً منه في الداخل... حيث إمكانية استيقاظ ليتيس، ولكن ضابطي الشرطة استطاعا سماع الحديث كاملاً. انكشف الأمر: كانت الآنسة ماربل محقة في كل ما قالته!

وقد أصبحت محاكمة لورنس ريدنغ وآن بروثيرو معروفة

للجميع، ولست أنوي الخوض فيها. سأكتفي بالإشارة إلى أن الكثير من الفضل قد تم الاعتراف به للمفتش سلاك الذي أدى ذكاؤه إلى تقديم المجرمَيْن للعدالة. ومن الطبيعي أن شيئاً لم يُذكَر عن دور الآنسة ماربل في القضية، وقد كان من شأنها -هي شخصياً- أن تفزع لفكرةٍ من هذا النوع.

جاءت ليتيس لرؤيتي قبل المحاكمة تماماً. دخلتْ تائهة من الباب الزجاجي لمكتبي أشبه بالشبح كعادتها، وأخبرتني -وقتها- أنها كانت مقتنعة طوال الوقت بأن زوجة أبيها كانت شريكة في الجريمة، وقد كان البحث عن القبعة الصفراء مجرد عذر من أجل تفتيش المكتب؛ كان لديها أمل يائس بأن تجد شيئاً أغفلته الشرطة.

قالت بصوتها الحالم: أتدري، إنهم لم يكرهوها كما كرهتها... والكراهية تجعل الأمور أسهل على المرء.

كانت قد رمت قرط السيدة بروثيرو على الأرض بعد أن يئست من العثور على شيء خلال بحثها. قالت: طالما أنني كنت أعرف أنها قد قتلته، فما أهمية ذلك؟ كل الطرق صالحة بنفس الدرجة. فقد قَتَلَتْه بالفعل.

تنهدتُ قليلاً. بعض الأمور التي لن تراها ليتيس أبداً؛ إن لديها -في بعض النواحي- عمى ألوان أخلاقياً.

- ما الذي ستفعلينه يا ليتيس؟

- عندما... عندما ينتهي الأمر كله سأسافر إلى الخارج.

ترددتْ قليلاً ثم قالت: سأسافر مع أمي.

رفعت بصري وقد جفلت.

أومأت برأسها وقالت: ألم تخمن أبداً ذلك؟ السيدة ليسترينج هي أمي. إنها.. إنها مريضة جداً، وستموت عمّا قريب. كانت تريد رؤيتي، وهكذا جاءت إلى هنا تحت اسم مستعار، وقد ساعدها الدكتور هيدوك. إنه واحد من أصدقائها القدامى... وكان شديد الإعجاب بها ذات يوم... بوسعك أن ترى ذلك! وهو ما يزال كذلك، بمعنى ما. كان الرجال دوماً يُفتنون بأمي كما أظن، وهي ما زالت -إلى الآن- بالغة الحسن. على كلِّ حال، فعل الدكتور هيدوك كل ما يستطيع لمساعدتها. لم تأتِ باسمها الطبيعي بسبب الطريقة المقرفة التي تدور بها الأقاويل هنا. ذهبتْ لرؤية والدي في تلك الليلة، ولتقولَ له إنها تحتضر وإن بها شوقاً عظيماً لرؤيتي. كان والدي متوحشاً... قال لها إنها قد سبق وتنازلت عن كل حق لها بي، وإنني أظنها ميتة... تلك كانت رواية أبي التي أراد لي أن أنشأ عليها، ولكني لم أصدّقها يوماً! إن الرجال من طراز والدي لا يرون بوصة واحدة أبعد من أنوفهم!

ولكن أمي ليست ممن يستسلمون. كانت قد رأت أن من النزاهة أن تلجأ لوالدي أولاً، ولكن عندما صدّها بكل تلك القسوة أرسلَتْ رسالة لي، وأجريت أنا ترتيباً بحيث أغادر مباراة التنس مبكراً وأقابلها عند نهاية الطريق الترابي في الساعة السادسة والربع... وقد اكتفينا بلقاء عاجل ورتبنا موعداً للقاء لاحق، ثم افترقنا قبل السادسة والنصف. وفيما بعد أرعبني احتمال اتهامها بقتل والدي؛ إذ أن لديها -في نهاية المطاف- ما يحملها على هذا الفعل بسبب كراهيتها له، ولذلك شّوهتُ صورتها تلك في السقيفة لأخفي ملامح وجهها. كنت

أخشى أن يأتي الشرطة ليدسّوا أنوفهم في المنزل فيجدوا الصورة ويميزوا صاحبتها. وقد شعر الدكتور هيدوك أيضاً بالرعب... وأظنه ذهب أحياناً إلى حد الاعتقاد بأنها هي التي ارتكبت الجريمة! إن أمي من النوع... اليائس؛ فهي لا تحسب للعواقب حساباً.

سكتت قليلاً ثم قالت: أمر غريب... إنني أشعر معها بالانتماء والتقارب، بينما لم أكن أشعر ذلك مع أبي. أما أمي... حسناً، إنني مسافرة معها على كل حال. وسأظل معها حتى... حتى النهاية.

نهضت فأمسكتُ بيدها وقلت: ليحفظكما الله. آمل أن تجدي في يومٍ ما الكثير من السعادة يا ليتيس.

قالت وهي تتكلف التبسّم: لا بد أن أجد السعادة، فأنا لم أرَ منها الكثير حتى الآن، أليس كذلك؟ آه، لا أظن ذلك مهماً. وداعاً يا سيد كليمنت. لقد كنتَ دوماً في غاية اللطف معي... أنت وغريزلدا.

* * *

آه، غريزلدا!

لقد اضطررت لأن أعترف لغريزلدا بمقدار الانزعاج الرهيب الذي سببته لي الرسالة المغفلة من التوقيع. ضحكت في البداية، ثم أمطرتني بمحاضرة جدية انتهت بعدها إلى القول: ولكني سأكون بالغة الجدية والوقار والاتزان في المستقبل.

لم أستطع تخيل غريزلدا بوقار واتزان!

مضت تقول: أتعلم يا لين، إن عامل استقرار يدخل حياتي هذه الأيام ليعدّل منها ويثبّتها، وهو يدخل حياتك أنت أيضاً، ولعله يكسبك نوعاً من الإحساس بعودة الشباب، أو هذا ما آمله على الأقل! لن تستطيع تسميتي طفلتك العزيزة، إذ سيكون لنا طفل خاص بنا. وقد قررت يا لين أن أكون الآن «أمّاً وزوجة» حقيقية كما يقولون في الكتب... وينبغي أن أصبح ربة بيت جيدة أيضاً. لقد اشتريت كتابين عن «إدارة البيت» و«حب الأم»، وإذا لم يجعلني هذان الكتابان مثالاً يُحتذى فلا أدري ما الذي يمكن أن يجعلني كذلك! إنهما كتابان ممتعان جداً، وخاصة الكتاب الخاص بتربية الأطفال.

سألتها فجأة: ألم تشتري كتاباً حول «كيف تعاملين زوجك»؟

- لا حاجة لذلك؛ فأنا زوجة ممتازة. إنني أحبك كثيراً، ما الذي تريده أكثر من ذلك؟

- لا شيء!

- أتستطيع أن تقول لي -مرة واحدة فقط- إنك تحبني بجنون؟

- يا غريزيلدا! إنني أحبك، وأهواك، وأنا متيّمٌ ومفتون بك.. ماذا أقول سوى ذلك؟

تنهدت زوجتي بارتياح، ولكنها ابتعدت عني فجأة وهي تقول: يا للإزعاج! ها هي الآنسة ماربل قادمة... لا تدعها تشك بشيءٍ مما قلته لك عن الطفل القادم؛ فلا أريد أن يبدأ الجميع بإعطائي مخدات ومساند وتوصيتي برفع قدمي. قل لها إنني ذهبت إلى ملعب الغولف، فذلك سيضلل حاستها السادسة... وهو أمر صحيح فوق

ذلك، لأني نسيت سترتي الصفراء هناك، وأريد إحضارها.

جاءت الآنسة ماربل إلى الباب الزجاجي وحيتني بشيء من الاعتذار وطلبت غريزلدا.

قلت: لقد ذهبت غريزلدا إلى ملعب الغولف.

ظهر على وجه الآنسة ماربل تعبيرُ قلقٍ واهتمام وقالت: "آه، ولكن هذا تصرف يفتقر تماماً إلى الحكمة... في هذه الفترة". وبعدها احمرّ وجهها بطريقة لطيفة نسوية قديمة الطراز.

وللتغطية على الاضطراب الذي ساد تلك اللحظة تحدثنا بسرعة عن قضية بروثيرو، وعن الدكتور ستون الذي تبين أنه كان لصاً شهيراً ينتحل عدة أسماء مختلفة.

وبالمناسبة فقد تمت تبرئة الآنسة كرام من أي تواطؤ، وقد اعترفت أخيراً بأخذ الحقيبة إلى الغابة، ولكنها كانت تقوم بذلك بكل نية حسنة بعد أن أخبرها الدكتور ستون بأنه يخشى منافسيه من علماء الآثار الذين لا يتورعون عن السرقة في سبيل الوصول إلى هدفهم المتمثل في دحض نظرياته. والظاهر أن هذه القصة التي يصعب هضمها قد انطلت على الفتاة. وهي الآن -وفق ما يقوله أهل القرية- تبحث عن زبون أكثر صدقاً يأخذ شكل عازب في أواسط عمره يحتاج إلى سكرتيرة.

تساءلت في سرّي -فيما كنا نمشي أنا والآنسة ماربل- كيف قُدِّر لها أن تكتشف سرنا العائلي الأخير، ولكن سرعان ما أعطتني

الآنسة ماربل نفسُها -بشكل ضمني- طرفَ خيط لفهم ذلك؛ فقد تمتمت قائلة: أرجو أن لا ترهق العزيزة غريزلدا نفسها.

ثم أضافت بعد فترة صمت متحفظة: لقد كنت في المكتبة في مَتش بينهام بالأمس.

يا للمسكينة غريزلدا... لقد كان ذلك الكتاب عن «حب الأم» سبب انكشاف سرها!

قلت فجأة: أتساءل يا آنسة ماربل إن كان بوسع أحد أن يكشف أمرك إن قُدِّر لك أن ترتكبي جريمة قتل.

قالت الآنسة ماربل مصدومة: يا لهذه الفكرة الفظيعة! أرجو أن لا أستطيع أبداً فعل مثل هذا الأمر.

تمتمتُ قائلاً: ولكن نظراً لما تنطوي عليه الطبيعة البشرية...

تفاعلت الآنسة ماربل مع لمزتي بضحكة عجوز رائعة وقالت وهي تنهض: يا لدعاباتك يا سيد كليمنت!... ولكن هذا طبيعي، فمعنوياتك في أحسن حال.

ثم توقفت عند الباب وقالت: أبلغ حبي لغريزلدا وقل لها إن أي سرٍّ صغير يكون في حرز أمين لديّ.

يا للآنسة ماربل من امرأة عزيزة حقاً!

* * *